ا. فاديف

الهزيمة

ترجمة: ابراهيم فتحي

دار النديم

ا. فديف

الهزيمة

ترجمة: ابراهيم فتحي

مطبعة الدار المصرية
للطبـاعة والنشر والتوزيع
٢٢ ش سامى بالمالية ـ ت ٣٢٥٧٨

الفصل الأول

موروزكا

هبط « ليفنسون » إلى الردهة ، وسيفه ذو الطراز الياباني يحدث صليلا فوق الدرجات . وقد انبعث من الحقول شذا القمح ، وقد غدا في لون الشهد ، وشمس يوليو تسبح في زبد ساخن من سحب اصطبغ بياضها بلون الورد . وكان « موروزكا » جندي المراسلة يجفف بعض الشوفان ، على قطعة سميكة من النسيج ، ووقف يهش عنه بالسوط سربا من دجاج حبشي ، في صفرة النحاس .

ومد « ليفنسون » يده بخطاب مغلق قائلا :

ــ خذ هذا إلى فصيلة شالديبا ، وقل له ... ، ولكن لا حاجة إلى ذلك فكل شيء مكتوب في الخطاب .

فأشاح « مورزوكا » برأسه ممتعضا ، وضرب الهواء بسوطه ، فلم يكن راغبا في الذهاب . فهو قد ضاق ذرعا بهذه الانتقالات الرسمية وبهذه الرسائل التي لا جدوى منها ، وفوق كل ذلك بهذه النظرة الغريبة في عيني ليفنسون . فهاتان العينان الكبيرتان العميقتان ، وكأنهما بحيرتان توأمتان ، تحتويان موروزكا بأكمله حتى الحذاء ، وتريان فيه أشياء كثيرة ، قد يكون موزوزكا نفسه غافلا عنها ، وغمغم جندي المراسلة مفكراً ، وعينه تومض ، وشعوره جريح .

ــ ابن الحرام !!

وتساءل ليفنسون :

ــ والآن . . ماذا تنتظر ؟

ــ أيها الرفيق القائد .. لماذا يضطر موروزكا دائماً أن يذهب إلى كل مكان . ؟ أليس هناك أحد غيره ؟ .

وقد قال موروزكا « الرفيق القائد » عن عمد ، ليضفى على الأمر طابع الرسمية ؛ فقد كان معتاداً على مخاطبة ليفنسون باسمه المجرد .

فسأله ليفنسون بسخرية لاذعة :

ــ قد يكون من الواجب أن أذهب أنا بنفسى . . أليس كذلك ؟.

ــ لماذا بنفسك . . ثمة رجال كثيرون .

ودفع ليفنسون بالخطاب إلى جيبه ، وفى عينيه نظرة حاسمة لرجل قد عيل صبره ، ثم قال بهدوء قاتل :

ــ اذهب وسلم بندقيتك إلى أمين المخزن ثم انصرف ، فلست فى حاجة هنا إلى متسكعين .

وهبت نسمة رقيقة من النهر فعبثت بالخصلات الثائرة من شعر موروزكا ، ودأبت الجنادب على تمزيق الصمت الساجى الذى يلف الجو المتوهج قيظا فى أرض يحرق الظمأ نبتها ، وبجوارها صومعة حبوب .

وصاح موروزكا ضجراً .

ــ مهلا ... أعطنى هذا الخطاب .

ووضع الخطاب تحت قميصه ثم بدأ يشرح الأمر ، لا لكى يقنع ليفنسون بل لكى يقنع نفسه .

ــ أنصرف وأسلم بندقيتى ؟ . ليس من المحتمل أن أفعل ذلك . ثم أمال قلنسوته حتى وصلت إلى مؤخر رأسه ، وبدأ يتكلم على خلاف المتوقع ، وصوته يشيع فيه مرح صادر عن القلب .

ــ أيها الصديق ليفنسون ، نحن لانقوم بعملنا إكراماً لجمال عينيك .. وأنا أقول لك ذلك بلغة رجال المناجم الواضحة . وضحك القائد قائلا :

ــ ها أنت ذا قد بدأت فى الثرثرة ! .. لم يكن من الضرورى أن تكون لك رأس بغل عنيد أيها الأبله .

وجذب موروزكا ليفنسون من أحد أزرار ثوبه قائلا فى همس غامض :

ــ أيها الأخ ، لقد كنت على وشك الذهاب لرؤية فاريا فى المستشفى ، ثم برزت أنت بخطابك .. ومن الواضح أن هذا يجعلك أبلها .. أنت وليس أنا .

وغمز متخابثا بعينيه التى يمتزج فيهما اللون البنى بالاخضرار ثم ضحك ، وكان فى ضحكه ، رغم حديثه عن زوجته ، شىء مبتذل ، شىء ظل ينهش فى كيانه كالصدأ طيلة سنوات .

ونادى ليفنسون صائحا « تيموشا » ، وهو جندى كان قد أغفى فى الدهليز ، وبدأ بريق اليقظة يطرد النعاس من عينيه :

ــ ابدأ فى رعاية الشوفان ... فموروزكا راحل .

وعلى مقربة من الاصطبلات ، جلس جونشارنكو وهو جندى المفرقعات ، فوق أحد الأحواض منفرج الساقين يرتق بعض اللفائف الجلدية . وكان عارى الرأس ، قد لوحت وجهه الشمس ، وله لحية كثة الشعر قاتمة الاحمرار ، وانحنى على اللفائف دافعا الإبرة بقوه كبيرة كما لو كان ممسكا مذراة ، واستدار كتفاه الكبيران تحت قميصه ذى النسيج الغليظ كما لو كانا حجرين من أحجار الرحى .

وتساءل جونشارنكو

ــ ماذا .. هل سترحل مرة ثانية ؟

فأخذ موروزكا وضع الانتباه ، وأدى التحية واضعا يده على مكان يُستحى من تسميته !!

ـــ نعم ياسيدى صاحب الفخامة الديناميتية !

وتعثرت الكلمات على لسان جونشارنكو وهو يقول فى لطف :

ـــ خذ راحتك .. لقد كنت أنا نفسى غبياً ذات مرة .. ولكن فى أية مهمة أرسلوك ؟

ـــ لاشيء .. إن القائد يرغب فى أن أقوم ببعض التمرينات الرياضية ، فهو يخشى أن أملأ هذا المكان بالأبناء غير الشرعيين إذا لم أقم بقسط وافر من الرياضة !

وغمغم جونشارنكو :

ـــ أنت غبى ... أيها الجحش الثرثار القادم من سوشان .

وقاد موروزكا حصانه ذا المعرفة المرسلة خارج الاصطبل ، فاختلجت أذناه فى توتر ، وهو جواد قوى كثيف الشعر يشبه فارسه ، فلكليهما العينان الصافيتان ، البنيتان فى اخضرار ، وكلاهما ممتلىء الجسم مقوس السيقان ولكليهما مظهر الجموح ، وتوهج الشهوة .

وصاح موروزكا فى إعزاز بعد أن أحكم الحزام حول بطن الحصان

ـــ ميشكا ! أيها الشيطان .. ميشكا يا ابن العاهرة البكر ، يامن لعنه الله .

وأنعم جونشارنكو الملاحظة فى رزانة ثم قال :

ـــ إذا كان العقل ضروريا للركوب ، فيجب أن يركب ميشكا فوقك بدلا من أن تركبه أنت .

وركض الحصان بموروزكا خارج الردهة .

وامتد الطريق الريفى المكسو بالشعب فى تعثر ، محاذيا ضفة النهر ، وترامت وراء النهر حقول قمح ارتوت من الشمس ، وبدت القمم من

سلسلة سيخوتى — الين الجبلية متراقصة فيما يلفها من ضباب لا يكف عن التصاعد .

وموروزكا هو ابن رجل من رجال المناجم ، وقد كان هو نفسه واحدا من هؤلاء الرجال ، أما جده الذى نبذه الله والناس فقد كان فلاحا ، ولكن والده استبدل بسواد الأرض ، سواد الفحم .

وفى الشكنات القائمة المجاورة المنجم رقم ٢ ، وفى لحظة انطلاق الصفارة مدوية ، مستدعية نوبة الصباح إلى العمل ، ولد موروزكا .

وقد تساءل والده حينما خرج طبيب المنجم من الحجرة الضيقة مفضيا بالنبأ .

— أهو غلام ؟ .. إنه الرابع !!

ثم ختم أباه تعليقه قائلا فى إذعان :

— يا لها من حياة مرحة !!

ثم دخل فى « جاكتته » الخشنة ، وقد صبغها غبار الفحم بالسواد ومضى يجرجر ساقه العرجاء إلى العمل .

ومنذ سن الثانية عشرة تعلم موروزكا أن يصحو مع صوت الصفارة ليدفع عربات اليد ، وأن يبصق الشتائم المبتذلة دون انقطاع وأن يعب الفودكا أيضا . وكان ثمة من الحانات عند مناجم سوشان بمقدار ما كان فيها من صناديق الفضلات .

وعلى مبعدة مائتى ياردة من المناجم ينتهى الوادى وتبدأ التلال البزكانية ، وترنو من منحدر هذه التلال أشجار صنوبرية سامقة تتسلقها الطحالب ، إلى المساكن فى أسى . وأثناء الصباح الذى ينشر عليه الضباب المشيب ، تصيح غزلان السهول محاولة إغراق صوت الصفارة ، ويوما بعد يوم ، إلى محطة كانجوز ، تزحف عربات اليد عبر الشقوق الضاربة إلى الزرقة فى التلال وفوق الممرات المنحدرة . وبحذاء الطرق التى لا نهاية لها .

وعلى الروابى تلف الروافع ، وقد غطاها الزيت الأسود ، أسلاكا منزلقة فتهتز فى توتر دائم . وعند أقدام الممرات الصاعدة حيث تتعرج سطوح المبانى الحجرية وسط الأشجار الصنوبرية ، يكدح الرجال دون أن يعرفوا من أجل من يكدحون ، ويزأر صوت القاطرات وتئز المصاعد الكهربية و « كانت » هذه هى الحياة المرحة !!

فهى لم ترغم موروزكا على البحث عن مسار جديد بل تبع المسار القديم المألوف ، وجاء الوقت الذى اشترى فيه قميصا أنيقا وحذاءاً لامعاً ، يرتديهما أيام العطلة حينما يهبط القرية المجاورة ، وهناك يعزف على الأكورديون ويغنى الأغنيات الحلوة و « يغوى » فتيات القرية ، وفى رفقته شبان آخرون .

وفى طريق عودتهم ، كان « رجال المناجم » يسرقون البطيخ ، حيث يتطاير عليهم رشاش الجدول الجبلى المندفع فى سرعة . وكانت أصواتهم الشهوانية الصائحة توقظ الوادى كله ، وكان القمر ، وقد تضاءل حتى أوشك على المحاق ، يرمقهم وراء صخرة عالية ، وفوق النهر يطفو ضباب دافىء كثيف .

وجاء الوقت ليجد موروزكا نفسه حبيسا داخل نقطة بوليس قذرة ، عفنة برائحة البق ، وعرق الجوارب . وقد حدث ذلك فى فورة إضراب أبريل ، حينما بدأت مياه الأعماق — وهى عكرة كالدموع الهاطلة من عين الخيل العمياء فى قاع المنجم — تتسرب إلى القاع دون أن تجد من يزيلها .

وقد زج به فى السجن ، لا لأنه قام بمآثر من الجسارة بل بكل بساطة لأنه ثرثار ، من الممكن أن ينزل بقلبه الرعب فيرشد عن مثيرى الاضراب . وقد أقام موروزكا فى الزنزانه العفنة مع مهربى الخمر ، وقص عليهم مئات القصص البذيئة ، ولكنه لم يفض بأسماء قادة الاضراب . وأخيرا جاء الوقت الذى رحل فيه إلى الجبهة حيث انخرط فى سلاح

الفرسان. وهناك تعلم، كسائر جنود الفرسان، كيف يزدرى «الخائضون فى الوحل على أقدامهم» وجرح ستة مرات، وأصيب مرتين من صدمات القذائف وسرح للمرة الأخيرة عشية الثورة.

وحينما عاد إلى موطنه؛ غرق فى السكر طيلة أسبوعين، ثم تزوج فتاة ناعمة لعوباً كانت تدفع العربات فى المنجم رقم (١).

واستمر فى مواصلة حياته دون تفكير، فالحياة كانت تبدو له واضحة بسيطة كبطيخة مستديرة فى حقول سوشان.

وقد تكون نزوة عابرة تلك التى دفعته إلى الرحيل مع زوجته ليذود عن السوفيتات عام ١٩١٨. وعلى أية حال، فلم يعد من الممكن رجوعه إلى المنجم. فقد انهزمت فى سوشان السوفيتات. وكانت السلطات الجديدة تنظر شذراً إلى أمثال موروزكا.

* * *

وواصل ميشكا ركضه والحديد فى حافره يصدر وقعاً غضوبا، وكان طنين البعوض يدوى فى أذنيه فيستثير حنقه. وكان البعوض يقع فى شراك شعره الكثيف ويلدغه حتى ينزف منه الدم.

وانطلق موروزكا فى ركوبه إلى القطاع العسكرى فى سفيا جينو وقد استترت قرية كريلوفكا حيث عسكرت فصيلة شالديبا خلف تل تغطيه أشجار البندق ذات الخضرة المتألقة. واستمرت أغنية البعوض الملتهبة التى لا ترحم.

وانفجر صوت مرعد خلف التل. وتكرر مثنى وثلاث وكأن وحشاً كاسراً قد حطم قيوده. واندفع مزمجراً خلال الشجيرات الشائكة.

وهتف موروزكا بحصانه فى صوت لاهث: «قف».

وأذعن ميشكا ووقف دون حراك. وجسمه ذو العضلات البارزة متأهب للانطلاق.

وغمغم جندى المراسلة وهو ينتصب فوق السرج

ــ أتسمع ذلك ؟ . . إنها نيران المدافع . . . نيران المدافع . . . أليس كذلك ؟

وتصاعد عواء المدافع الآلية خلف التل . وقد ربطت خيوطها النارية ما بين دوى البنادق البطيئة الذى يصم الآذان . وصفير الغدارات اليابانية الحاد .

وهتف موروزكا بصوت غليظ : اقفز إلى الأمام .

والتصقت إبهاما قدمه بالركاب ، وانتزع مسدسه من غمده بأنامل مرتجفة بينما اخترق ميشكا الشجيرات الهامسة فى حفيف ، إلى أعلى التل .

وقبيل وصوله إلى القمه جذب عنان جواده قائلا : « انتظر هنا » . ثم قفز إلى الأرض ملقيا اللجام فوق السرج . ولم يكن ميشكا وهو العبد المخلص لصاحبه ، فى حاجة إلى وثاق .

وزحف موروزكا على أربع حتى القمة ، وإلى اليمين عند قرية كريلوفكا ، كانت موجات من الأشباح المتماثلة الضئيلة تتقدم فى خطوط مستقيمة كما لو كانت فى استعراض . وإلى اليسار كانت مجموعات من الرجال تفر فى اضطراب وحشى داخل حقول الشعير ذات السنابل الذهبية ، وهم يطلقون النار أثناء فرارهم . وكان شالديبا غضوبا (وقد عرفه موروزكا عن طريق حصانه الأسود . والتاج المدبب فوق قبعة الفراء) يضرب بسوطه ذات اليمين وذات الشمال ولكنه لم يستطع استبقاء رجاله . وقد رأى موروزكا بعضهم ينزعون عنهم أشرطتهم الحمراء وهم يخشون أن يراها أحد .

وغمغم موروزكا وإطلاق النيران يزيد من اضطرابه .

ــ الخنازير ... ماذا يظنون أنفسهم فاعلين .. ماذا يفعلون ؟

وبين المجموعة الأخيرة من الرجال الذين أطار الرعب صوابهم كان

ثمة شاب قد ضمدت رأسه بمنديل أبيض يلبس « جاكتة » قصيرة يتعثر في ركضه . ويجرجر بندقيته في وهن . وكان يبدو أن بقية المجموعة تتباطأ في سيرها حتى لا تتركه خلفها . ولكن هذه المجموعة كانت تتقلص سراعا . ثم سقط الشاب المضمد بالمنديل . ولكنه لم يمت . فقد حاول النهوض والزحف . ومد ذراعيه إلى الأمام وصاح ببعض الكلمات .

وأسرع الرجال في فرارهم تاركينه خلفهم .

وصاح موروزكا . وأصابعه التي بللها العرق تقبض في تشنج على البندقية :

ـ أولاد الحرام . . . ماذا يفعلون ؟

وهتف مناديا حصانه ، بصوت ليس صوته :

وعدا الحصان إلى قمة التل ،رغم ما به من جروح وما نزف من دم ، وهو يصهل صهيلا خافتا ، وقد اتسعت فتحتا أنفه

وبعد ثوان معدودة كان موروزكا كالطائر محلقا فوق حقل الشعير ، وكان البعوض ذو اللدغة النارية يصطدم برأسه ، وبدا ظهر الحصان وقد شقه جرح غائر ، وتقصفت أعواد الشعير تحت أقدامه .

وصاح موروزكا ملقيا بالأعنة إلى جانب ، ضاربا بمهمازه بطن ميشكا بوحشية قائلا : « نم على الأرض » .

ولم يكن ميشكا راغبا في النوم تحت الرصاص وظل يقفز على قوائمه الأربعة حول الشاب الذى يحاول الزحف وهو يئن ، وقد التف منديل ملطخ بالدم حول رأسه .

وأهاب موروزكا بحصانه أن يتمدد على الأرض « إلى أسفل » جاذباً حديدة اللجام حتى كاد يمزق شفتيه .

وثنى ميشكا أرجله وغاص في الأرض ...

وانبعث أنين الصبي الجريح ، حينما طوح به جندى المراسلة فوق السرج .

ـــ إنه يؤلمنى . . إنه يؤلمنى . .

وكان وجه الصبي أبيض حليقاً نظيفاً رغم أنه ملطخ بالدم فهمس موروزكا :

ـــ صمتا .. أيها الطفل ذو اللعاب السائل !!

وبعد دقائق . . أرخى العنان ووسد حمله ذراعيه ، ثم ركض حول التل فى طريقه إلى القرية ، حيث فرقة ليفنسون .

الفصل الثانى

ميتشيك

لم يسترح موروزكا إلى نظرات الغلام الذى أنقذ حياته ... هذه هى الحقيقة !!

فهو ليس مغرما بالناس المهذبين الذين يهتمون بالنظافة . وهو يعلم أنهم مخلوقات خائرة لا تصلح لشىء ولا يوثق بها . وفوق ذلك فالصبي الجريح لم تلح عليه منذ البداية معالم الصلابة .

وتمتم جندى المراسلة بين أسنانه ، حينما أرقد الصبى ، فاقد الوعى على سرير فى كوخ « ريابتس » :

ـــ أنه مخنث . . يذهب به خدش بسيط .

وود موروزكا أن ينطق بسخرية لاذعة ولكن الكلمات المناسبة لم تواته .

وواصل تمتمته فى غضب :

ـــ إنه أنف يسيل مخاطه . . مثلهم جميعا .

ولكن ليفنسون قاطعه بصرامة :

ـــ كف عن ثرثرتك . . يا كلانوف!. خذ هذا الغلام إلى المستشفى حالما يهبط الظلام .

وضمدت جراح الغلام ، ووجدوا فى جيبه قليلا من النقود وبعض الأوراق (الاسم بافل ميتشيك) وحزمة من الخطابات ، وصورة فتاة.

وبدأ أربعة وعشرون رجلا ، كلهم عابسون قد طالت لحاهم وصبغتهم الشمس بالسواد يتأملون وجه الفتاة الرقيق وجدائل شعرها الجميلة ، كل بدوره ، ثم أعيدت الصورة، وسط صمت كثيف إلى مكانها . وتمدد الغلام الجريح ، فاقد الوعى وقد جمدت شفتاه وشحب لونهما وارتخى ذراعاه على الغطاء .

ولم يشعر بهم وهم يحملونه داخل عربة متأرجحة خارج القرية ، فى هذا المساء المربد القائظ . ولم يستفق إلا حينما وضع على نقالة .

وبدأت استفاقته بأن أحس باهتزازات رقيقة ، ثم كاد يبصر سماء ونجوما ... وزحف ظلام مطبق ضرير من كل الأرجاء ، ووصلت إلى أنفه رائحة الصنوبر النفاذة تخالطها رائحة أوراق عفنة . وكلها كأنها غارقة فى الكحول .

ونما لديه شعور عذب بعرفان الجميل للرجال الذين حملوه بكل هذه الرعاية والرقة ، وتمنى لو تحدث إليهم . وحرك شفتيه ، ولكن الغشية أخذته قبل أن يستطيع الكلام .

وكان النهار قد أشرق بعد أن ارتدت إليه نفسه . وثمة شمس كسول تذوب فوق أغصان شجرة من أشجار التفاح . وميتشيك مضطجع فى الظل . وقد وقف على يمينه رجـــل طويل صلب البنيان فى ثياب المستشفيات الرمادية وعلى يساره إمرأة حازمة رقيقة منحنية على السرير وضفائرها الذهبية تتدلى على كتفيها .

وكان أول ما استرعى إنتباه ميتشيك ، وأول انطباع استقر لديه عنها ، هو ماتشعه عيناها الواسعتان الحالمتان ، وشعرها الغزير ، ويداها الداكنتان الدافئتان ، من إحساس بالحنان والرقة . حنان لاحدود له ، ودون مقابل يغدق على الجميع ، ويحتضن الجميع .

وسأل ميتشكا متلطفا : أين أنا ؟

ومد الرجل الطويل ذو البنيان الصلب يداً جافة . بارزة العظام وجس نبضه .

وقال بهدوء : « هذا يكفى . . أعـدى كافة الأشياء للتضميد يافاريا واستدعى خارشنكو كذلك . »

وصمت بعض الوقت ثم أضاف دون اهتمام :

ــ التضميد ... وخارشنكو ... معا .

وفتح ميتشيك رغم الألم أجفانه وحملق فى المتكلم ، فللرجل وجه مستطيل شاحب ، ذو عينين غائرتين لامعتين ، تنظران إليه دون اكتراث ولـكن عيناً منهما تطرف دائماً . ولم يصرخ ميتشيك ، حينما أُدْخل الشاش الخشن إلى الجرح الذى بدأ فى الالتئام ، رغم الألم الممض ، فقد خففت آلامه لمسة رفيقة حانية من يد المرأة .

وبعد أن أكمل الرجل التضميد قال :

ــ ثلاثة ثقوب حقيقية .. ولـكن مجرد خدش فى الرأس ، وكلها ستلتئم بعد شهر .. هذا مؤكد .

ودب فيه مزيد من الحيويه ، وأسرعت أنامله فى الحركة ، ولـكن عينيه ظل فيهما هـــذا الوميض الحزين ، وغمزت عينه اليمنى خالية من التعبير .

ثم غسلا وجه ميتشيك ويديه ، وبعد أن فرغا من ذلك ، تحامل على مرفقيه ونظر فيما حوله .

كان بعض الناس يحثون السير إلى جوار الشكنات الخشبية ؛ ويتلوى دخان أزرق نفثته المدخنة ، ويستلقى خشب «الراتينج» فوق السطح متعرضا للشمس ، وعند حافة الغابة انهمك طائر فى نقر الخشب ، واستند رجل عجوز وديع ذو لحية شقراء على عكاز ، وقد ارتدى ثياب المستشفيات وعيناه اللتان يشيع فيهما الحنان تتأملان مايحيط به .

وخيم على الرجل العجوز ، وعلى الشكنات ، وعلى ميتشيك ، صمت سابغ وقد تأرج الجو برائحة خشب الراتنج .

ومنذ ثلاثة أسابيع ، حينما غادر ميتشيك المدينة وهو يحمل داخل حذائه أمراً رسمياً . ويحمل فى جيبه مسدساً ، لم تكن لديه سوى فكرة غامضة عما ينتظره

كان يصفر لحناً مرحاً من الألحان الذائعة فى المدينة ، ودمه يتوثب وينبض فى عروقه كلها ، فقد كان متحرقاً إلى المعركة والنضال !!

وتجسم أمام عينيه الرجال المقاتلون فوق التلال البركانية وقد دبت فيهم الحياة . وتسربلوا بدخان البارود وأعمال البطولة بعد أن كانوا لديه مجرد أخبار فى الجرائد .

وكان يستحوذ عليه التطلع ، وأخيله الإقدام ؛ وذكريات حلوة عن الفتاة ذات الخصلات الشقراء التى تتناول القهوة والبسكويت فى الإفطار ثم تضع كتبها ذات الأغلفة الزرقاء فى الحقيبة وتهرول إلى المدرسة .

وحينما اقترب من كريلوفكا قفز عدة رجال من وسط الشجيرات وقد أمالوا بنادقهم فى أيديهم .

وسأله واحد منهم ذو وجه هزيل فى استطالة وعلى رأسه قلنسوة بحار :

ــ من أنت ؟

ــ لقد أرسلونى من المدينة .

ــ أتحمل أوراقاً ؟

واضطر إلى انتزاع حذائه لكى يخرج الأمر الرسمى .

وعلا صوت البحار قارئاً فى بطء مقطعاً مقطعاً وهو يرمق ميتشيك بين اللحظة واللحظة بعينين حادتين كالشوك :

ــ لجنة المن . طقة . البحرية . . الاشترا . . كيون . . الثو . . ر . . . يون

ثم واصل دون أن يتم صوته على أنه فهم شيئاً .

ـ سو ... و

وفجأة قفز الدم إلى وجهه وأمسك بميتشيك من طيات ثوبه وصاح بصوت صائح غاضب :

ـ ماذا يا ابن العاهرة !

وغمغم ميتشيك فى اضطراب :

ـ ماذا .. ولكن ذلك من الحزب الثورى .. اقرأه أيها الرفيق

ـ فتشوه

وبعد دقائق أدخل ميتشيك داميا منزوع السلاح إلى رجل يرتدى قبعة مدببة من الفراء ، واخترقت عيناه السوداوتان ميتشيك حتى باطن قدمه .

وشهق ميتشيك قائلا فى عصبية وهو يتلعثم :

ـ إنهم لم يفهموا . . مكتوب هنا أن ذلك من الثوريين .

ـ أعطونى أوراقه .

وثبت الرجل ذو القبعة المدببة عينيه على الورقة .

وكادت الورقة المهشمة تحترق من لهيب نظرته ، ثم التفت إلى البحار قائلا فى عبوس

ـ أيها الأبله ... ألم تستطع أن ترى أنها من الثوريين .

وتنهد ميتشيك مسروراً ثم قال :

ـ إن ذلك يجعل الأمر مختلفا ... أليس كذلك . ؟

فقال البحار فى خيبة :

ـ إذن لقد عذبناه دون جدوى .. إن هذا مضحك .

ومنذ ذلك اليوم تمتع ميتشيك بحقوق كاملة لعضو فى الفصيلة ولم يكن ثمة تماثل بين هؤلاء الذين حوله، وبين الذين خلقهم خياله المشتعل حماسا ، فقد كانوا أشد قذارة وغلظة وبساطة ؛ فقد كان بعضهم يستولى

على ذخيرة زملائه ، وهم يتبادلون أقذع الشتائم لأهون الأسباب وتدور بينهم المعارك الضارية من أجل قطعة لحم . وما أكثر ما وجهوا الإهانات إلى ميتشيك متذرعين بأى شيء .. بحاكيته الأنيقة ، بفصاحة كلامه ، بعدم خبرته فى تنظيف البندقية أو حتى بعدم مقدرته على أن يأكل أكثر من رطل من الخبز عند الغداء !!

ورغم كل ذلك ، فلم يكونوا رجالا انتُزعوا من كتاب، بل رجالا أحياء على أرض الواقع .

والآن وميتشيك مضطجع على أرض أحد الممرات ، عاش هذه التجارب ثانية، وأسف على الشعور الساذج — ولكن المتدفق إخلاصاً — الذى أتى به ، وغمره شعور حاد من الاستجابة لرعاية الذين حوله .

وانتصبت المستشفى فى ملتقى جدولين عند حافة الغابة ، حيث تنقر الطيور الخشب دون انقطاع، وحيث تتهامس أشجار الاسفندان المنشورية وقد اصطبغت بلون الأرجوان . . وأسفل ذلك عند أقدام المنحدر ، تصدح الجداول بأغانيها المتدفقة وقد وشت الأعشاب الأرض حولها . وكان ثمة عدد ضئيل من المرضى والجرحى ، وإثنان فقط ذوا إصابة بالغة .. محارب من الأنصار فى سوشان إسمه فرولوف استقرت رصاصة فى بطنه وميتشيك .

وكل صباح ، حينما يحملون المرضى من الكوخ، كان « بيكا » العجوز ذو اللحية الشقراء يأتى إلى ميتشيك . وقد أطلع ميتشيك على صورة قديمة طواها النسيان : رجل تقدمت به السن ، وديع ، رقيق الحاجبين جالس يصطاد السمك على ضفة بحيرة فى خضرة الزبرجد ، وتُظل رأس الرجل سماء صافية، وثمة أشجار صنوبرية آمنة ولكنها واهنة تحيط بالمكان والبحيرة الساكنة تغطيها النباتات .. سلام وأحلام وصمت . كل

ذلك بجوار معبد صغير قديم تكلله الخضرة .

أكانت نفس ميتشيك مشوقة إلى هذا الحلم ؟

وبصوت كأنه غناء ، يشبه صوت شماس القرية ، قص بيكا على ميتشيك قصة إبنه .. وهو جندى سابق فى الحرس الأحمر .

« حسنا ، لقد أتى إلى .. وأنا جالس فى حديقة النحل التى أملكها وأين كان يا بنى إذن ؟ ولم نكن قد تقابلنا منذ أجيال . . وقد تبادلنا القبلات ، بطبيعة الحال . ولكنى أحسست بأن فى ذهنه شيئاً ، فقد قال لى : « يا بابا أنا ذاهب إلى المدينة ، إلى تشتيا » فسألته عن السبب فقال « إن بعض التشيكوسلوفاكيين الملاعين حلوا هناك » ولكن مالك أنت والتشيكوسلوفاكيين ؟ وقلت له « أمكث هنا وانظر ما أجمل الحياة التى تنتظرك » وكان هذا صحيحا ، فحديقتى كانت جنة على الأرض .. أشجار الباتول ، والليمون المزدهرة ، والنحل يئز » وكان بيكا ينتزع قلنسوته ويلوح بها فوق رأسه فى مرح :

« وماذا تعتقد ؟ . . إنه لم يبق .. ليس من هذا النوع . لقد رحل والآن لقد خرب رجال كولتشاك حديقتى ، ولم يعد لى ابن . . يالها من حياة . . »

وكان ميتشيك يحب الإصغاء إليه ، ويحب صوته الرقيق وما فيه من إيقاع غنائى ، ويحب إشاراته البطيئة التى تبدو صادرة مباشرة عن روحه .

ولكنه كان يحب أن تعنى به الممرضة أكثر من حبه لهذا الإصغاء . وكانت تقوم بالغسيل والحياكة لكل من فى المستشفى ، ويحس المرء بما عندها من حب رحب لكل الناس . وكانت تبدى لميتشيك رعاية وإعزازا خاصا . وحينما بدأ يسير فى طريقه إلى العافية يوماً بعد يوم بدأ يراها بعينين أرضيتين ، فى قامتها إنحناء طفيف ووجهها شاحب ، ويداها كبيرتان

بالنسبة إلى امرأة ، ولكن شفتيها تنم عن حيوية وقوة ، ويبدو أن صوتها يعبر دائماً عن وعد بإعطاء شيء .

وحينما جلست بجواره على السرير ، وجد ميتشيك أن من الصعب عليه مواصلة الرقاد ، فهو لا يستطيع أن يعترف بشيء كهذا لفتاته ذات الخصلات الشقراء .

وقال له بيكا ذات مرة :

ـــ فاريا لعوب . إنها كذلك .. فزوجها موروزكا فى الفرقة .. وهى تعبث هنا .. الوقحة .

ونظر ميتشيك إلى الاتجاه الذى تحدده غمزة العجوز ، فقد كانت الممرضة تغسل فى الطريق ، وكان خارشنكو مساعد الطبيب يحوم حولها وينحنى نحوها بين لحظة وأخرى ، مبديا ملاحظاته ، وكانت هى تنسى ما تقوم به . وتنظر إليه بعينين غائمتين . وأثارت كلمة « لعوب » فى ميتشيك تطلعا حادا .

فسأل بيكا محاولا إخفاء إضطرابه .

ـــ ولماذا هى .. كذلك ؟

ـــ الله يعلم لماذا وضع كل هذا الحب فيها .. إنها لا تستطيع أن تقول لا .. هذا كل ما فى الأمر .

واسترجع ميتشيك انطباعه الأول عن الممرضة . فأثار فيه امتعاضا غير مألوف .

ومنذ تلك اللحظة بدأ يشدد مراقبته لها . فأدرك أنها تعبث كثيراً مع الرجال . وفى الحقيقة مع كل الأصحاء ولكن رغم كل شيء . فهى المرأة الوحيدة فى المستشفى .

وذات صباح بعد أن ضمدت جراح ميتشيك بدأت فى تنظيم فراشه فقال لها ووجهه يتورد خجلا :

— أجلسى معى قليلا ..

فشملته بنظرة طويله فاحصة . هى النظرة نفسها التى كانت فى عينها نحو خارشنكو أثناء الغسيل .

وصاحت على غير إرادتها مندهشة :

— وأنت أيضاً ؟

ومهما يكن من شيء ، فقد جلست بجانبه بعد أن أكملت تنظيم السرير وسألها ميتشيك .

— هل تحبين خارشنكو ؟

وبدا أنها لم تسمع السؤال بل أجابت على أفكارها هى ، وقد فتنت ميتشيك بعينها الواسعتين الحالمتين .

— أنت صغير جدا .. ثم تذكرت السؤال وأضافت .

— خارشنكو ... لابأس به ... أنتم أيها الرجال كلكم سواء

وحينما أخرج ميتشيك من تحت الوسادةحزمة صغيرة ملفوفة فى أوراق الجرائد ، وتطلع إليه وجه فتاته من الصورة الشاحبة لم يعد فتانا كما كان من قبل ، وبدا التعبير الذى على وجهها غريبا ومرحها مفتعلا . وعلى الرغم من أن ميتشيك كان يخشى أن يعترف لنفسه بذلك ، إلا إنه لم يفهم لماذا شغلت هذه الفتاة ذهنه مدة طويلة . وقدم صورة فتاته ذات الخصلات الشقراء إلى الممرضة دون أن يعلم لماذا فعل ذلك أو إذا كان على صواب فيما فعله . وأمعنت الممرضة النظر فىالصورة وهى قريبة من عينها أول الأمر ، ثم على مبعدة ذراع منها .

وفجأة ، اسقطت الصورة من يدها صائحة ، وقفزت من على السرير ، ونظرت خلفها مذعورة .

وسمعا صوتا خشنا ساخرا من خلف شجرة الاسفندان يقول

— هذه عاهرة جميلة .

واختلس ميتشيك النظر فى هذا الاتجاه ، ورأى وجها يألفه إلى درجة غريبة ، ذا خصلة ثائرة صدئة من الشعر تتدلى من القلنسوة ، وعينين هازئتين . بنيتين فى اخضرار ، تذكر أنه رأى فيهما تعبيرا مغايرا ذات مرة .

وواصل الصوت الخشن حديثه قائلا بهدوء :

— ماذا أرعبك ؟.. لم أكن أقصدك .. بل قصدت الصورة التى فى يدك .. لقد ضاجعت نساء كثيرات ولكن واحدة منهن لم تهدنى صورتها .. قد تعطينى أنت صورة ذات يوم »

وهدأت فاريا ثم انفجرت ضاحكة ، قائلة بصوت لا يمت إلى صوتها بصلة ، صوت تشيع فيه موسيقى الإعزاز الزوجى ..

— لقد أفزعتنى .. من أين قدمت أيها القرد الأشعر ؟

ثم استدارت إلى ميتشيك وأضافت ..

— هذا موروزكا .. زوجى . إنه يحب المزاح .. إنه . . .

فقال جندى المراسلة :

— لقد تعارفنا .. قليلا .

وشدد الضغط ساخرا على كلمة قليلا

وتمدد ميتشيك كما لو كان قد صعق ، عاجزا عن الكلام ، جريح الكرامة ، غارقا فى الخجل . وكانت فاريا قد نسيت الصورة ، فداستها بقدمها أثناء حديثها مع زوجها ، وخجل ميتشيك أن يسألها التقاطها .

وحينما خرج الاثنان ، تحامل على نفسه ، ليسترجع الصورة التى داستها الأقدام ، مصرا على أسنانه من ألم رجليه ، ثم مزقها إربا .

الفصل الثالث

الحاسة السادسة

عاد موروزكا وفاريا واهنين، قد أضناهما التعب، بعد أن مر وقت طويل على منتصف النهار، وكل منهما ينأى بعينيه عن الآخر

وخرج موروزكا إلى الطريق وعليه سيماء قاطع الطريق، ثم دس إصبعين فى فمه فانطلق منه صفير حاد ثلاث مرات، وكما يحدث فى القصص الأسطورية، اندفع جواد غزير الشعر من الغابة راكضا نحوه، تنبعث دقات عالية من وقع حوافره. وسرعان ما استرجعت ذاكرة ميتشيك أين رأى الرجل والحصان.

وصاح جندى المراسلة فى لهجة حنون :ـ

ـ ميشكا أيها الطيب العجوز . يا ابن العاهرة، لقد انتظرت طويلا.. أليس كذلك ؟

وحينما مر بميتشيك شاع فى وجه موروزكا عبوس ماكر. وبعد ذلك وهو يقفز إلى المنحدرات المجاورة للضفاف الخضراء الطايلة، أو يهبط منها، عادت أفكاره مرارا إلى ميتشيك :

ـ لماذا بحق جهنم ينضم إلينا أمثاله من الناس ؟

وملكه الغضب والحيرة ثم واصل أفكاره :

ـ حينما بدأنا، لم يكن معنا أحد، وبعد أن نجحنا فى الاستمرار، يريدون جميعا أن ينضموا إلينا .

وخيل إليه أن ميتشيك قد انتظرهم فعلا حتى «ينجحوا فى الاستمرار» رغم أن طريقا طويلا شاقا مازال أمامهم .

— ينضم مخنث كهذا إلينا ثم ما يلبث أن ينهار ، وعلينا نحن أن ندفع الثمن ... وماذا فيه يثير إعجاب امرأتى الحمقاء ؟

وبدأ يفكر فى ان الحياة تصبح أكثر تعقيداً ، فحياته قديما فى سوشان لم تعد ممكنة ، وعليه أن يشق لنفسه طريقا آخر .

وقد استغرقه التفكير حتى أنه لم يلحظ وصوله إلى السهل . وكان أهل القرية فى منتصف يوم شاق من أيام العمل . يتعالى صوت مناجلهم فى الحشائش العطرة ، وفى البرسيم البرى المضفور ، فالرجال ذوو اللحى الكثة كالبرسيم ، وقد ارتدوا قمصانا طويلة يبللها العرق ، يسيرون فى خطوات منتظمة ثم تنحنى سيقانهم وتتساقط الحشائش ذات الأريج فى إعياء وحفيف تحت أقدامهم .

وحينما وقعت أبصارهم على الجندى الراكب كفوا عن العمل فى غير عجلة ، وظلوا يتبعونه بعيونهم مدة طويلة ، وقد حجبوا وهج الشمس بأيديهم الخشنة .

ثم أبدو إعجابهم بمهارته ، قائلين : مثل لهب الشمعة تماما . وذلك حينما رفع نفسه على الركاب وقد مال بجسمه المنتصب تجاه السرج ، ثم ركض خافقا كلهب الشمعة .

ووقف موروزكا بحصانه خلف انحناءة فى النهر بجوار حقول البطيخ التى يمتلكها «هوماريابيتس» زعيم القرية .

وكانت مظاهر الإهمال بادية على الحقول ؛ فالفلاح حينما تشغله مشكلات الجماعة، يمتلىء حقله بالأعشاب ، ويتهدم بيت أجداده، وتنضج ثمار البطيخ متكاسلة فى المنبت العطر ، ويبدو «خيال المآته» كطائر ميت.

وقاد موروزكا حصانه نحو الكوخ المتداعى ، بعد أن ألقى حوله

نظرات آثمة ، وألقى داخل الحقل نظرة حذرة فوجده خاليا ، على أرضه بعض الأسمال ، ومنجل صدىء متآكل ، وقشور بطيخ جافة . وانتزع موروزوكا كيسا من فوق السرج ثم هبط زاحفا إلى الأحواض ، ومضى فى اقتلاع البطيخ وحشو الكيس . ولكنه التهم بعضها بعد أن شقها على ركبته .

وحملق ميشكا فى سيده بنظرات خجلة ، فبها فهم لطبيعة ما يقوم به ، وهو يهز ذيله . وفجأة انتصبت أذناه التى يغطيهما الشعر حينما سمع صوتا يدعو إلى الريبة ، وحول رأسه القلقة ناحية النهر فخرج إلى ضفته رجل ضخم البنيان ، طويل شعر اللحية ، بلغ من الكبر عتيا حتى برزت عظامه قادما من أيكة الصفصاف ، وكان ممسكا بشبكة تضطرب داخلها سمكة كبيرة ، مسطحة الخياشيم ، تصارع الموت ، وقد سال دمها الذى امتزج بالماء على سراويله الكتانية فصبغها بلون قرمزى .

وفى هيكل « هوماريابيتس » . الضخم عرف « ميشكا » صاحب الفرس الشقراء ذات الأرداف الثقال التى طالما أكل ونام على مقربة منها لا يفصلهما سوى حائط خشبى ، والتى تجذبه اليها رغبة عاتية ، فانتصبت أذناه مؤدية التحية ، وارتفعت رأسه وتعالى صهيله فى فرحة حمقاء .

وقفز موروزكا من جلسته مذعورا ، قابضا على الكيس بيديه الاثنتين .

وتساءل ريابيتس ، وقد بدت مشاعره الجريحة فى صوته المتهدج وهو يلقى نظرات لوم عابسة على موروزكا :

ـــ ماذا تفعل هنا ؟

ولم يخفف من قبضته على الشبكة المضطربة فى غضب ، والسمكة تخفق فى صوت عال كنبض قلبه ، الذى ينوء تحت ثقل كلمات الحنق

الثائرة فيه .

وألقى موروزكا بالكيس ، وقفز إلى حصانه وقد التصقت رأسه بكتفيه . وحينما أدرك أنه أخطأ بترك الكيس مع البطيخ ؛ فهو يصلح قرينة فصيحة عليه ، كان قد استقر على سرجه . وتحقق من أن الوقت قد فات لإصلاح الخطأ ، فضرب بقدميه جانب الجواد ، وركض هابطا إلى الطريق فى خبب مجنون يستثير الغبار . فصاح ريابيتس :—

— انتظر .. ستدفع الثمن غاليا .. ستدفع الثمن غاليا .

مشدداً الضغط على الكلمات الأخيرة ، وهو غير قادر على تصديق أن الرجل الذى أطعمه وسقاه طيلة شهر كامل كما لو كان ابنه قد حاول سرقة بطيخة ، ومتى ؟ فى الوقت الذى تزحف الأعشاب على حقله ، لأن صاحبها يعمل من أجل القرية كلها .!!

وفى ظلال حديقة ريابيتس الصغيرة ، بسط ليفنسون خريطة عتيقة على منضدة صغيرة مستديرة ، وجلس يستجوب جندى استكشاف عائداً لتوه . وكان جندى الاستكشاف الذى يرتدى معطفا ثقيلا من معاطف الفلاحين، وحذاء خشناً ، قد نفذ إلى قلب مواقع اليابانيين ، وكان وجهه المستدير الذى كسته الشمس حمرة ، يتوهج فى حماس مغتبط ، فقد نجا من مشقات كثيرة .

وقد دلت معلومات جندى الاستكشاف على أن قيادة قوات اليابانيين استقرت فى ياكوفليفكا ، وأن فرقتين قد تحركتا من سباسك . بريمورسك إلى سانداجو ، أما من ناحية أخرى فقد أخليت سلسلة مرتفعات سفياجينو ، وذلك جعل جندى الاستكشاف مضطراً إلى أن يركب القطار حتى غابات شاباتوفسكى فى صحبة جنديين مسلحين من الأنصار ينتميان إلى فرقة شالديبا .

— وأين استقر شالديبا بعد التراجع ؟

ــ فى المزارع الكورية .

وحاول جندى الاستكشاف أن يحدد المزارع على الخريطة ولم يكن ذلك بالعمل السهل لذلك خفى لا تظن بكفاءته الظنون ، فقد غرس إصبعاً بطريقة عشوائية فى موضع مجاور ، ومضى متخافتا فى غير اكتراث .

ــ لقد تناولوا علقة ساخنة فى كريلوفا . والآن ، لقد عاد نصفهم إلى قراهم ، وعسكر شالديبا فى مزرعة كورية آخذا كفايته من الـ «شوميزا» ويقولون إنه يشرب كثيرا ، لقد اختل توازنه تماما .

وقارن ليفينسون بين هذه المعلومات الجديدة وبين ما تلقاه البارحة من أحد مهربى الخمور ويدعى ستيركشا ، ومن القادمين من المدينة وأدرك أن ثمة ما يريب . وكان ليفينسون يتمتع بفطنة حادة تجاه تلك الأمور تقترب من أن تكون حاسة سادسة ، كأنه خفاش يدرك طريقه فى الظلام .

فثمة شيء مريب فيما يتعلق برئيس الجمعية التعاونية الذى لم يستطيع المجيء ، من سباسكوى منذ أسبوعين ، وفيما يتعلق باشتعال الحنين إلى الوطن فجأة عند بعض فلاحى ساندجو الذين فروا أول أمس ، وفيما يتعلق بالمهرب الأعرج المدعو لى ــ فو الذى اعتزم اصطحاب الفرقة حتى أوبوركا ثم نكص ، تحركه أسباب مجهولة ، ميمما شطر أعالى نهر فودزين .

وأعاد ليفينسون دراسته للموضوع مرة بعد مرة . وكان صبورا نادر الصبر ، مثابرا شديد المثابرة ، كأنه ذئب هرم من ذئاب الوادى ، قد تساقطت أسنانه ، ولكنه مازال يعرف الطريق إلى فريسته مسترشدا بحكمة لا تقهر ، توارثها عن الأجيال الماضية .

ــ حسنا ، ولكن ألا تشم شيئا خاصا فى الجو ؟

وتطلع إليه جندى الاستكشاف دون فهم .

وصاح ليفينسون ، مقربا ما بين أصابعه كأنه يمسك بقليل من

الملح ثم رافعا أصابعه إلى أنفه .

ـــ بأنفك !

فأجاب جندي الاستكشاف وفي عينيه نظرة شعور بالذنب

ـــ لا .. لا أستطيع أن أقول ذلك .. هذه حقيقة

ثم بدأ يفكر في حيرة مهتاجة :

ـــ ماذا يظنني . كلبا أو شيئا من هذا القبيل ؟

وعلت وجهه حمرة الخجل ، وبدا غبيا كبائعة سمك في سوق ساندا جو .!

وقال ليفينسون وهو يلوح بيده ، وعيناه الزرقاوتان كبحيرتين عميقتين تضيقان في ازدراء

ـــ حسنا .. انصرف .

وحينما انفرد بنفسه ، سار في الحديقة مطرقا يفكر . ثم وقف أمام شجرة تفاح ، وأمضى بعض الوقت يرقب خنفساء كبيرة الرأس في لون الرمل تنفذ إلى اللحاء . ثم وصل عن طريق عملية غامضة من عمليات تفكيره ، إلى أن الفرقة سيبيدها اليابانيون إذا لم يصنع شيئا من أجلها قبل فوات الأوان .

وعند الباب قابل ليفينسون ريابيتس ، ونائبه باكلانوف ، وهو غلام بدين في التاسعة عشرة ، يرتدي قميصا أصفر ، يتدلى من حزامه خنجر وهو لا يعرف الكسل .

وصاح باكلانوف في ليفينسون فورا وهو يقطب حاجبيه ، وعيناه تتقدان كقطعتين متوهجتين من الفحم

ـــ ماذا سنفعل بموروزكا .. لقد كان يسرق بطيخ ريابيتس ما رأيك في ذلك ؟

وحرك ذراعيه من ليفينسون إلى ريابيتس منحنيا كما لو كان يقدم كل

منهما إلى الآخر ، ولم يكن ليفينسون قد رأى نائبه مستثارا إلى هذا الحد من قبل .

فقال فى لهجة هادئة مُقْنِعة :

— لا تصح ... فلست فى حاجة إلى الصياح ... كيف حدث ذلك ؟

ومد رياببتس يدين مرتجفتين بالكيس ... البينة الواضحة ..!!

— لقد اقتلع نصف حقلى أيها الرفيق القائد .. بحق الإله .. لقد فعل ذلك .. لقد ذهبت انظر إلى شباكى لأول مرة استطيع ذلك منذ أيام .. وخرجت من أيكة الصفصاف ...

واستطرد ... وأطال الاستطراد .. شارحا موضوعه ، مؤكدا أنه اضطر إلى إهمال مزرعته لأنه يعمل من أجل الجماعة .

— إن نساء بيتى كما تعلم يقصمن ظهورهن فى المزارع المشتركة بدلا من أن يقتلعن الأعشاب من مزرعة البطيخ كما تفعل سائر النساء

وبعد أن استمع إليه ليفينسون فى انتباه صبور ، استدعى موروزكا .

وأقبل موروزكا متبخترا ، وقلنسوته قد استقرت فى خلاعة على مؤخر رأسه ، مصطنعا الكبرياء متخذا مظهر التحدى كعادته دائما حينما يعرف أنه على خطأ ، ولكنه يصر على الكذب ، وإخفاء الخطأ بالمكابرة والصياح .

وسأله القائد وعينه النفاذة تخترق كيان موروزكا جميعه :

— أهذا كيسك ؟

— هذا صحيح

— باكلانوف ... انزع مسدسه

— ماذا ؟... أكنت أنت الذى منحتنى هذا المسدس ؟

وقفز موروزكا جانبا ، وقد نزع الغمد .

فصاح به باكلانوف فى خشونة وتصميم مقطبا حاجبيه

ـ أخرجه ... حالا .

وسرعان ما اختفت مكابره موروزكا ووقاحته عندما جردوه من مسدسه .

ـ كم بطيخة أخذت ؟ وفيم كل هذه الضجة ياريابيتس ؟ أقسم بأن هذه الأشياء اللعينة لاتستحق مشقة الحمل .

وحفر ريابيتس الأرض بأصابع قدميه ، ورأسه منحنية فى صبر .

وأصدر ليفينسون أوامره بأن ينعقد مجلس القرية هذه المساء مع الفرقة للنظر فى أعمال موروزكا

ـ ليعلم الجميع كل شىء عنه .

وتضرع موروزكا فى صوت حزين أجوف ..

ـ حسنا .. لتكن الفرقة .. ولكن ما دخل الفلاحين ؟

ووجه ليفينسون خطابه إلى ريابيتس ، متجاهلا موروزكا .

ـ يجب أن أتحدث إليك حديثا خاصا .

وأمسك برئيس مجلس القرية من مرفقه ، وأنتحى به جانبا وطلب منه أن يجمع خبزا من القرية فى اليومين القادمين يكفى لصنع عشر بودات من الفطائر .

ـ ولكن تأكد من أن أحدا لايعرف ما سبب ذلك ولا من سيأخذه .

وشعر موروزكا بأن لاداعى لوجوده ، فخرج متعثرا إلى مأوى الحراس وعليه سيماء الاستكانة :

وحينما انفرد ليفينسون بباكلانوف أمره بأن يزيد نصيب الخيل من الشوفان ابتداء من الغد :

ـ قل لأمين المخزن أن يقدم جردلا كاملا لكل حصان !

الفصل الرابع

وحيداً..

ذهبت زيارة موروزكا بهدوء بال ميتشيك . هذا الهدوء الذى يدين به ميتشيك إلى حياة المستشفى الهادئة الناعمة .

وتساءل ميتشيك مندهشا حينما ارتحل جندى المراسلة :—

— لماذا نظر إلى باحتقار ؟ ... أنا أقر أنه أنقذنى من مأزق ، ولكن هل هذا يعطيه الحق فى السخرية منى ؟.. وهذه هى طريقتهم جميعا فى معاملتى !

ونظر إلى أصابعه الدقيقة النحيلة ، وإلى ساقه المقيدة فى الجبائر تحت الغطاء ، وثارت فيه المرارة ، الحزينة التى حاول جاهدا أن يكبحها من جديد . وشعر بقلبه يتصدع تحت وطأة الألم والاكتئاب .

فمنذ جذبه ذلك الرجل هزيل الوجه ، ذو العينين الحادتين الشاتكتى النظر ، من ثوبه عند العنق ، بخشونة وازدراء ، وجميع من يقتربون من ميتشيك يفعلون ذلك ساخرين ، دون أن يخطر ببالهم مد يد المساعدة إليه أو حتى معرفة أحزانه ، وحتى داخل المستشفى حيث يتنفس صمت الوادى حبا وسلاما . فانهم يظهرون له التعاطف شعورا بالواجب نحو مريض فحسب .. وما أوجع هذه العزلة وأمضها بعد أن سالت دماؤه فى حقول الشعير !

وود لو استطاع التحدث إلى بيكا ، ولكن الرجل العجوز كان غافيا

فى ظل شجرة عند حافة الوادى ، وقد فرش قميصه تحته ، وتوسدت رأسه القلنسوة اللينة ، وقد أحاطت كالهالة بصلعته اللامعة شعيرات فضية شفافة. وخرج من الوادى غلامان أحدهما تحيط بذراعه الضمادات والآخر يحجل على ساق واحدة وتوقفا على مقربة من الرجل العجوز يتبادلان غمزات عابثة ، وأمسك الغلام الأعرج بقشة ثم رفع حاجبيه. واتخذ وجهه تعبير من يتأهب للعطاس، ودس القشة فى أنف بيكا . وتململ العجوز فى رقدته ثم تجعدت أنفه ، ولوح بيديه ثم عطس عاليا ، مثيراً ضحك الجميع ! وقهقه الغلامان ثم استرقا الخطو ملتفتين وراءهما كمن ارتكب إثماً ، وجريا ناحية الكوخ أحدهما ساندا ذراعه فى اعتناء ، والآخر يحجل وعليه سيماء الذئب .

وصاح الأول حينما رأى خارشنكو جالسا بجوار فاريا على مقعد أمام الكوخ .

ــ أنت ياحفار القبور ... لماذا تغرس مخالبك فى نسائنا . . . والآن دعنا نتحسس ليونة لحمها .. ثم جلس إلى جوار الممرضة ،واحتضنها بذراعه السليم .

ــ نحن نحبك .. فأنت المرأة الوحيدة لدينا .. أبعدى عنك هذا الإبريق القذر واقذفى به إلى .. أمه .

وقال ذلك وهو يحاول بذراعه نفسها أن يدفع خارشنكو بعيدا من الناحية الأخرى ، ولكن مساعد الطبيب التصق بفاريا من هذا الجانب مكشرا عن أنيابه الصفراء من تناول طباق منشوريا .

وصاح الغلام الأعرج من أنفه :

ــ وماذا يبقى لى . . أنا الصغير المسكين . . ليس هناك عدالة أو صدق فى هذا العالم ..! من هذا الذى يبدى رعايته التى يستحقها رجل جريح مثلى ؟ . مارأيكم فى ذلك أيها الرفاق .. أيها المواطنون الأعزاء ؟

واستمر فى صياحه ، وعينه تومض تحت أهدابه المبتلة ، ويداه دائبتا الحركة .

ورفسه صديقه كى يبعده ، وضحك مساعد الطبيب ضحكة عالية ، مفتعلة العلو ، ثم انزلقت يده تحت «بلوزة» ، فاريا . وحدقت فاريا فى ثلاثتهم واهنة متعبة دون أن تحاول حتى إبعاد يد خارشنكو . ولكنها حينما أبصرت ميتشيك يتطلع إليها فى اندهاش قفزت واقفة وأعادت ترتيب ملابسها وقد تخضب وجهها احمرارا .

ثم صاحت غاضبة : أيها الجديان .. تتجمعون كالذباب على الشهد ! ودخلت الكوخ خافضة الرأس ، واشتبك طرف ثوبها بالباب فجذبته غاضبة ، وأوصدت الباب بشدة فتساقطت الطحالب من شقوقه .

وتغنى الغلام الأعرج : أقدم إليكم ممرضة !

ثم قطب وجهه كما لو كان قد تعاطى قدرا من النشوق . واغتصب ضحكة خافتة مبتذلة !

وطيلة هذا الوقت كان الجندى الجريح فرولوف ممددا على سرير ذى أربع حشايا تحت شجرة الاسفندان ، ووجهه الشاحب يتملكه الألم ، وقد رفعه إلى السماء . وكانت نظراته فارغة قاتمة كنظرات رجل ميت . لقد كان جرحه قاتلا ، وهو نفسه قد أدرك ذلك منذ اللحظة التى رأى فيها — وهو يتشنج بتأثير الألم المميت فى معدته — سماء أثيرية معكوسة الوضع . وأحس ميتشيك بنظرة فرولوف التى لاتحيد عنه ، فحول عينيه بعيداً وهو يرتجف مذعورا .

وقال فرولوف بصوت خشن ، وهو يحرك إصبعا ، كى يثبت للعالم أنه مازال حيا ..

— لقد بدأ الأولاد عبثهم مرة ثانية .

وتظاهر ميتشيك بأنه لم يسمع .

وعلى الرغم من ان فرولوف لم يعد يفكر فيه ، فقد كان خائفا من أن ينظر ناحيته ، واستمر ذلك مدة طويلة ، فقد تخيل أن الرجل الجريح ما زال محدقا فيه وقد كشر عن أنيابه .

وخرج الدكتور ستاشينسكى من الكوخ وهو ينحنى فى غلظة عند المدخل ، وقد تمثل وهنه فى تقوس ظهره كالمدية الطويلة ، وبدا غريبا أنه قادر على مجرد الانحناء !

ومشى فى خطوات واسعة نحو المرضى ثم توقف مندهشا وقد نسى ما جاء من أجله ، وعين واحدة من عينيه تطرب ، وقال « ما أشد الحر » وهو يثنى ذراعه ويمر بيده على رأسه ، ويمشط شعره فى الاتجاه الخاطىء . لقد جاء وفى نيته أن يقول لهم إن من الواجب عليهم ألا يضايقوا إنسانة لاتستطيع أن تكون زوجة وأما للجميع !

وسأل ميتشيك بعد أن اقترب منه ، ووضع يده الجافة الساخنة على جبهته :

— ألا يبعث الرقاد هنا على الملل ؟

وتأثر ميتشيك بهذه الرقة التى لم يكن يتوقعها ، وأجاب فى عجلة :

— أنا لا أهتم بذلك .. فسأرحل حالما أتماثل للشفاء .. ولكن أنت ... دائما فى الغابة .

— وماذا أفعل .. إذا لم يكن من المستطاع غير ذلك !

وتعجب .. ميتشيك :

— لماذا .. ذلك ؟

فأجاب ستاشينسكى ، مبعدا يده عن جبهة ميتشيك

— أعنى البقاء فى الغابة .

ونظر إلى ميتشيك لأول مرة فى تطلع إنسانى حقيقى ، وعيناه السوداوتان المتألقتان مثبتتان على الآخرين . وكانت العينان تحدقان فى

البعيد يترقرق فيهما الحزن وكأنهما تفيضان بالوحدة الخرساء التي تفترس روحه المنعزلة ، طيلة ليالي متباطئة بجوار النيران التي يتصاعد دخانها على سلسلة سيخوتي . آلين . الجبلية . .

وقال ميتشيك بصوت تشيع فيه السوداوية ، وعلى فمه ابتسامة ودحزينة : « ولكن ألا تستطيع البقاء في قرية ؟ ... أعني ... إنني لا أقصدك أنت شخصيا » وقاطع سؤال الدهشة قبل أن يلقى به الطبيب : « أنا أعني المستشفى . . »

— هي هنا أكثر أمنا ... من أين أقبلت ؟

— من المدينة .

— هل غادرتها منذ وقت طويل ؟

— نعم ... ما يزيد على الشهر .

— أتعرف كريسيلمان ؟

وقد وجه الطبيب هذا السؤال ووجهه يشرق .

— نعم ... ولكن ليست معرفة وثيقة .

— كيف حاله هناك ؟ ... ومن غيره تعرف ؟

وبدأت عين الطبيب تطرف في إسراع ، ثم جلس فجأة على جذع شجرة ، وكأن ركبته قد تعرضت لدفعة من الخلف

وبدأ ميتشيك :

— أنا أعرف فونسيك ديفريموف ، وجوريف ، وفرنكل وليس فرنكل الذي يضع فوق عينيه نظارة ، فأنا لا أعرفه ، ولكنني أعرف الشخص الآخر قصير القامة ... »

وقال ستاشينسكي مندهشا :

— ولكنهم جميعا اشتراكيون ثوريون .. كيف تعرفت عليهم ؟

وغمغم ميتشيك وقد بدأ يحس بالحرج

ــ لقد تعودت أن أسعى إليهم ..

وصاح ستاشنسكى متهدجا فى غير تأكد : « هكـ ... ذا » !

ثم أضاف بصوت ضاعت منه رنة الألفة :

ــ حسنا .. أتمنى لك العافية .

ثم نهض فى عجلة وخطا مسرعا نحو الكوخ كما لو كان خائفا أن يحاول ميتشيك استدعاءه ثانية .

وصاح ميتشيك فى أعقابه ، محاولا الامساك بشىء ينزلق من بين أصابعه ...

ــ أنا أعرف فاسيوتينا أيضا

فتمتم ستاشينسكى ، وقد التفت برأسه ولكن مسرعا أكثر :

« نعم .. نعم »

وتحقق ميتشيك من إخفاقه فى اكتساب ود الطبيب ، فقبع فى سريره يستحوذ عليه خجل أليم .

وعلى حين غرة ، طغت عليه تجارب الشهر الأخير كلها ، فها هو ذا يحاول مرة ثانية أن يمسك بشىء ينزلق من بين أصابعه . وتقلصت شفتاه ، وطرفت عيناه مرارا حتى لا ينسكب دمعها ، ولكن الدموع فاضت وجرت ثقيله سريعة على وجهه فاخفى رأسه تحت الغطاء ، وفقد سيطرته على نفسه ، فبكى بكاء خافتا ، وأجهد نفسه كى لا يتعالى نشيجه وتنهده خشية أن يبدو ضعفه .

وبكى طويلا دون أن يريحه البكاء ، وكانت أفكاره كدموعه مريرة لاذعة ... وبعد زمن بدأ يهدأ ، فظل دون حراك تختفى رأسه تحت الغطاء .

وجاءت اليه فاريا عدة مرات ، وقد تعرف على وقع قدميها ذلك

الوقع القوى ، فهى تمشى كما لو كانت أخذت على نفسها ميثاقا بأن تدفع أمامها عربة ثقيلة حتى يوم المات ! ، واعتراها التردد لحظة أمام سريره ثم غادرته .

وبعد ذلك تحدث إليه بيكا ، فسأل عما إذا كان نائما ، بصوته الواضح الرقيق .

وتظاهر ميتشيك بالنوم . وظل بيكا منتظرا بعض الوقت . واستطاع ميتشيك أن يستمع إلى طنين بعوض المساء على غطائه .

— حسنا ... استمر فى نومك .

وحينما أظلمت الدنيا ، جاءت فاريا ومعها آخر إلى سريره . وحملاه برفق إلى الكوخ حيث كان الجو حارا رطبا ..

وقالت فاريا

« اذهب ... عند فرولوف ... سأتبعك حالا . »

ثم رفعت الغطاء بحذر عن رأسه بعد أن وقفت أمام الفراش بعض الثوانى .

— كيف حالك يا بافل أيها العزيز ... ماذا يؤلمك ؟

وكانت هذه أول مرة تناديه باسمه الأول .

ولم يستطيع ميتشيك أن يتبين وجهها فى الظلام ،ولكنه كان يحس بوجودها ويحس بأنهما وحيدين فى الكوخ .

— نعم ... أنا أحس بالغثيان .

— أتؤلمك ساقاك

— لا ... ليس الساقين

وانحنت سريعا ، وضغطت صدرها الضخم الحنون على صدره ، وقبلته على شفتيه .!

الفصل الخامس

الفلاحون... و"آكلو الفحم"

ذهب ليفينسون إلى الاجتماع قبل وقت انعقـاده كي يتحقق من شكوكه ، ويختلط بالفلاحين ، ويستمع إلى ما يدور على ألسنتهم .

وانعقد المجلس فى بناء المدرسة ، ولم يكن هناك ناس كثيرون حينما وصل ليفينسون ، بل عدد ضئيل من الذين غادروا الحقول مبكرين .

وكانوا جلوسا على درجات السلم فى شمس الأصيل . ومن الممكن أن يُرى ريابيتس خلال الباب منهمكا فى إعداد المصبـاح وتثبيت زجاجته السوداء .

وقدم الفـلاحون تحيتهم إلى أوسيب ابراميتش (ليفينسون) ، منحنين فى احترام ، مادين إليه أصابعهم القاتمة التى تبدو عليها صلابة العمل الشـاق . وصافحهم جميعـا ثم جلس دون فضول على إحدى الدرجات .

وسُمع غناء الفلاحات وقد خلا من توافق النغم، على الضفة الأخرى للنهر ، وكان ثمة رائحة الدريس ، والغبار الذى بلله الندى ، والمشاعل . وانبعث من القارب النهرى صوت خيول مجهدة تضرب الأرض بأقدامها . وكان يوم العمل الشاق عند الفلاحين يقترب من نهايته . ذائبا فى غسق المساء الحار ، وفى حشرجة العربات المحملة ، وفى خوار البقرات الشبعى التى لم تحلب بعد .

وقال ريابيتس وهو يظهر فى الرواق :

— ليس ثمة كثيرون هنا .. ولا غرابة فى ذلك .. فمن الصعب أن يجتمع كثيرون اليوم .. فأغلبهم سيناموون فى حقول الدريس .

— لماذا يجتمع المجلس فى يوم من أيام العمل ..؟ أثمة أمر عاجل فقال الرئيس مترددا

— هناك أمر يجب أن نتدارسه .. فواحد من الفرقة — وهو الذى كان يسكن عندى — قد ارتكب جرما .. ليس بالأمر الهام ... ولكنه شىء يثير الضيق .

ثم نظر فى استخذاء إلى ليفينسون وصمت .

وتساءل الفلاحون فى صوت واحد :

— إذا لم يكن الأمر هاما ... فلماذا دعوتم المجلس؟ .. فى مثل هذا الوقت كل الدقائق ثمينة .

وأوضح ليفينسون الأمر ، ثم بدأ الفلاحون يقدمون إليه شكواهم وهم يقاطعون بعضهم بعضا ، وكانت شكاتهم تنصب على صناعة الدريس وعلى نقص السلع .

— يجب أن ترى كيف يحصد الناس هنا يا أوسيب ابراميتس فليس لدى أحد منجل بمعنى الكلمة ، فكلها تكسرت ثم أُصلحت . ليس هذا عملا . إنه عذاب !

— ما كان أجمل المنجل الذى حطمه سيمون البارحة .. كان منجلا مسعفا ... شيطان فى العمل .. يعمل فى الحقل كالآلة ... وقد ارتطم بحجر والآن لافائدة فى إصلاحه .

— نعم لقد كان منجلا رائعا .

وغمغم ريابيتس وهو غارق فى التفكير ..

— ترى ماذا سيفعل الناس هنا ، أيتمكنون من الحصاد ..

ما أكثف الحشائش هذا العام .. آه لو استطاعوا أن يفرغوا من العمل يوم الأحد فى الحقل الكبير ... هذه الحرب ستقتلع عيوننا من رءوسنا ! .

واندفعت أشباح جديدة من الظلام إلى دائرة النور المرتعشة .

وقد أقبل بعضهم من الحقول مباشرة يحملون حزما ويرتدون قمصانا طويلة تشوب بياضها القذارة . وجلبوا معهم مايميز الفلاحين من ضجيج ... ورائحة الأرض والعرق ، وشذا الحشائش الغضة .

ــ الصحة لكم جميعا .

ــ هو .. هو .. ايفان ... اقترب من النور .. دعنا نرى إبريقك انظروا ماذا فعل به النحل .. لقد رأيتك تجرى منه وأنت تتلوى .

ــ ماذا تقصد أيها الوغد بقطع الحشائش من حقلى ؟

ــ حقلك ؟ يا للكذب أنا لم اتخط الحاجز بيننا قيد أنملة ، لسنا فى حاجة إلى ما عند الغير .. فلدينا مايكفينا .

ــ نحن نعرفكم ... يقول إن لديهم الكفاية .. نحن لم نستطع طرد خنازيركم من حديقتنا .. وسترعى فى حقل بطيخى بعد ذلك .. لديهم مايكفيهم !!

وبدا رجل طويل ، مستدير الا كتاف ، بارز العظام ، له عين واحدة تلمع فى الظلام ، ضخما وسط المجتمعين .. وهو يقول :

ــ وصل اليابانيون إلى ساندوجا أول أمس هكذا يقول رجال شوجويفكا .. وحينما أقبلوا ، استولوا على مبنى المدرسة ثم بدأوا فى مطاردة النساء ... أولاد الحرام . وبصق فى كراهية ، وهو يلوح بيديه تلويحا حادا كما لو كان ينشر خشبا

ــ انهم قادمون ... بكل تأكيد .

ــ لماذا يجب أن يحدث لنا مثل ذلك ؟

ـــ لا سلام لنا ... نحن الفلاحين

ـــ يقع للفلاحين دائما أكبر الضرر . آه لو تنتهى الحرب .. بطريقة أو بأخرى !.

ـــ أهم ما فى الموضوع أنه ليس هناك مخرج ... وليس أمامنا الخيار .. فإما القبر وإما النعش .

وأنصت ليفينسون فى صمت. أما هو فقد نسوه ، فهو ضئيل لا يثير الاهتمام .. مجرد قبعة ، ولحية حمراء ، ونعل من الفرو يصل إلى ما فوق ركبتيه ، ولكنه اثناء استماعه إلى أصوات الفلاحين المتنافرة أحس فيها نذيرا لا يمكن تجاهله ، هو وحده الذى يستطيع تمييزه .

واستطرد محدثا نفسه :

ـــ تبدو الأمور بالغة السوء ... شديدة السوء .. يجب أن أكتب إلى ستاشينسكى غدا على أكثر تقدير لكى أطلب منه إخفاء الجرحى فى أى مكان يستطيع .

يجب أن نختبىء بعض الوقت ... بل أن نختفى تماما ... يجب أن نقوى فرقنا ثم نادى نائبه .

ـــ باكلانوف .. تعال .. اجلس اكثر اقترابا ... أنا أعتقد أنه ينبغى أن يكون لدينا أكثر من حارس عند حظائر ماشيتنا ... ويجب أيضاً أن نرسل فرقة من الفرسان حتى كريلوفكا وخاصة ليلا ... لقد أصبحنا شديدى التراخى .

فسأل باكلانوف فى توحش :

ـــ أثمة بادرة من بوادر الخطر .. أو ماشابه ذلك ؟

وأدار رأسه الحليق ناحية ليفينسون ، وارتسمت فى عينه الضيقتين المنحرفتين كأعين التتار ، علائم القلق والترقب .

فأجابه ليفينسون بلهجة تجمع الحنان إلى السخرية اللاذعة :

ــ هناك خطر دائما فى وقت الحرب ياعزيزى ... فالحرب أيها الصبي العزيز ليست مشابهة تماما للاضطجاع على كومة الدريس مع ماريوسا ..

وضحك على غير توقع فى مرح ، وهو يلكز باكلانوف فى ضلوعه . وواصل ليفينسون حديثه ،سكا بيد باكلانوف ، وقد أصبح على حين غرة مرحا ، طروبا ، معتدل المزاج

وصاح مداعبا وهو يلوى ذراع نائبه خلف ظهره ، ويدفعه إلى السلم .

ــ لاتتململ .. فلن تستطيع الإفلات .

ثم نطق ليفينسون بأكذوبته :

ــ اذهب .. فماريوسيا تناديك .. انطلق أيها الشيطان ، فما هكذا يجب السلوك فى الاجتماعات

ــ أشكر نجمك السعيد على أن هنا اجتماعا ... وإلا لكان لى معك شأن ..!

ــ أذهب فهناك فتاتك ماريوسا .

وسأل باكلانوف وهو ينهض :

ــ فرقة واحدة للحراسة، أليس كذلك ؟

وتبعته عينا ليفينسون الباسمتان .

وبادره أحد الحاضرين قائلا :

ــ إن نائبك قطعة من الطوب .. فهو لايشرب ولايدخن ... والشيء المهم أنه مازال شابا ... لقد جاء إلى كوخى أول أمس يطلب طوقا للحصان .. فسألته ألك فى كأس من الفودكا ممزوجة بالتوابل ؟ فأجابنى « لا .. ولكن إذا كنت، تريد إكرامى فاعطنى قليلا من اللبن .. إننى من أشد عشاق اللبن » ، ولقد ظل يحسو اللبن كما تعلم ، من الطبق

كأنه رضيع ، بعد أن ألقى فيه قطعا من الخبر .. ياله من زميل فريد !!
وتكاثر عدد الجنود وسط الزحام وأفواه بنادقهم تلتمع ، وقد جاءوا فى الوقت المناسب. ثم جاء رجال المناجم يقودهم تيموفى ديماندر وهو رجل ضخم ، من حفار الفحم فى سوشان ، وقد اصبح الآن قائد سرية . وقد اندفعوا إلى الجمع كتلة متراصة متماسكة .. وموروزكا وحده منفرد ، يستحوذ عليه الاكتئاب ، وقد جلس على مقعد بجوار الحائط.

وصاح دوبوف فى مرح هادر حينما أبصر ليفينسون :

— آه ... أأنت هنا أيضا ..؟

كأنه لم يره منذ أعوام ، وكأن هذا المكان هو آخر مكان يتوقع أن يراه فيه ..! ثم تساءل فى تلعثم بطىء خشن ، وقد مدّ إلى ليفينسون يدا هائلة قاتمة :

— ماذا فعل صديقنا عامل المنجم ؟ ثم أضاف حينما تهيأ ليفينسون للشرح

— عاقبه ، ولقنه درسا حتى لا يحذو حذوه الآخرون !

وتدخل شاب عذب الصوت ، يرتدى قلنسوة طالب ، وحذاءين لامعين يناديه أصدقاءه باسم سيسكين :

— كان يجب علينا أن نعاقب موروزكا بضربة على قدميه منذ زمن طويل .. فهو وصمة بالنسبة إلى سمعة الفرقة !

وأسكته دوبوف دون أن ينظر إليه :

— لم يسألك أحد عن رأيك

وضم الشاب شفته ، وهو يحاول أن يخفى ألمه باصطناع التصلب ، ولكنه حينما لاحظ عينى ليفينسون الساخرتين وقد استقرتا عليه ، شق طريقه مختفيا وسط الزحام

وسأل قائد السرية بسخرية :

— أرأيت هذه الدودة ؟ أى فائدة تحصلون عليها من وجوده فى الفرقة ؟ .. إنهم يقولون إنه نفسه قد طردته الكلية من أجل السرقة !

فقال ليفينسون

— لا تصدق كل ما تسمع من الشائعات !

وصاح ريابيتس من المدخل « حان وقت الدخول » وهو يلوح ذراعيه فى حيرة ، فمن العسير عليه أن يصدق أن الحادث الضئيل فى حقل بطيخه الذى غطته الأعشاب ، يستطيع أن يجمع كل هؤلاء الناس !!

— حان وقت البدء أيها الرفيق القائد ... لن نستطيع إضاعة الوقت هنا حتى صياح الديك .

والجو حار داخل الفرقة ، يملؤه دخان الطباق المائل إلى الاخضرار ولم يكن ثمة مقاعد كافية ، فاختلط الفلاحون والجنود وتراصوا فيما بينهم وبين المدخل ، ولهاثهم يصيب عنق ليفينسون .

وصاح ريابيتس فى إكتئاب « ابدأ يا أوسيب ابراميتش » ، وقد ضاق بنفسه وبالقائد . فالمسألة بأكملها بدت له الآن من التفاهة بحيث لم تكن تستوجب كل هذا الضجيج !

وشق موروزكا لنفسه طريقا عبر المدخل متبرما ، محملق العينين وقد وقف إلى جوار دوبوف .

وأوضح ليفينسون ، وأطنب فى أيضاح أنه لم يكن لينتزع الفلاحين من عملهم لو لم يكن مستيقنا من أن هذا الأمر يتعلق بصالح الجميع ويؤثر فى الفلاحين والجنود معا ، بالإضافة إلى وجود عدد كبير من أهل القرية فى الفرقة .

واختتم حديثه بأن « القرار هو ماترسمونه » ، مضفيا على عبارته طابع التأكيد الجازم ، محاكيا طريقة الفلاحين فى الكلام . ثم تهيأ للجلوس متباطئا ، واستراح فى جلسته ، فبدا ضئيلا لاقيمة له ، وكأنه

ذبالة شمعة أطفئت ، تاركا المجلس يقرر الأمر فى الظلام .

وبدأ عدد من الرجال يتحدثون معا فى الوقت نفسه ، وكلهم مختلطو القول لاثقة لهم بما يقولون ، يتعثرون بالأحداث التافهة الفارغة ، وانضم إليهم بعض آخر ، وأصبح من المستحيل فهم ما يقال !!. وكانت كثرة المتحدثين من الفلاحين أما الجنود فقد ظلوا صامتين .

وتمتم يفستا فى قسوة ، وهو عجوز ، خالط البياض شعره . وقد تغضن جلده كنبات ذابل :

ـــ على أيامنا .. وقت حكم القيصر نيكولاى .. كانوا يزفونه فى القرية من أجل أشياء كهذه .. كانوا يعلقون ما سرقه فى عنقه ويجرجرونه وهم يقرعون القدور النحاسية .

وهز إصبعاً متغضنا كما لو كان ينذر أحداً :

وصاح الأعور ، ذو الكتفين المستديرتين :

ـــ لانسترجع أيام نيكولاى !

وود لو لوح بذراعيه ، ولكن الزحام عاقه ، وزاد ذلك من غضبه عن ذى قبل !!

ـــ أنت لاتعرف سوى القيصر . . . قيصرك .. لقد ذهبت هذه الأيام . . . إلى الشيطان .

ولكن العجوز أجاب فى عبوس :

ـــ سواء أكان هناك قيصر أم لم يكن .. فليست السرقة صوابا ، ومهما يكن من شىء فان علينا إطعام الفرقة بأكملها .. ولن نستطيع أن ننجب اللصوص هنا ونعمل على تكاثرهم .

ـــ من تكلم عن إنجاب اللصوص ؟. لا أحد يقف مع اللصوص ، وقد تكون أنت الذى ينجبهم !!.

والرجل الأعور يشير بذلك إلى أحد أبناء الرجل العجوز ، وهو

غائب عن القرية طيلة عشر سنوات ، وأضاف .

ـــ يجب أن نضع قاعدة جديدة ... إن موروزكا يحارب منذ ستة سنوات ما الضرر فى أن يشتهى بطيخة ؟

فسأل أحد الحاضرين :

ـــ ولكن ماذا يجبره على اللجوء إلى الاحتيال ؟ . وخاصة حينما يتعلق الأمر بشيء تافه كبطيخة .. إذا كان قد جاء إلىّ وسألنى ، لأعطيته الكثير دون اهتمام .. ولقلت .. خذها .. نحن نطعم بها الخنازير .. فلماذا نضن بهذه الأشياء الحقيرة على رجل شجاع ؟.

ولم يكن ثمة غضب يشيع فى أصوات الفلاحين، فقد وافقت كثرتهم على أن القوانين القديمة لم تعد صالحة للتطبيق وأن الأمر يجب أن يحسم بطريقة جديدة .

وصاح أحدهم :

ـــ دعوهم يحسموا الأمر فيما بينهم مع رئيس المجلس .. ولنبتعد عن التدخل فيه .

ونهض ليفينسون مرة ثانية وضرب المائدة بقبضته ، وتكلم بعذوبة ووضوح قائلا : « ليتكلم كل واحد بمفرده ... أيها الرفاق .. فاذا تكلمنا جميعا معا ، فلن نصل إلى شيء ... أين موروزكا ؟

ونادى موروزكا متوعدا ، وتلفت الجميع حيث يقف جندى المراسلة .

فقال موروزكا بصوت غليظ :

ـــ أنا على ما يرام حيث أقف .

فلكزه دوبوف قائلا : « اذهب »

وتردد موروزكا ، ومال ليفينسون إلى الأمام ، وعيناه المحدقتان تحتويان موروزكا ، وتجذبانه من وسط الزحام كما يجذب الملقط مسمارا من جدار !

وشق جندى المراسلة طريقه بمرفقيه متجها إلى المنضدة منكس الرأس خافض البصر ، والعرق يسيل منه غزيرا ويداه ترتعشان ، وقد حاول أن يرفع رأسه وهو يحس بعشرات العيون المستطلعة تنظر إليه ولكنه اصطدم بوجه جونشارنكو العابس ذى الشعر الغزير وكان وجه جندى المفرقعات ينطق بالعطف والقسوة معا ، ولم يستطع موروزكا مواجهته ، فحول وجهه ناحية النافذة ، ووقف دون حراك ، وعيناه مثبتتان على الفضاء الحالك فى الخارج !

وقال ليفنسون ، وصوته مازال هادئا إلى درجة غير مألوفة رغم وصوله إلى الجميع ، حتى الواقفين عند المدخل :

— من يريد الكلام ؟ .. أنت أيها الجد ؟

فأجاب العجوز فى اضطراب

— لماذا يجب أن اتكلم ... لقد فرغنا لتونا من تبادل الحديث .

وصاح الفلاحون

— ليس هناك الكثير الذى يستحق الكلام ... احسموا الأمر بأنفسكم ، وانفجر دوبوف فجأة : « انتظر .. أيها الرجل العجوز ... دعنى أتكلم » وفى صوته انفعال طال كبته ، وكان متجها ناحية الجد يفستا ورغم ذلك نادى ليفنسون وهو غائب الذهن « بالرجل العجوز » ، وكان فى لهجته ما جعل الجميع يحولون رءوسهم إليه .

وأجهد نفسه حتى وصل إلى المنضدة ، بجوار موروزكا ، فاخفى ليفنسون بجسمه العريض الثقيل .

وانفجر محتدا ، مائلا بشدة إلى الأمام :

— أتريدوننا أن نحسم الأمر بأنفسنا ... أ أنتم مرضى ؟ حسنا إذن ... سنحسمه بأنفسنا ..

وأستدار بعنف إلى موروزكا وصوب إليه عينين تتوهجان

ـــ أنت تسمى نفسك واحدا منا ... رجل مناجم ؟

وكان فى سؤال سخرية ولوم ..

ـــ أيها المغولى ... يا أشد أهل سوشان فسادا . . ألا تريد أن تكون واحدا منا ؟ ... أتسرق ؟ .. لقد أخزيتنا نحن آكلى الفحم جميعا !! .. حسنا !!

ومزقت كلمات دو بوف الصمت برنين معدنى ثقيل كأنه كتل من الفحم تتساقط . ونظر موروزكا إليه وقد شحب وجهه وأصبح عاجزا أن يحول بصره عنه ، كما أحس بأن قلبه يغوص بين الضلوع .

وكرر دو بوف كلمة « حسنا » ثم أضاف :

ـــ كن لصا .. وسنرى كيف تكون حالك دوننا ... اننا سنطرده سنلقى به خارج الفرقة !

وأنهى حديثه متطلعا بحدة إلى ليفينسون .

وصاح أحد الجنود :

ـــ من هذا الذى ستقذف به خارجا ؟

وزأر دو بوف متقدما إلى الامام : ماذا ؟

وتهادى صوت رقيق ممتلىء إشفاقا من أحد اركان الحجرة :

ـــ بحق السماء أيها الأولاد .. لاتأخذوا الأمر بهذه الحدة

وأمسك ليفينسون بكم قائد السرية من الخلف ، وناداه بهدوء طالبا منه أن يميل بجسمه قليلا فهو يحجب عنه الجميع !

وهدأت ثائرة دو بوف فى الحال ، وبدا عليه التردد ثم طرفت عيناه فى إذعان ، وفجأة علا صوت جونشارنكو ، رافعا رأسه ذ الخصلات المتموجة ، الذى لوحته الشمس ، فوق هامة الحشد :

ـــ كيف نطرد هذا الغبى ؟ انا لا أقصد بذلك الدفاع عنه فذلك ضرب من المستحيل ، لقد انزلقت قدمه وارتكب فعلا شائنا ، وة

ثابرت طويلا على تأنيبه ... ولكن يجب ألا يفوتكم أنه محارب مقدام وقد حاربت إلى جواره فى جبهة يوسورى ، إنه واحد منا ولن يخون قضيتنا أبدا !!

فقاطعه دوبوف فى مرارة :

ـ واحد منكم ! ! وأليس هو وحدا منا أيضا ؟ لقد عملنا معه فى جحيم المناجم ، وقد نمنا تحت غطاء واحد معه طيلة شهور ... والآن يود كل ابن عاهرة أن يلقننا درسا .!

ونطق بالعبارة الأخيرة مزمجرا وهو يتذكر فجأة صوت سيسكين العذب ! واستطرد جونشارنكو ، ملقيا نظرة حيرة على دوبوف ، وهو يعتقد أن عبارته الغليظة موجهة اليه :

ـ نحن لا نستطيع طرد رجالنا ... وفى رأيى أننا يجب أن نتوجه إليه هو بالسؤال .

وفى إشارة تأكيد قاطع من يده الثقيلة ، بدا وكأنه أزاح جانبا كل ما كان يختلط برأيه السديد العادل من سخف .!

« هذا صواب . . لنسأله .. ليخبرنا هو .. وسنرى إذا كان واحدا منا أم لا . . »

وتوقف دوبوف وكان يشق طريقه جاهدا وسط الزحام عائدا إلى مكانه ، وبدأ يبحث عن موروزكا .

وحملق جندى المراسلة فى اضطراب ، وأصابعه التى بللها العرق متشبثة بثوبه فى توتر .

ـ لنسمع ماعندك .

واختلس موروزكا النظر إلى ليفينسون من جانب عينيه .

ـ أتعتقدون حقيقة أنى ...

ثم صمت وقد هربت منه الكلمات .

فصاح الجميع مشجعين :

ـ واصل حديثك .. واصل حديثك ..

ـ أتعتقدون أنني .. أرتكب .. مثل ..

ومرة ثانية عجز عن الكلام .. وأشار إلى ريابيتس

ـ حسنا .. هذا البطيخ .. أكنت سأرتكب .. إذا خطر فى ذهنى .. أذلك يعد رغبة فى إيقاع الضرر .. لقد اعتدنا السرقة ونحن صغار ... كلكم تعرفون ذلك .. وأنا أيضا .. وكما قال دوبوف لقد جلبت لكم العار جميعا .. ولكن أمن الممكن فعلا .. أيها الأخوة أن .؟

وصدرت الكلمات الأخيرة من قلبه مباشرة ، ومال قليلا إلى الأمام ويداه قابضتان على صدره ، وعيناه الدامعتان تومضان وميضا حارا :

ـ لماذا .. إننى أقدم كل قطرة من دمى فداء لأى واحد منكم .. ولن أرضى بتلطيخكم مقابل أى شىء !.

ونفذت إلى الحجرة أصوات تغاير ما يتردد فيها ، ونبح كلب فى البعيد، وغنت فتيات القرية ، وانبعث من منزل القسيس المجاور ترتيل منغم مختلط ، وارتفع زفير من ناحية النهر .

ـ حسنا .. كيف أنزل بنفسى العقاب ؟

وما زال الألم فى صوت موروزكا وهو يتكلم ، وكانت كلماته أكثر حزما ولكن أقل إخلاصا ..

ـ ليس فى استطاعتى إلا أن أعطيكم وعدا ، كرجل من رجال المناجم أن لا أعود لذلك ثانية .

فسأله ليفينسون فى حذر :

ـ وإذا نكثت بوعدك ؟

ـ سأبر به ..

وبدا الضجر على وجه موروزكا وهو يستشعر الحرج أمام الفلاحين

ـ وإذا لم تفعل ؟

ـ تستطيعون أن تفعلوا بى ماشئتم. تستطيعون إطلاق الرصاص على»

فصاح دوبوف فى خشونة! «نعم.. سنطلق عليك الرصاص..»

ولكن عينيه بدا فيهما وميض العطف بدلا من الغضب؛ وكان فيهما ابتسامة

وصاح الرجال وهم جلوس فى مقاعدهم:

ـ ليس هناك مزيد من القول.

ـ هذا كل ما فى الأمر.

وهم فرحون بانتهاء الاجتماع الذى طال.

ـ أمر تافه.. وكلام يكفى سنة.!

ـ أهذا هو قرارنا إذن.. أليس ثمة اقتراحات أخرى؟

وصاح الجنود بعد أن فارقهم الصمت والتوتر

ـ ليختتم الاجتماع.. عليه اللعنة.. لقد ضقنا بالأمر كله وأثار فى نفوسنا الاشمئزاز.. ونحن جائعون فوق ذلك.. ومعداتنا تصيح طالبة الطعام.

ولكن ليفنسون نهض قائلا وقد رفع يده:

ـ لا.. انتظروا.. لقد حسمنا أمراً.. ولكن هناك آخر.

ـ ماذا بقى؟

فتلفت ليفنسون حوله قائلا:

ـ يجب أن نتخذ قرارا.. أوه.. ليس لدينا سكرتير.. وضحك ليفينسون فى مرح ثم واصل حديثه:

ـ تعال ياسيسكين وسجل ذلك: لقد تقرر «أنه عند انعدام العمليات الحربية، تقدم المساعدة إلى الفلاحين مهما تكن ضئيلة، بدلا من التسكع...»

وكان يتكلم بثقة كما لو كان مستيقنا حقيقة من أن رجاله سيساعدون

الفلاحين .!

فصاح واحد من الفلاحين :

ــ ولكننا لم نطلب ذلك .

وفكر ليفينسون قائلا : إنهم يقصرون عن ذلك !

وصاح فلاحون آخرون مقاطعين زميلهم : اصمت أنت .. خير لك أن تنصت .. دعهم يعملوا .. إن أيديهم لن يقطعها العمل .

ــ « ويجب أن نهتم بتقديم عون خاص إلى ريابيتس »

فصاح الفلاحون مستثارين :

ــ لماذا عون خاص ؟ . . لماذا النفخ فى صورته . . أى إنسان يستطيع أن يكون رئيس اللجنة .. ليس هذا بالعمل الصعب .

ــ كفى .. كفى .. نحن على استعداد . . لا نكترث ذلك .

ونهض الجنود وغادروا الحجرة دون أن يلتفتوا إلى قائدهم . وقفز جندى خشن المظهر ، حاد الأنف على موروزكا ، وهو يجذبه إلى الباب وكعبا حذائه يضربان الأرض صائحا :

ــ هيه .. فانيا .. أيها الغلام الحلو .. يا إبنى .. يا ذا اللعاب ! وجذب قلنسوته على مؤخر رأسه وهو يدور حول نفسه ، متراقصا محتضنا موروزكا بذراعه .

ودفعه موروزكا فى مرح ..

ومر بهما ليفنسون وباكلانوف مسرعين .

وكان باكلانوف يتحدث وهو يلوح بيديه :

ــ دوبوف هذا قوى كالثور .. أليس من الممتع أن نجعله يتصارع مع جونشارنكو .. من منهما الفائز فى اعتقادك ؟

وكان ليفينسون مستغرقا فى أفكار أخرى فلم يستمع إليه . وغاصت أقدامهما فى أرض الطريق الموحلة .

وسار موروزكا خلف الآخرين فلحقت به آخر مجموعة من الفلاحين وكانوا يتحدثون بطريقة هادئة وادعـــة كأنهم عائدون من الحقل لا من اجتماع .

وتألق الضوء فى نوافذ الأكواخ داعيا فى ترحيب إلى العشاء ، وصدح النهر ملتحفا بالضباب وكأنه مئات الطيور .!

وتذكر موروزكا وقد بدأت نفسه تثوب اليه أن ميشكا لم يشرب بعد . وصهل ميشكا فى الاصطبل حينما أحس بصاحبه ، بهدوء غاضب كما لو كان يتساءل « أين بحق الجحيم كنت ؟! »

وتحسس موروزكا المعرفة الخشنة وقاد الجواد إلى الخارج .. وحينما وضع الحصان منخريه الباردين على عنق موروزكا فى وقاحة ، دفع رأسه بعيدا قائلا :

ـــ أنت مسرور أنت الآخر ... فكل ما تعرفه هو تدبير المقالب ولكننى مسئول عن نفسى وعنك .!

الفصل السادس

ليفنسون

استمتعت فرقة ليفينسون بالراحة ما يزيد على أربعة أسابيع وقد تملكت فى هذه الفترة جيادا وعربات وآنية ، والتف حولها أيسر الرجال انقيادا ، وهم الهاربون من الفرق الأخرى، وقد رثت ثيابهم .! وأصبح الجنود كسالى ينامون وقتا أطول من اللازم حتى أثناء نوبات الحراسة .

ولم يمنع ليفينسون من السير بفرقته الضخمة إلا ما وصله من أنباء سيئة . وكانت المعلومات الجديدة تؤكد مخاوفه أحيانا ، وتهز أمنها أحيانا أخرى . وما أكثر ما اتهم نفسه بالافراط فى الحذر وخاصة حينما ذاع أن اليابانيين خرجوا من كريلوفكا ، وعجز جنود الاستكشاف عن الوصول إلى العدو حتى عشرات الأميال فى كل الاتجاهات.!

ومهما يكن من شيء ، فلم يعرف أحد شيئا عن اضطراب ليفينسون غير ستاشينسكى ، فليس فى استطاعة أحد من رجال الفرقة أن يعتقد الاضطراب فى ليفينسون ، فهو لم يفض بأفكاره أو مشاعره إلى أحد ، وكان دائما متأهبا للاجابة بالنفى أو بالاثبات على أى سؤال ، لذلك فقد بدا للجميع - عدا الرجال أمثال دوبوف وستاشينسكى وجونشارنكو الذين يعرفون حقيقته - رجلا من معدن خاص . وكان كافة الجنود وخاصة باكلانوف الشاب الذى يحاول أن يشبه قائده حتى فى أخلاقه ومظهره ، ميالين للتفكير وفقا لهذا النمط : « لى بطبيعة الحال كثير من

نواحى النقص ، أنا الخاطىء !! فما أكثر الأشياء التى لا أفهمها ، وفوق ذلك . فلا سيطرة لى على نفسى فى عدة أمور ، فأنا أتوق إلى زوجتى أو عروسى الدافئة الولهانة ، هناك فى بيتنا ، وأنا أحب البطيخ حينما يكون فى حلاوة الشهد ، أو فتات الخبز فى اللبن ، والأحذية اللامعة كى أكسب قلوب بنات القرية فى رقصات المساء . . ولكن ليفينسون .. إنه رجل ... لا تستطيع أن تشك حتى بمجرد الشك فى ميله إلى هذه الأشياء .. فهو يفهم كل مايحيط به ، ويقوم بعمله على أسس سليمة . فهو لا يطارد الفتيات مثل باكلانوف ، ولا يسرق البطيخ مثل موروزكا .. وليس ثمة ما يشغل ذهنه غير عمله ... إنك لا تستطيع إلا أن تثق به ، وإلا أن تطيعه ، فهو رجل حقيقى »

ومنذ اليوم الذى انتخب فيه ليفينسون قائداً ، لم يستطع احد أن يتخيله خارج منصب القائد . فقد اتضح للجميع أن السمة المميزة له هى مقدرته على القيادة ، وإذا افترضنا أنه أخبرهم الآن بمساعدته لوالده أثناء طفولته فى بيع الأثاث القديم ، وبحلم والده طيلة حياته فى أن يصبح غنيا ، وبخوفه من الفئران ، وإساءته للعزف لظنوه يمزح جميعا ، ولكن ليفينسون لم يكن يتكلم عن مثل هذه الأشياء ، لا لأنه صامت كتوم بل لأنه يعرف أن الجميع يعتبرونه من « معدن خاص » ولأنه يعرف ضعفه وضعف الاخرين ، ويعتقد أن الانسان لا يستطيع أن يكون قائدا للرجال ، إلا إذا كان قادرا على أن يجعل الآخرين يستشعرون نقائصهم ، مع إخفاء نقائصه هو . لذلك فلم يسخر قط من باكلانوف حينما يحاول محاكاته ، فهو طالما قلّد مدربيه الذين بدواله أعلى مقاما ، كما يبدو هو الآن فى عين باكلانوف حينما كان فى عمره ، وحينما نضج أدرك أن مدربيه ليسوا الكائنات السامية التى تخيلها ، ومع ذلك أحس نحوهم بعرفان الجميل ، وباكلانوف لا يحاول محاكاة كل لازمة من لوازمه فحسب بل هو قد تعلم

من تجربة حياته بكاملها ، سواء أساليب كفاحه أو عمله أو سلوكه وفوق ذلك فليفينسون يعرف أن اللوازم ستختفى من مرور السنين أما التجربة التى ستضيف إليها تجربة باكلانوف الخاصة ثراء ، فستنتقل الى كثيرين من أمثال ليفينسون و باكلانوف ، وقد شعر ليفنسون بأهمية ذلك وضرورته .

وفى أوائل أغسطس ، فى وقت متأخر من ليلة مطيرة ، وصل بديل من فرسان البريد يحمل رسالة من « سوخوفيكوفتان » العجوز رئيس أركان حرب فرق الأنصار ، وقد كتب الرئيس أن اليابانيين قد هاجموا أنوشينو ، حيث تركزت قوات الأنصار الرئيسية ، وأن معركة ضارية نشبت بالقرب من إزفستكوفايا ، وأن مئات الانصار قد عذبوا حتى الموت ، وأنه هو نفسه قد أصيب بتسعه جروح من الرصاص ثم اختفى فى موئل من موائل صيد الشتاء ، ويخشى أن تحل به المنية سريعا .!

وقد سرت أنباء الهزيمة على الوديان بسرعة مشئومة ولكن فارس البريد كان أول من حمل اليهم الخبر اليقين ، وقد أحس كل من تناوبوا حمل الرسالة أنها أبشع ماحملوا منذ بدء حركة الأنصار، وحتى جيادهم ذات الشعر الغزير قد استشعرت الخوف وكشرت عن أنيابها ، وركضت مجنونة من قرية إلى قرية مخترقة الطرق الموحلة القاتمة وحوافرها تقذف سيولا من الوحل .!

وما أن وصلت الرسالة إلى ليفينسون فى منتصف الثانية عشرة ، حتى غادرت سرية من الفرسان يقودها الراعي ميتيليتسا كريلوفكا بعد نصف ساعة ، وانتشرت على شكل مروحة عبر الممر المظلم الصاعد الى سيخوتى آلين ، حاملة النذر إلى كل الكتائب فى قطاع سفياجينو العسكرى .

واستغرق وصول الانباء من الكتائب المختلفة إلى ليفينسون أربعة أيام ، ونشط عقله فى توتر وتخبط كأنما كان يتوقع سماع أنباء أكثر

سوءاً كل لحظة . ولكنه تابع الحديث الهادىء إلى الجميع ، واستمرت عيناه تلحظهم في بريقها الساخر ، ولم يكف عن مداعبة باكلانوف والتلميح إلى « تلك الفتاة القذرة ماروسيا » ، وحينما دفع الرعب سيسكين إلى أن يتشجع ذات مرة ويسأل عن سبب التراخي في مواجهة المشكلة ، ضرب ليفينسون جبهته في رفق قائلا ليس الأمر من « اختصاص الصبية ! » وقد أراد ليفينسون أن يؤدي موقفه بكامله إلى أن يخلق انطباعا ، بأنه يفهم كيف وقعت هذه الأحداث وما هي نتيجتها ، وأن ليس ثمة فيها ما يخرج على المألوف أو مايدفع إلى الرعب ، وأنه قد رسم منذ بعيد خطة لا يمكن أن تخفق لانقاذهم ! . ولكنه في واقع الأمر لم تكن لديه تلك الخطة بل لقد كان غارقا في الحيرة ، كتلميذ طلب منه ان يجيب فورا على معادلة متعددة المجاهيل !! وكان ينتظر أنباء من المدينة ، فقد ذهب الجندي كانونيكوف اليها قبل وصول الرسالة الرهيبة بأسبوع .

وعاد كانونيكوف بعد خمسة أيام من وصول الرسالة ، متعبا جائعا ، وقد غطت وجهه لحية شائكة ، ولكنه لم يزل كالعهد به ذلك الجندي الماكر أحمر الشعر ، فليس من الممكن تحوله عن واحدة من هاتين السمتين!

وقد بدأ كلامه بأن أخرج من كمه خطابين في مهارة سارق أوراق اللعب ، وعلى فمه ابتسامة مصطنعة لا تتعدى الشفتين ، ولم يكن سعيدا بأية حال ولكنه لا يستطيع الكلام دون ابتسام .

ـــ لقد حدثت مطاردة في المدينة وكريزلمان في السجن .. وقد حل اليابانيون بفلاديميرو . اليكساندروفسكوي وأولجا . وقد سحق كل رجالنا في سوشان ولم يبق سوى إكمال التنظيف .. خذ ودخن ،

ومد يده إلى ليفينسون بسيجارة ذات طرف مذهب .

وجرى ليفينسون بعينه على الظرفين ، ووضع أحدهما في جيبه ثم فتح الاخر .

وكان الخطاب تأكيداً لما ذكره كانو نيكوف ، تبدو فيه مرارة العجز والهزيمة واضحة خلف اللهجة الرسمية ذات التفاؤل المفتعل .

وسأل كانو نيكوف فى عطف :

ــ أنباء سيئة .. أليس كذلك ؟

ــ نعم .. من كتب ذلك ... سيديخ ؟

فأومأ كانيكوف برأسه مؤيدا .

وقال ليفينسون ساخرا وهو يشير بأصابعه إلى « القسم الرابع . المهام العاجلة » فى الخطاب :

ــ من الممكن استنتاج ذلك ، فهو دائما يقسم كل ما يكتب إلى أقسام .

ثم شم السيجارة قائلا « طباق ردىء .. أليس كذلك .. أشعلها لى .. من المستحسن أن تغلق فمك فيما يتعلق باحتلال اليابانيين وبقية الأمر .. هل اشتريت لى غليونا ؟ »

وتجاهل بعد ذلك كانو نيكوف الذى بدأ يسترسل فى بيان الأسباب التى عاقته عن شراء الغليون ، وأولى كل اهتمامه مرة ثانية إلى الخطاب

وكان القسم الذى عنوانه «المهام العاجلة » مكونا من خمسة أجزاء بدت أربعة منها عسيرة التطبيق . وقد جاء فى الجزء الخامس :

« إن الشيء الجوهرى أمام قيادة الأنصار ، وما يجب إنجازه بأى ثمن هو الاحتفاظ بوحدات مقاتلة . صغيرة ، منظمة ، ذات كفاءة ، من الممكن فى المستقبل أن . . »

وصاح لليفينسون « ناد باكلانوف وأمين المخزن »

ووضع الخطاب فى حقيبة الميدان دون أن يواصل القراءة ليعرف ماذا سيحدث للوحدات المقاتلة « فى المستقبل » وفى غمار المشكلات استطاع أن يرى إحداها بوضوح وهى « الشيء الجوهرى » وأن

ليفينسون بما تبقى من سيجارته ودق المنضدة بأصابعه ... « الاحتفاظ بوحدات مقاتلة ! »

ولم يستطع أن يتفهم الفكرة ، وبقيت فى ذهنه متخذة صورة ثلاث كلمات خطها قلم لاتمحى كتابته فى ورق مختوم . ثم تناول الخطاب الثانى بطريقة آلية ، وألقى على الظرف نظرة وتذكر أنه من زوجته وأعاده إلى مكانه وقد شردت أفكاره « هذا يستطيع الانتظار .. الاحتفاظ بوحدات مقاتلة »

وحينما أقبل أمين المخزن ومعه باكلانوف ، كان ليفينسون يعلم ماذا عليه وعلى الرجال الخاضعين لقيادته أن يفعلوا ... فعليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم للاحتفاظ بالفرقة كوحدة مقاتلة .

— علينا أن نغادر هذا المكان حالا ، أكل شيء على مايرام .. تكلم يا أمين المخزن .

ورد باكلانوف وراءه « نعم ، تكلم » وهو يعيد إحكام حزامه حول خصره متخذا هيئة الحزم الرزين كما لو كان يعلم منذ وقت طويل أن الأمور ستصل إلى هذا الحد .

وبدأ أمين المخزن يسرد قصة طويلة عن الشوفان الذى ابتل ، وعن الاكياس التى تمزقت ، وعن الجياد المريضة بعد أن استهل كلامه بأنه على استعداد ، ثم ما العمل وهم غير قادرين على حمل الشوفان كله معهم ؟ وبمجمل القول فقد كانت قصته تشير إلى أنه ليس على استعداد إطلاقا ، وإلى أنه يعتبر رحيلهم عبثاً محفوفاً بالمخاطر وتفادى أن ينظر إلى القائد وهو يعبس كما لو كان متألماً ، وتطرف عيناه ، ويتنحنح كى يبدو صوته واضحاً ، فهو يعلم أن ضراعته لن تجدى شيئاً ! .

واتجه ليفينسون بقوله « لغو فارغ »

— لا .. هذا صحيح يا أوسيب ابراميتش .. خير لنا أن نختبئ هنا .

وهز ليفينسون رأسه كما لو كان يرثى لغباء أمين المخزن مرددا « تختنق ... هنا .. أليس كذلك ... وشعرك قد شاب مع هذا الغباء ... وما هى النهاية التى تتوقعها ؟ »

ـ أنا ...

ـ كفى !! .. يجب أن تكون مستعدا بعد لحظة ... أتفهم .. راقب هذا الأمر يا باكلانوف ... ياللعار ؟ ... ماهذا الهراء .... ؟ .. أكياس !!

ولاح غضب بارد فى عينيه ، وأقنعت نظراته القاسية أمين المخزن بأن أكياسه لا تستحق الحديث .

وغمغم « نعم ... بكل تأكيد .. هذا واضح جدا ... إنها ليست بهذا القدر من الأهمية » ، وهو على استعداد لأن يذعن الآن ويحمل الشوفان على ظهره إذا صدرت كلمة واحدة آمرة من فم القائد .!

وواصل تمتمته :

ـ ماذا يعوقنا ؟.. لاينقصنا إلا عمل ضئيل و يتم الأمر ... نستطيع أن نرحل اليوم .

وضحك ليفينسون قائلا .. « هذه هى الروح المعنوية ... حسنا . انصرف » ، وضرب بيده ظهر أمين المخزن مداعباً .. « بعد لحظة واحدة من صدور الأمر .. تذكر ذلك »

وقال أمين المخزن لنفسه « ياله من ذكى .. ابن حرام » ، وقد مازج الإعجاب إذعانه .

وعند اقتراب المساء ، دعا ليفينسون مجلس القيادة ، وهو مكون من قادة الكتائب للانعقاد .

وكانت استجابتهم لتقرير ليفينسون لاتجانس فيها ، فقد جلس دو بو صامتا طيلة الاجتماع ، يجذب شاربه الكثيف المتهدل ، وكان من الواد

أنه سيؤيد ليفينسون فى كل ما يذهب اليه . ولكن المعارضة القوية انبعثت من جانب كوبراك ، قائد الكتيبة الثانية . وكان كوبراك أكبر القواد سنا ، وأكثرهم جدارة ... وأبعدهم جميعاً عن الحكمة .!!

ولم يقف إلى جانبه أحد . فهو من أهل كريلوفكا . وقد أدرك الجميع أن ما يستأثر باهتمامه هى حقول قريته لا مصلحة الفرقة .

وقاطعه الراعى ميتيليتسا صائحا .

ـ كفى ... خذوا الأصوات !

ـ لقد حان الوقت لتنسى قميص زوجتك أيها العم كوبراك !

وكما هى العادة، فقد أشعلت كلماته فى نفسه هو الحماس ، فدق المنضدة بقبضته ، والتمع العرق على وجهه المجدور .. « سنفنى هنا كما لو كنا دجاجات ... كفى ... لنأخذ الأصوات » ، وبدأ يذرع الغرفة، مجلجلا بحذائه ذى الفراء ، ضاربا المقاعد بسوطه !!

ونصحه ليفينسون بأن تهدأ ثائرته ، وإن أعجب فى دخيلة نفسه بحيوية جسم الراعى وبحركاته القوية ، وبعضلاته الصلبة ذات المرونة التى تشبه طرف سوطه

ولكن الرجل لم يستطع الاخلاد إلى السكون لحظة ، فقد كان يتلظى ويتوثب ، وعيناه الواسعتان تتحرقان ظمأ إلى القتال .

وأوضح ميتيليتسا خطته فى التقهقر ، فبدا من الجلى أن رأسه الثائر لا يرهب الأبعاد السحيقة ، ولا يفتقر إلى الدهاء العسكرى .

وصاح باكلانوف :

ـ إنه على صواب ... إن له رأسا فوق كتفيه .

وغمر باكلانوف شعور بالاعجاب ، يمتزج بالغيرة إزاء تحليق خيال الراعى ، هذا التحليق الجسور القائم بذاته .. وواصل قوله

ـ لم يمر وقت طويل منذ كانت العناية بالخيل شغله الشاغل ولكن

ستزون أنه سيصبح قائدنا بعد سنتين ... اثنتين فحسب !

ووافقه ليفينسون قائلا :

ــ ميتيليتسا ... نعم ... إن قيمته تعادل وزنه ذهبا ولكن حذار أن يركبك الغرور .

ومهما يكن من شيء ، فقد انتهز ليفينسون فرصة احتدام المناقشة بينهم ، حيث كان كل منهم يعتقد أنه أكثر الجميع ذكاء . ويرفض الاصغاء لما يقوله الآخرون ، فقدم خطته بديلا لخطة الراعى ، وهى خطة أوفر بساطة وأدعى إلى تحقيق السلامة . وقد قام بذلك فى حذق ودون لجاج حتى لقد طرحت خطته الجديدة للتصويت ، وأحرزت إجماعا فى الموافقة وكأنها هى خطة ميتيليتسا !!

وكتب ليفينسون فى رده على المدينة وفى خطابه إلى ستاشينسكى أن فرقته سترحل إلى قرية شيبيتشى عند منبع نهر الايروهيدزا ، كما أمر بأن تظل المستشفى حيث هى حتى يصدر أمر آخر .

وفرغ من عمله والليل على وشك الانتهاء وقد نضب الزيت فى المصباح وكان يسمع صرير الجنادب خلف الموقد ، وغطيط ريابيتس فى الكوخ المجاور . وحينما تذكر خطاب زوجته ، صب زيتا جديدا فى المصباح وبدأ فى القراءة . ولم يكن فيه شيء طريف أو شيء بهيج فما زالت زوجته عاجزة عن أن تجد عملا ، وقد باعت كل ما تستطيع ، وأمكنها مواصلة الحياة بفضل الصليب الأحمر ، والأطفال يقاسون من أمراض سوء التغذية ، ولكن كل سطر كان يفيض باهتمامها به اهتماما لاحدود له .

ومضى ليفنسون يداعب لحيته مفكرا ثم بدأ فى الكتابة . وكان فى أول الأمر عازفا عن إيقاظ أفكاره المرتبطة بهذا الجانب من حياته ، ولكن سرعان ما استسلم لعواطفه وقد أضاء الحنين وجهه ، فملأ خطه الدقيق الذى يستعصى على القراءة صفحتين كاملتين بكلمات كثيرة لا يكاد أحد

يتخيل أن ليفينسون يعرف النطق بها !!

ثم مدد أطرافه المجهدة وخرج إلى الردهة .

وكانت الجياد تصهل فى الاصطبلات ، وتمضغ الحشيش فى جلبة ، واستغرق جندى المراسلة أثناء نوبة حراسته فى نوم عميق محتضنا بندقيته . وخطر ببال ليفينسون « ماذا لو كان الحراس نائمين أيضا؟ » وظل واقفا بعض الوقت وهو يغالب النوم ، ثم قاد حصانه خارج الاصطبل ، ووضع عليه السرج ، وجندى المراسلة مازال نائما ،فهمس ليفينسون : « ابن العاهرة !! » ثم نزع قبعة الجندى وأخفاها تحت الدريس ثم قفز على ظهر الحصان ومضى ليمر على مراكز الحراسة .

والتزم جانب الشجيرات فى ركضه المتسلل حتى أدرك حظيرة الماشية.

وصاح جندى الحراسة متحدياً وهو يقعقع بمتراس البندقيه .

ـــ من هناك ؟

ـــ صديق ..

ـــ ليفينسون ؟ ماذا تفعل هنا ليلا بحق الجحيم ؟

ـــ أمرت الداورية من هنا ؟

ـــ مرت إحداها منذ ربع ساعة .

ـــ كل شىء على مايرام ؟ .

ـــ حتى الان . . . أمعك سيجاره ؟

ـــ وأعطى ليفينسون الرجل بعضا من طباق منشوريا ثم عبر النهر وسار فى الحقول .

وكان القمر تعلوه قتامة ، وهو فى نصف استدارته ، يرنو خلف سحابة ، وشجيرات شاحبة، تساقط عليها الندى ،تلوح فى الظلام ، والنهر يفيض فى صخب على شطئانه الصخرية ، وتكاد تسمع صوت كل موجة وهى تلطم الحصباء . وأمامه فوق تل صغير بدت ظلال فرسان

أربعة تتراقص ، فانتحى ليفينسون ناحية الشجيرات ووقف ساكنا ، واقترب صوت الرجال فتعرف على اثنين من رجال « الداورية »

— فصاح فيهم « قف عندك » راكضا إلى الطريق ، فأجفلت الخيل شاهقة ، وتعرف حصان منهم عليه فصهل فى حنين

فقال الفارس الذى المقدمة ، وقد نجح فى أن يظل صوته واضحا لا اضطراب فيه

— لقد قاربت أن تدخل الرعب فى قلوبنا ... أيها العاهر !

— من هذا الذى معكم ؟

— داورية أوسوكين ... فاليابانيون فى ماريانوفكا .

— ماريا نوفكا ؟ أين أسوكين وفرقته ؟

فأجاب أحد جنود الاستكشاف

— فى كريلوفكا ... لقد اضطررنا إلى التقهقر فقد كان القتال مريرا ... ولم نستطع الثبات فى أماكننا ... وقد ارسلونا للاتصال بكم فسنرحل غدا إلى المزارع الكورية .

ومال الى الأمام ، وكأنه ينوء تحت ثقل ما نطق به من كلمات !

— لقد ضاع كل شىء ... وفقدنا اربعين رجلا ... لم نصب بمثل هذه الاصابات طيلة الصيف بكامله .

وسأل ليفينسون ؛

— أستغادرون كريلوفكا مبكرين ؟ .. كروا على أعقابكم ... فسأصاحبكم ،

وكان النهار قد أوشك على الاشراق حينما عاد إلى الفرقة ، مشعثا ، ملتهب العينين ، قد ثقلت رأسه طالبة الاغفاء .

وقد أقنعه حديثه مع أوسكين آخر الأمر بصواب قراره الخاص بالارتحال وبأن الوقت لم يفت بعد ،لإخفاء آثار الفرقة ، وكان مرأى فصيلة

أوسوكين دفاعا بليغا عن قراره : فقد تمزقت الفصيلة كل ممزق ، وكأنها برميل عتيق ، تهاوى تحت ضربات فأس ، إلى ألواح متداعية وحلقات صدئه وقد كف الرجال عن طاعة قائدهم وهاموا على وجوههم دون هدف ، وقد أطاحت الخمر بصواب كثرتهم .

تذكر ليفينسون واحدا منهم : مشعث الشعر ، معروق هزيل ، يجلس فى الردهه على مقربة من الطريق ، وهو يحدق طويلا فى الأرض ويطلق النار ، رصاصة بعد رصاصة ، فى يأس أسود ممزقا سكون غبشة الفجر .

وبعث ليفينسون بخطاباته فور عودته ، ولكنه لم يخبر أحدا أن فرقته ستغادر القريه هذه الليلة .

الفصل السابع

أعـــــــــداء..

أفضى ليفينسون بمخاوفه ، فى الخطاب الأول الذى أرسله إلى ستاشينيسكى عقب انعقاد مجلس الفلاحين ، واقترح التخفف من أثقال المستشفى تدريجيا حتى لا تواجههم مصاعب جديدة فى المستقبل . وأعاد الطبيب قراءة الخطاب بضعة مرات ، فأثارت عينه التى ظلت تطرف بسرعة غير مألوفة ، وأثار تدلى فكه وبروزه ، القلق والاضطراب فى كل من حوله ! وبدت مخاوف ليفينسون وتوجساته كأنها خيط يتصاعد من الظرف الرمادى الصغير الذى يحمله ستاشينيسكى فى يده ، ويطارد من كل نصل من العشب ، ومن أعمق الأركان فى نفس كل إنسان ، ماساد قبل ذلك من سلام وطمأنينة .

وانتهى جمال الطقس بغتة ، فاختفت الشمس ، وهطل المطر ، وناحت أشجار الاسفندان فى أسى ، فهى أول من استشعر أنفاس الخريف الزاحف . وتجسدد حماس الطيور ذات المناقير السوداء فى نقر لحاء الأشجار .!

وأصبح بيكا بعد أن افترسه القلق صامتا مكتئبا . ومضت أيام وهو هائم فى سهول الوادى ، ثم يعود مكدودا تعيسا . وحينما حاول الحياكة تعثر الخيط وتلوى فى يده ، وحينما جلس يلعب الورق كانت الخسارة من نصيبه دائما . وأحس أنه يحسو ماء راكدا أجاجا .

وفى هذه الأثناء ، كان الرفاق الآخرون يعودون إلى قراهم . وقد حزموا أمتعتهم العسكريه البغيضة ، وودعوا بعضهم بعضا فى لوعة . وبعد أن استوثقت الممرضة من إحكام ضماداتهم قبلت « إخوتها » مودعة الوداع الأخير !! وارتحل الرجال ، وأحذيتهم الجديدة تغوص فى الأعشاب حتى اختفوا بعيدا فى أعماق السهول الداكنة .

وكان الشاب الأعرج آخر من رأت فاريا .

فقالت له وهى تقبل شفتيه :

ـــ وداعا يا أخى . . . أنظر . . . سيهىء لك الله طقسا جميلا فهو يحبك . . . فلا تنسنا نحن المساكين هنا .

فسألها الشاب الأعرج وهو يضحك ساخرا :

ـــ وأين هو إلهك هذا ؟ . . . ليس هناك إله . . بحق جهنم الحمراء . . . ليس هناك على الإطلاق . !!

وود لو أضاف شيئا آخر ، يقوله بطريقته المرحة العابثة ، ولكن وجهه تقلص مربدا ، ولوح بيده فى امتعاض ، ثم استدار يحجل فى الدهليز ، وعكازه المعدنى يصدر رنينا كالنعيب .

ولم يبق الآن من الجرحى إلا فرولوف وميتشيك . وبقى بيكا كذلك ، ولم يكن مريضا على الإطلاق ، بل كان عازفا عن الرحيل . وانتصب ميتشيك فى فراشه ، وقد ارتدى قميصا جلديا مزخرفا، صنعته له الممرضة، متكئا على الوسادة ، وعلى ثوب بيكا . ولم تعد الضمادات تحيط برأسه ، ونما شعره غزيرا ، متموجا فى خصلات صفراء ، وأضفت عليه الندبة التى فى صدغه طابعا من النضج والجدية .

وقالت له الممرضة فى حزن :

ـــ ما أسرع ما تسترد صحتك وتفارقنا !

فسألها متشككا وقد أدهشه السؤال :

ـــ وأين سأذهب ؟

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يشغل فكره بهـذا الأمر ، وقد صاحب التفـكير شعور غائم ، شائك ، لا بهجة فيه ، قد أصبح مألوفا له هذه الأيام . وعبس ميتشيك وهو يقول بغلظة :

ـــ ليس لى مكان أذهب اليه !!

فصاحت فاريا مندهشة :

ـــ ماذا تقصد ؟ ستذهب إلى ليفينسون و تنضم إلى فرقته ، بطبيعة الحال ... أتستطيـع أن تركب حصانا ؟ إن فرقتنا فرقة فرسان ... هذا حسن ... ستتعلم الركوب .

وجلست على الفراش بجواره ، وأمسكت يده . وحول ميتشيك بصره بعيدا عنها ، فقد بدت له فـكرة مصيره ، واضطراره إلى الرحيل إن عاجلا أو آجلا ، ممضة بل وفى مرارة العلقم . وقالت فاريا وكأنها تقرأ أفـكاره : ـــ

ـــ لا تخف . . . إن شابا لطيفا مثلك . . . وخجولا أيضا . . . أنت شديد الخجل . .

وأعادت كلماتها فى رقة عذبة ، ثم ألقت نظرة عجلى حولها . وقبلت جبينه ، وكان فى قبلتها شيء ينتمى إلى عاطفة الأمومة ، وهمست فى أذنه قبل أن تـكمل كلماتها . .

ـــ الأمر مختلف فى فرقة شالدبيا ، ولـكن فى فرقة ليفينسون كل شيء على مايرام ... فرجال شالدبيا كثرتهم من الفلاحين ، أما رجالنا فمن عمال المناجم ، رفاق طيبون ، تحلو عشرتهم ... ولـكن تعال لترانى دائما كلما استطعت .

ـــ وماذا عن موروزكا ؟

فسألته بدورها ، متكلفة الضحك ، وقد ابتعدت سريعا عن ميتشيك

حينما التفت فرولوف نحوهما : —

— وماذا عن هذه الفتاة ... التى فى الصورة ؟

— لقد نسيتها تماما ... ومزقت الصورة !

ثم أضاف فى عجلة ..

— أرأيت البقايا على الأرض ؟

— لا تهتم كثيرا بموروزكا ... لقد تعود الآن على ذلك .. بل هو نفسه لامانع عنده ... لا تيأس ... تعال كلما استطعت . وتمسك بالشجاعة ولا تنهار .. لا تخف من أولادنا ... إن مظهرهم فقط هو العنيف ... إنهم سيعضون إصبعك إذا وضعته فى فمهم ... بطبيعة الحال إنهم يبدون ... يبدون فحسب ، غلاظ الأكباد . يجب أن تكشر عن أنيابك وهذا كل مافى الأمر .!

— هل تكشرين أنت عن أنيابك ؟

— أنا امرأة ... أستطيع شق طريقى دون حاجة إلى ذلك ... إن الحب هو وسيلتى . ولكن ليس أمام الرجل غير ذلك ... ولكننى أخشى ألا نصل إلى درجة كافية من الخشونة .

ثم مالت نحوه ثانية وهى تهمس ..

— قد يكون ذلك السبب فى حبى لك ... أنا لا أعرف .

وبدأ ميتشيك يفكر ..

« هذا صحيح .. فأنا لست شجاعا على الإطلاق » ، ثم ثنى يديه تحت رأسه ، واستقرت عيناه محدقة فى السماء دون حراك .. « ولكن ألا أستطيع بأية طريقة ؟ .. يجب أن أحاول .. لقد نجح آخرون » ومهما يكن من شىء ، فقد خلت أفكاره الآن من السوداوية ، ومن أى إحساس بالأسف والوحدة . فهو قادر على أن ينظر إلى مشكلاته من بعيد لأنه فى طريقه إلى الشفاء ، وجروحه تلتئم سريعا ، وجسمه يزداد

قوة واميلاء ، وكأن فورة الحياة هذه نابعة من الأرض عالقة بها رائحة النحل والكحول النقى ، أو من فاريا ذات العينين الدامعتين التى يخرج كلاهما من قلب يملؤه الحب ... وتاق إلى تصديق أن هذا كله حقيقة !!

واستطرد ميتشيك فى أفكاره ...

« ولكن . لماذا يجب أن أفقد الثقة بنفسى ؟ .. » وبدأ يعتقد أن ليس ثمة مايدعو إلى الابتئاس . « يجب أن أجعل من نفسى ندا لهم .. يجب ألا أنهار ... هى على صواب فى ذلك ... الرجال هنا مختلفون ... يجب أن أتكيف وفقا لهم ... وسأفعل ذلك حتما » وهدأت ثائرته .. وهو يستشعر ثقة لم يحسها من قبل أبدا ، وشعر بعرفان الجميل لفاريا ، من أجل كلماتها ، وحبها الحنون ، كما يشعر الطفل نحو أمه . . . « سيتغير كل شىء حينما أعود إلى المدينة ، لن يعرفنى أحد ... سأصبح رجلا آخر » .

وحلقت أفكاره عاليا ، إلى أيام المستقبل المشرقة . . . أيام من الضياء والشفافية . . كأنها سحب وردية رقيقة فوق تألق السهول ، وتخيل نفسه عائدا إلى المدينة مع فاريا فى قطار يركض ، مفتوح النوافذ . وفى البعيد تسبح هذه السحب الوردية الرقيقة فوق السلسلة الجبلية . . وفاريا وهو ملتصقان إلى جوار النافذة ، وهى تهمس فى أذنه كلمات عذبة ، وهو يداعب رأسها ، وضفائرها الذهبية كضوء النهار المتوهج ... ولم تكن فاريا أحلامه تشبه فاريا الحقيقية ذات الكتفين المستديرين ، التى كانت تدفع عربات المنجم رقم ٢ ، إلا قليلا ... فلم تكن كل أفكاره إلا أحلام يقظة .!

وبعد أيام ، جاء خطاب ثان من الفرقة ، وقد أتى به موروزكا . وأحدث مجيئه موجة من الرعب . فقد أقبل من السهول صائحا صارخا ، وهو يهمز حصانه ويهتف هتافا متقطعا ... وقد فعل كل ذلك ، لكى

يتنفس عن فيض طاقته المتدفقة .. و « من أجل المزاح » !!

وقد سأله بيكا بصوته ذى الرنين وهو يرتجف فزعا :

ـــ هل أصبت بالجنون أيها الشيطان؟ .. هنا إنسان يحتضر «وأشار إلى فرولوف» ، وأنت تصرخ ؟

وحياه موروزكا قائلا :

ـــ ها .. أيها الأب سيرافيم .. كيف حبيبتى الصغيرة ذات الخصلات الجميلة ؟

فصاح بيكا غاضبا ، وقد جعلته الأيام الأخيرة شديد الحساسية :

ـــ لست أبا لك .. واسمى فيودور .

وكان منظره مثيرا للرثاء فى نوبات غضبه !

ـــ هذا حسن يافيدوزى .. لا تنفخ شدقك وإلا سقطت خصلات شعرك .. الغزيرة !!

ثم انحنى موروزكا فى إجلال لفاريا ، قائلا « تحياتى المتواضعة إلى عروسى » ثم انتزع قلنسوته ووضعها على رأس بيكا قائلا

ـــ هذا حسن يافيدوزى .. القلنسوة تلائمك كل الملاءمة ولكن شمر سروالك فهو يتدلى ويجعلك شبيها بخيال المآته .. وقد يخطىء الإنسان ولا يعتقد أنك من علية القوم !!

وتساءل «ستاشينيسكى» وهو يفض الظرف « ... هل سنضطر إلى الفرار سريعاً ؟ ... مر على عند الشكنات كى أعطيك الإجابة » ثم أخفى الخطاب بعيدا عن خارشنكو الذى مد عنقه فوق كتف الطبيب مغامرا بحياته .!!

وانتصبت فاريا أمام موروزكا ، وأصابعها تعبث بملابسها وقد شعرت لأول مرة بقلق غريب يجتاحها عند مقابلة زوجها .

ثم سألت فى غير اكتراث :

— لماذا ظللت غائبا طيلة هذه المدة ؟

فأجابها فى صوت ساخر . وهو يستشعر نفورها منه وإن كان لم يفهمه «لقد افتقدتيننى كثيرا ... أليس كذلك ؟... حسنا أمامك الفرصة لكى تعوضى مافات ، حالا ، حينما ندلف سويا إلى الغابة ، ثم أضاف بعد لحظة من الصمت «كى نقاسى سويا !!» فأجابته بخشونة دون أن تنظر إليه ، وهى تفكر فى ميتشيك :

— هذا هو كل ماتفكر فيه .

وانتظر موروزكا إجابتها وهو يعبث بسوطه بعد أن سأل :

— وأنت ؟

— ليس هذا شيئا جديدا على ... إنه لايبدو لى كأننا غريبان

فقال موروزكا بحذر دون أن يتحرك من مكانه

— هل سنذهب الآن ؟

وخلعت ميدعتها ، وأرجعت ضفائرها إلى الوراء ، وتقدمت زوجها إلى الدهليز ، وعليها سيماء اللامبالاة ، مغالبة دافعا قويا يحثها على النظر إلى ميتشيك . وكانت تعلم أنه يتبعها بنظرات كسيرة ، تثير الإشفاق وأنه لن يفهم أبدا ، وحتى فى المستقبل ، أنها تقوم بواجب ثقيل .

وخشيت أن يعانقها موروزكا فجأة من الخلف ، ولكنه لم يقترب منها ، وظلا يسيران طويلا ، متباعدين ، دون أن يقطع أحدهما حبل الصمت . وأخيرا لم تستطع الاستمرار ، فوقفت والتفتت إليه فى دهشة وتوقع . فاقترب منها ولكنه لم يعانقها .

وقال فجأة متلعثما فى خشونة :

— إن سلوكك ليس حميدا أيتها العاهرة .. هل وقعت قريبا فى غرام أحد ؟

فرفعت رأسها ، ونظرت فى عينيه بشجاعة :

ـ وماعلاقتك بذلك ؟

ومورورزكا يعلم أنها تضاجع الرجال فى غيابه ، تماما كما كانت قبل أن يتزوجا . وفى الحقيقة ، لقد كان يعلم ذلك منذ أول يوم فى حياتهما الزوجية ، حينما استيقظ صباحا ، وسط كومة من الأجساد على الأرض ، فوجد زوجته الشرعية الشابة (!!) نائمة فى أحضان (جيراسيم) وهو من حفار الفحم فى المنجم رقم ٤ ، ولكن موقفه فى ذلك الوقت ، كما استمر بعد ذلك ، كان موقفا من عدم الاكتراث الشامل . فهو لم يعرف حياة الأسرة قط ، ولم يشعر أبداً أنه زوج . ولكن ما كان يؤلمه حقا هو أن تتخذ زوجته من رجل مثل ميتشيك عشيقا لها .!!

وسألها مبالغاً فى اصطناع الأدب ، مقابلا نظراتها بابتسامة عابثة ساخرة .

ـ أود أن أعرف ... من هو ؟

ولم يرد أن تعرف مبعث ألمه .

ـ أهو هذا الغلام ... «روح أمه ؟»

ـ وماذا إذا كان هو ؟

ـ هو ... لا بأس به ... لطيف ورقيق ... وستجدين طعمه أحلى من الآخرين ... ولكن لا بد أن تصنعى له بعض المناديل كى يجفف مخاطه السائل . .

ـ إذا كان ذلك ضروريا لن أصنع المناديل فحسب ... بل سأجفف أنفه بنفسى ... أتسمع ذلك ؟

ورفعت وجهها إليه وانفجرت صائحة :

ـ لاتحاول أن ترينى مدى شجاعتك وخشونتك ... فما جدوى خشونتك إذا كنت لم تستطع حتى الآن أن تنجب طفلا ... طيلة ثلاث سنوات ... أنت لاتجيد سوى الصياح ... يالك من بطل !!

ــ كيف أستطيع أنا أن أنجب طفلا ، وقد عجزت الفرقة بكاملها عن إنجابه منك ؟ .. كونى صياحا ... وإلا .. ، فقالت متحدية :

ــ وإلا .. ؟ ربما تريد أن تضربنى ... حسنا حاول أن تفعل .. أود أن أراك .

فرفع سوطه ثم خفضه فى دهشة وكأن الفكرة وحى لم يألفه من قبل .!!

وقال لها فى تردد وأسف ،كأنه مازال يفكر فى مدى صواب ضربها « لن أضربك .. أنت تستحقين ذلك .. ولكنك لن ترينى أبدا أعتدى بالضرب على امرأة » وكانت فى صوته نغمة لم تعرفها قبل ذلك .. وواصل حديثه قائلا « تستطيعين الاستمرار فى حياتك .. ربما تصبحين سيدة أنيقة ذات يوم ..!! » .

ودار على عقبه ، وحث خطاه نحو الثكنات وهو يضرب بسوطه أزهار الغابات .

فصاحت به وقد تملكها إشفاق مفاجىء :

ــ انتظر ... انتظر ... يافانيا

فأجابها قائلا :

ــ لا أريد فضلات السادة ... ولكن مرحبا بهم على فضلاتى !!

ولم تكن قد قر قرارها ، أتلحق به أم تتركه وشانه ، ثم تركته يمضى . وظلت تنتظر حتى اختفى حول أحد المنعطفات فبللت شفتها الجافة وعادت متباطئة خلفه .

وحينما أبصر ميتشيك بوروزكا عائداً بهذه السرعة من الغابة ، (وكان جندى المراسلة يطوح بذراعيه ويمشى بخطوات ثقيلة) ، تحقق من أنه لم يضاجع فاريا ، وأنه ... هو ... « ميتشيك » سبب ذلك .

وأثار ذلك فيه شعور قلق بالغبطة ، وشعور خفى بالإثم ، وكان

خائفاً من أن يقابل نظرات موروزوكا القاتلة .!

وأحدث حصان موروزكا ضجة كبيرة وهو يقضم الحشائش بجوار سرير ميتشيك . وبدا أن جندى المراسلة يسير فى هذا الاتجاه كى يلحق بحصانه ، ولكن عاطفة سوداء عاتية كانت تجذبه إلى ميتشيك . غير أن موروزكا وقد استحوذ عليه الازدراء ، والكبرياء الطاغية أبى أن يعترف بذلك حتى لنفسه ، وكلما اقترب موروزكا من ميتشيك ، شعر الشاب بالإثم . وازداد هذا الشعور عمقاً وتبخرت غبطته ، وحملق فى موروزكا بعينين خجولتين تضيقان ، وهو غير قادر على إبعادهما عنه .

وأمسك جندى المراسلة بعنان جواده ، ولكن الحصان نحى رأسه بعيداً ، دافعاً موروزكا — وكأن الأمر عن عمد — ناحية ميتشيك .

وتداعى الشاب أمام النظرة الممتلئة كراهية ... سوداء ... عنيفة .

وشعر هذه اللحظة القصيرة بأنه ذليل كل المذلة ، خائف أمر الخوف ، واندفعت كلمات مختلطة فجأة إلى شفتيه ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بحرف .

وبصق موروزكا غاضبا ، معبرا عما يجول فى فكره ، متجاهلا ما فى موقف ميتشيك من احتجاج أخرس :

— أنت تتسكع هنا فى المؤخرة .. وفى قميص من الجلد المزخرف ..!

وأحنق جندى المراسلة ، أن ميتشيك قد ينسب غضبه إلى الغيرة ، فهو نفسه ، لا يستطيع أن يسبر أغوار نفسه ليعرف مبعث هذا الغضب ، ولذلك فقد ظل يلفظ سبابا طويلا مبتذلا .

وتساءل ميتشيك مندفعا ، وقد أحس بالارتياح حينما توقف موروزكا عن السباب .

— ماذا يدعوك إلى هذه الشتائم .. إن ساقى جريحتان .. قد تهشمتا .. ولم يحدث ذلك فى المؤخرة .!!

وقد نطق بذلك مرتجفا ، بكل ما فى كبريائه الجريح من انفعال . وقد

اعتقد حقا أن ساقيه مهشمتان !! .. كما أحسن أن موروزكا . هو الذى يرتدى قميصا من الجلد المزخرف .. وليس هو !!

وواصل صياغة انفعاله فى كلمات ، وقد اكتسى وجهه حمرة قانية :

ــ لقد سمعنا كثيرا عن أبطال الصفوف الأولى !! .. وأستطيع أن أقول لك .. رغم أنه يؤسفنى .. وإذا لم أكن مدينا لك . .

وصاح موروزكا وهو يقفز منفعلا ، وقدعقد العزم على ألا ينصت إلى مايقوله ميتشيك أو يحاول أن يفهمه :

ــ هل نسيت كيف التقطتك من النار ؟.. إن إنقاذ أمثالك يسبب لنا الكثير من المتاعب !!

وزاد موروزكا صياحه ارتفاعا ، وكأن لا عمل له طول النهار إلا التقاط الناس من النار وكأنهم القسطل !!

ــ نعم كثيرا من المتاعب .. لقد كدت تطيح برقبتى من شدة ماسببت لى من ألم .

وفى غمرة غضبه صفع قفاه .. بيده !!

وهنا مرق ستاشينسكى وخارشنكو خارجين من الشكنات . وحوّل فرولوف رأسه فى احتجاج واندهاش ..

وتساءل ستاشينسكى ، وعينه تطرف بسرعة مخيفة .

ــ ماسبب صياحك ؟

ولكن موروزكا كان مستغرقا فى تراشق الشباب مع ميتشيك فظل يصيح غاضبا :ــ

ــ أتسأل عن حسن إدراكى أين هو ..؟ هاهو ذا حسن إدراكى .. هنا .. هنا .

وأشار إشارة مبتذلة إلى مكان ما من جسمه !

وجاءت الممرضة ومعها بيكا يجريان من ناحية السهل ، ويصيحان

بالمتشاجرين فى ذات الوقت .

واعتلى موروزكا صهوة جواده فى قفزة واحدة وهو يضربه بالسوط ، وموروزكا لا يضرب حصانه إلا ساعات الغضب الشديد . !

ورفع ميشكا رجليه الخلفيتين وقفز جانبا وكانما صُبّ عليه ماء ساخن ، وصاح ستاشينسكى فى حيرة « انتظر .. يجب أن تاخذ الخطاب معك » ولكن موروزكا لم يعد هناك ! وجاء من أعماق الغابة صوت حوافر تركض فى جنون .. ثم ذابت بعيدا .

الفصل الثامن

أول رحيل

بدا الطريق لموروزكا كشريط مشدود لا نهاية له . وكانت الأغصان الناشزة تضرب وجهه ، ولكنه ظل يحث حصانه ، الذى جن جنونه على الإسراع ، وداخله يتأجج الحنق والتحرق والرغبة فى الإنتقام ، واسترجع ذهنه الذى اشتعلت فيه النار أطرافاً من مشادته مع ميتشيك كلها تتبارى حدة وعنفاً !! . ورغم ذلك فقد اعتقد موروزكا أنه لم يعبر عن احتقاره لهذا النوع من الرجال تعبيراً كافياً .

إنه يستطيع أن يذكر ميتشيك مثلا بأية أيد ترتجف رعباً تشبث هذا الميتشيك به فى حقل الشعير ، وكيف امتلأت عينه ذعراً قاتلا على حياته الحقيرة التافهة . وهو يستطيع أن يجتاحه بسخريته من حبه لهذه الفتاة ذات الضفائر التى ربما مازال محتفظاً بصورتها فى جيبه قريباً من قلبه ، وهو يستطيع أن يطلق على هذه الفتاة النظيفة الجميلة ماشاء من الأوصاف القذرة .!

وهنا تذكر أن ميتشيك يصاحب زوجته ، وأنه لن يأبه كثيراً بما يصيب الفتاة النظيفة من شتائم، وبدلا من أن يشعر موروزكا بما تدفع إليه الكراهية من انتصار على خصم جرحت كرامته ، شعر هو بأنه طعن طعنة لا برء منها !!

أما ميشكا فقد ناء بقسوة سيده ، ولم يواصل عدوه إلا والعنان يشق شفتيه ويدميهما ، وحينما يرخيه سيده يبطىء فى سيره

وعندما لم يعد ميشكا يشعر بأن سيده يستحثه على الإسراع حث خطاه ركضاً ، وكأنه إنسان أوذى أشد الإيذاء ولكنه يبذل غاية جهده كى يحتفظ بكرامته !! ، بل ولم يعد يعبأ بالبعوض وكانت كعادتها تلدغه فى كل مكان ، ورغم ذلك فقد بدت له حمقاء ذات طنين فارغ !

وأفضت السهول إلى أيكة من أشجار التامول ، تظلل جانبيها الأشجار وتتوهج الشمس من بين فروعها ، وتواجه عين موروزكا .

وكانت الأشياء تبدو هادئة شفافة مرحة ، ، ليس ثمة أثر للضجيج الإنسانى ، الذى يشبه طنين الذباب .

وهدأت ثائرة موروزكا ، وفقدت الشتائم التى صبها على رأس ميتشيك أو التى ود لو صبها على رأسه ، طابع الانتقام وحيويته ، وبدت له الآن خابية كلها سخف ، حافلة بالضجيج خاوية من المعنى . بل لقد ساوره شعور بالأسف لمشادته مع ميتشيك ، ولأنه لم يمض فى طريقه دون أن يتعرض له !! . وشعر الآن أن فاريا تعنيه أكثر مما يحب أن يعتقد ، وشعر فى الوقت نفسه ، أنه لن يعود إليها أبداً .

ولقد كانت فاريا أقرب الناس إليه ، وكانت هى الرابطة بينه وبين حياته القديمة فى المنجم حيث عاش « كما يعيش الجميع » وحينما كانت تبدو له جميع الأشياء بسيطة مستقيمة . ولذلك فقد شعر وقد افترق عنها بأن مرحلة طويلة متصلة من الحياة قد انتهت ، بينما حياته الجديدة لم تبدأ بعد . . !!

وصبت الشمس أشعتها داخل عين موروزكا متسللة من طرف قلنسوته ، فهى مازالت معلقة فوق السلسلة الجبلية كأنها عين جامدة لا تطرف . . ولكن الحقول بدت موحشة خالية من الحياة .

ورأى موروزكا سنابل من الشعير مازالت نائمة على الأعواد فى الحقول التى لم يكتمل فيها الحصاد ، كما رأى ميدعة إمرأة قد نسيتها ، ومجرفة غُرست على عجل فى خندق ، وعلى كومة من الشعير ارتفعت فى أحد الأركان حط غراب ... وبدا وحيدا ... كطفل يتيم .

ولم يترك كل ذلك أثراً فى نفس موروزكا ، فقد كان مستغرقا فى إزاحة الغبار المتراكم الذى يغطى الذكريات القديمة ، وقد اكتشف أنها لا بهجة فيها ... بل عبء كئاب بغيض . وشعر بأنه منعزل وحيد . . وأنه يعبر حقلا ضخما مهجوراً يزيد خواؤه الهائل من وحدته .

ولم يستفق إلا حينما اندفع إلى أذنه صوت حوافر جياد منبعثة من وراء التل .

ورفع رأسه إلى أعلى ، فرأى أمامه شبحا منتصبا ضئيلا لحارس من الفرسان وقد التف حزامه حول خصره فى رشاقة ، يمتطى حصاناً واسع العينين ، يتدفق حيوية . ولم يكن هذا اللقاء متوقعا فوقف الحصان على قائمتيه الخلفيتين !.

ولعن الحارس حصانه ، وهو يمسك بقلنسوته المنزلقة على رأسه ثم صاح :

— أأنت يا موروزكا ؟... عد إلى البيت بأسرع ما يمكنك بحق السماء . . . أنا لا أفهم ماذا يحدث هناك !!..

— وماذا يحدث ؟

— لقد مر بعض الفارين ، وقصوا ما يملأ عربة من القصص ... ما يملأ عربة كاملة . لقد قالوا إن من المحتمل أن يصل اليابانيون هنا فى أى وقت ... وجرى الفلاحون من الحقول إلى منازلهم ... وصاحت النساء باكيات .

وقد أخذوا كل عرباتهم إلى النهر ... وهى تكفى لكى تملأ سوقا كاملة ... ياله من منظر ! ... ياله من منظر ! ، لقد كادوا يقتلون حارس النهر ، وأنا على يقين أنه لم يستطع أن يعبر بهم النهر حتى الآن ... لا ... أنا على يقين أنه لم يستطع ، وحام جريشكا حول الموقع على بعد عشرة فراسخ ولا أثر لليابانيين ، ولا أى أثر ... الأمر كله خرافة ... لقد كذب علينا أبناء الحرام ! ! من الواجب إعدامهم من أجل مثل هذه الأشياء ... ولكن الذخيرة خسارة ... من المؤلم إضاعتها من أجل إعدامهم ... نعم الأمر مجرد خسارة للذخيرة .!

وكان الحارس يبصق فى انفعال ، وهو يلوح بسوطه ، وينتزع قلنسوته ثم يعيدها إلى مكانها ، ويهز خصلات شعره فى تثن ورشاقة وكأنه يود أن يقول قبل أى شىء آخر :

ـ انظر أيها الصديق ... إن البنات مجنونات بحبى !!

وتذكر موروزكا أن هذا الزميل قد سرق منه إبريقا وصديرية منذ شهرين ، ثم أقسم بعد ذلك أنهما كانا فى حوزته « منذ الجبهة الألمانية » !! ورغم أنه لم يعد آسفا على ضياع الإبريق فان تذكره لهذا الأمر أعاده مرة ثانية (حتى قبل كلمات الحارس التى لم يعرها اهتماما ، فقد كان مستغرقا فى أفكاره الخاصة) إلى المجرى المألوف لحياة الفرقة :

الرسالة العاجلة ، عودة كانينكوف ، تراجع أوسوكين ، الشائعات التى استسلمت لها الفرقة أخيرا ... واكتسحه ذلك كله فى موجة عاتية من التوجس نضت عنه أدران الأمس السوداء .

وقاطع الحارس قائلا :

ـ فاروّن ... عمن تتحدث ؟

ورفع الحارس حاجبه فى دهشة ، ووقف دون حراك ، وقلنسوته

التى نزعها وكاد يعيدها ، معلقة فى الهواء .!!

فقال موروزكا باحتقار « إن كل ما يعنيك ... أن تتخذ أوضاعا جذابة ... أيها الجحش » وجذب عنان الجواد فى غضب ، وبعد دقائق كان قد وصل إلى النهر .

وكان حارس النهر ، وهو رجل كث الشعر ، يشمر ساقا واحدة من سرواله ، كاشفا عن آثار جرح فى ركبته ، منهكا مكدودا ، فهو يقود القارب المكدس من ضفة إلى ضفة ، وما زال الكثيرون على الضفة ينتظرون .

وما أن وصل القارب إلى الشاطىء ، حتى اندفع إليه سيل من الناس والأكياس والعربات والأطفال الصارخين ومهادهم ، وكل يحاول أن يكون سبّاقا ، وكلهم يتدافعون ويصيحون ويصرخون ويسقطون ، وحارس النهر الذى بح صوته يجاهد فى محاولة عقيمة أن يعيد النظام .

وكان ثمة فلاحة ذات أنف أفطس ، وجدت وقتا كافيا للتحدث إلى الفارين ، لم تستطع أن تحزم أمرها وتسرع إلى المنزل ، فقد فضلت أن تكمل سرد القصة للذين ما زالوا على الضفة ، وبهذا فاتها القارب للمرة الثالثة !.

وألقت إلى الأرض بغرارة ضخمة ، أكبر منها ، وقد امتلأت بأوراق البنجر ، طعام خنازيرها ، ثم بدأت تتمتم صلاتها « يارب ... يارب » وانعطفت لتعيد سرد القصة كى يفوتها القارب المرة الرابعة !.

وحينما وجد موروزكا نفسه داخل هذا الهرج ، أغرته قوة العادة (ومن أجل المزاح !!) بأن يدخل الرعب على قلوبهم ، ولكن شيئا مادفعه إلى التخلى عن هذا الإغراء ، فقفز من حصانه وبدأ يطمئن المزدحمين .

وقاطع المرأة العجوز ، وكانت قد وصلت إلى نشوة محمومة من الانفعال .

ــ كفى عن ثرثرتك الكاذبة ... ليس ثمة يابانيون هناك ... تتحدثين عن الغازات السامة ؟ غازات ... سامة ...!! ياسلام !!... يحرق بعض الكوريين قشا ... والعجوز تتحدث عن الغا .... ز .

ونسى الفلاحون المرأة العجوز والتفوا حوله ، وشعر فجأة أنه أصبح شخصا مسئولا ذا أهمية، وقد أدخل هذا الدور على نفسه السرور ، وسره أنه قاوم الإغراء الذى كان يدفعه إلى « ارعابهم »

وظل يعارض قصص الهاربين ويفندها حتى أدخل الاطمئنان إلى قلوب الحاضرين جميعا ، وحينما أرسى القارب مرة أخرى لم يعد الصخب ثانية ، وأشرف موروزكا بنفسه على نقل العربات ، وأسف الفلاحون لأنهم غادروا حقولهم مبكرين،وصبوا حنقهم على أنفسهم فى لعنات موجهة إلى جيادهم . وحتى المرأة ذات الأنف الأفطس والغرارة ، فقد حشرت نفسها بين عربة من ناحية،ورأسى حصانين وعجيزة فلاح من ناحية أخرى .

وظل موروزكا مستندا على السياج يرقب دوائر الزبد البيضاء وهى تحوم حول القوارب ، ولم تحاول إحداها أن تسبق الأخرى ، وذكره تتابعها المنتظم بأنه قد قام بتنظيم الفلاحين ، وأدخلت هذه الفكرة السرور على نفسه !.

وعلى مقربة من حظيرة الماشيه التقى موروزكا بداورية الاستبدال ، وهم خمسة زملاء من فرقة دوبوف ، حيوه بالضحكات وكلمات المداعبة المبتذلة ، فهم دائما يسرون لرؤيته،وليس لديهم جديد يتبادلون قوله ... لقد كانوا جميعا شبانا فى نضرة من الصحة والفتوة وكان المساء الهابط رطبا منعشا .

وصاح موروزكا فى أعقابهم وهو يتبعهم بعينين يتألق فيهما الحسد « اذهبوا إلى الجحيم » . وتاق إلى أن يكون معهم ، مع ضحكاتهم

وشتائمهم ، وود لو شاركهم الركوب القاسى فى هذا المساء الرطب المنعش ..!

وذكرته مقابلته للرفاق بأنه لم يأخذ معه خطاب ستاشينسكى ، حينما غادر المستشفى ، وأن هذا قد يجلب له المتاعب . وتذكر الاجتماع الذى أوشك أن يقذف به خارج الفرقة ، فغاص قلبه بين ضلوعه . ولم يتحقق موروزكا إلا الآن ، من أن هذا الحدث قد يكون أكثر ما مر به من أحداث خلال هذا الشهر أهمية ، بل ويفوق كثيرا ماحدث فى المستشفى !

فصاح فى حصانه وهو يمسك بمعرفته :

ــ ميشكا ، أيها الغلام العجوز ، لقد ضقت ذرعا بكل ما يحدث هنا ... من هذا الأمر المضنى .

وطوح ميشكا برأسه وأنفه يصدر شخيرا .

وحينما اقترب موروزكا من مقر القيادة ، اتخذ قرارا حاسما بأن « يبصق على كل شىء » وأن يطلب منهم العودة إلى رفاقه فى الفصيلة وإعفاءه من مسئوليات جندى المراسلة .

وعند مدخل مقر القيادة كان باكلانوف يستجوب الهاربين بعد أن نزع سلاحهم ووضعهم تحت الحراسة ، وبدأ باكلانوف يسجل أسماءهم وقد جلس على إحدى درجات السلم .

وتلعثم أحد الرجال وهو يقول « اسمى ايفان فيليمونوف » بصوت ضارع وهو يمد عنقه إلى الأمام قدر استطاعته .

وسأل باكلانوف بلهجة قاسية « ماذا ؟ » وهو يميل بكل جسمه ناحية الرجل مقلدا طريقة ليفينسون . (وكان باكلانوف على يقين من أن ليفينسون يفعل ذلك كى يؤكد الأهمية الاستثنائية لأسئلته بينما كان ليفينسون يضطر إلى ذلك لأنه أصيب بجرح فى عنقه منذ زمن طويل جعله غير قادر على إدارة الرأس) .

— فيليمونوف ؟ وما الاسم الأول لوالدك ؟

وسأل موروزكا :

— وأين ليفينسون ؟

وأومأ أحد الحاضرين إلى الباب ، وهو يرجل شعره بيده قبل أن يدخل إلى الكوخ .

وكان ليفينسون جالساً إلى منضدة فى أحد الأركان ، منهمكا فى العمل فلم يلحظ موروزكا — الذى ظل يعبث بسوطه تعبيراً عن قلقه — . فهو ككل أفراد الفرقة يعتبر القائد رجلا فريدا فى مقدرته ، ولكن تجربته بأكملها فى الحياة ، قد علمته أن ليس هناك فعلا أمثال هؤلاء الرجال ، لذلك فقد حاول أن يقنع نفسه أن ليفينسون وغد من الطراز الاول ، ومخادع خبيث .!! وعلى الرغم من ذلك كله فهو مقتنع تماما بأن القائد ثاقب النظر فى الأمور ، وأن عملية خداعه تكاد تكون مستحيلة ، فحينما يوجه إليه سؤالا يستشعر موروزكا دائما أنه لن ينجح فى تضليل قائده ... ولكنه نطق آخر الأمر :

— أما زالت تقرض الورق كالفأر ... لقد أوصلت خطابك فى سلام .

— أثمة إجابة ؟

— لا .

— حسنا .

ونحى ليفينسون الخريطة ، ثم نهض ..

— ليفينسون ... استمع إلى ... أريد أن أطلب منك شيئا إذا فعلته تصبح صديقى مدى الحياة ... وأقسم لك على ذلك .

فابتسم ليفينسون قائلا :

— صديق مدى الحياة ؟ ... استمر فى الكلام .. ماذا تريد ؟

ـ أعدنى إلى فصيلتى .

ـ إلى فصيلتك ؟ .. لماذا ؟

ـ هذه قصة طويلة . لقد ضقت ذرعا بهـذا العمل ... أؤكد لك ... كأننى لست جنديا على الاطلاق بل ...

ولوح موروزكا بيده مغمغما ، وهو يخشى أن يبدأ فى السباب ويفسد الأمر كله .

ـ ومن يقوم بعمل جندى المراسلة .

فأجاب موروزكا متلهفا :

ـ « بيفيمكا » يستطيع أن يقوم بذلك ... إنه فارس بارع لقد نال عدة جوائز فى الجيش القديم لبراعته فى الركوب .

وأعاد ليفينسون قوله « صديق مدى الحياة » فى لهجة تدفع المرء إلى الاعتقـاد بأن هذه الصداقة التى ستمتد مدى الحياة لهـا الاعتبار الأول .!

فانفجر موروزكا غاضبا ..

ـ كف عن العبث بى ، أيها الطاعون الشيطانى ... أنا أتحدث عن العمل ... وأنت تسخر ...

ـ والآن ... لا تفقد أعصابك ... هذا ضار بك ... قل لدوبوف أن يرسل بيفيمكا ... أما أنت فستطيع الانصراف .

فصاح موروزكا وقد طغى عليه السرور :

ـ أنت صديق حقيقى ... لقد قدمت إلىّ خدمة جليلة .

وانتزع قلنسوته وقذف بها على الأرض :

ـ هذا قائد فعلا ... ما أروعك يا ليفينسون !!

والتقط ليفينسون القلنسوة قائلا : أبله !!

وكان الليل قد حل حينما وصل موروزكا إلى فصيلته وكان فى الكوخ

ما يقرب من اثنى عشر رجلا حينما دخله :

أما دوبوف فقد انتحى جانبا وجلس إلى منضدة صغيرة يفك مسدسا إلى أجزائه على ضوء المصباح .. وحينما أبصر موروزكا ، صاح به « آه .. يا ابن الشيطان » ، ثم سأله حينما أبصر فى يده حزمة كبيرة :

ـ ماذا تفعل هنا ومعك كل أشيائك ؟ ... أخفضت رتبتك فعدت إلى الصف أم ماذا ؟

ـ انتهى الأمر ... لقد تقاعدت وعلى عجيزتى ريشة ... وأنا حر كالطائر ودون معاش أيضا !!. اشحنوا ييفيمكا إلى هناك شحنا ... هذه أوامر القائد .

فقال ييفيمكا ساخرا ، وهو رجل عبوس سريع الغضب

ـ أتعتقد أنه يجب أن أشكرك على ذلك ؟

ـ اذهب ... اذهب دون أسئلة ... وعلى وجه الإجمال تهانينا يا ييفيمكا سيميونوفيتش ... أنت مدين لنا بأن نشرب على حسابك من أجل ذلك !!

وفى غمره اغتباطه بعودته وسط رفاقه ، انطلق موروزكا ضاحكا ، معابثا ، وقرص ربة المنزل ، ورقص حول الكوخ حتى اصطدم فى النهاية بقائد الفصيلة وقلب وعاء الزيت .

فزأر دوبوف فى غضبته لاعنا ، وضربة على ظهره بقوة أحس معها موروزكا أن رأسه قد انفصلت عن جسمه ، ورغم إيجاع الضربة إلا أن موروزكا لم يستشعر غضاضة بل لقد استمتع بخشونة دوبوف وعادته فى استخدام كلمات وتعبيرات لا يستطيع أحد فهمها ، فموروزكا يعتبر كل ما يحدث هنا لائقا طبيعيا .

ـ نعم ... آن الأوان ... الوقت مناسب تماما .. شىء حسن

أنك عدت ... لقد دبت فيك العفونة هناك وأصبحت صدئا كمسمار عتيق لا فائدة منه ... لقد جلبت العار لنا جميعا .

ووافق الجميع على كلام دوبوف ، فعودة موروزكا شيء جميل ولكن أسبابهم كانت تختلف عما يرمى إليه ، فهم يحبون فى موروزكا الخصال التى يبغضها دوبوف .

وحاول موروزكا أن يبعد عن ذهنه ذكرى زيارته للمستشفى .

لقد كان شديد الخشية من أن يسأله أحد « كيف حال زوجتك ؟ »

وبعد حين ... ذهب مع بعض الرفاق إلى النهر كى تشرب الخيل ، ونعب البوم بين الأشجار نعيبا خافتا لا ينذر بالشر . وانحنت رءوس الخيل ترقب الماء وقد كادت تختفى فى الضباب السابح فوق النهر ، وبدت الشجيرات القائمة حول ضفة النهر ضئيلة وهى ترشف من الندى رحيقا رطبا .

فهمس موروزكا لنفسه وهو يصفر لجواده فى حنان « هذه هى الحياة !! »

وحينما عادوا إلى الكوخ بدءوا فى إصلاح السروج وتنظيف البنادق ، وقرأ دوبوف بصوت عال ما وصل إليه من خطابات أرسلت من المنجم ثم عين موروزكا حارسا ليليا « احتفالا بعودته إلى البيت » .

وشعر موروزكا طيلة الليل انه جندى كفء ، ورجل عظيم الجدوى !!

ولكن ... دوبوف أيقظته اثناء الليل لكزة عنيفة فى ضلوعه .

فنهض فى فراشه منزعجا متسائلا ، وما كاد يتمكن من فتح عينيه النائمتين ، ويحدق فى المصباح ذى الضوء الكابى ، حتى سمع أو بتعبير أدق ، استشعر طلقة بعيدة تتلوها طلقات .

ووقف موروزكا إلى سريره صارخا : « انهض سريعا ، هناك إطلاق للنار عبر النهر . »

ودوت عدة طلقات ، واحدة إثر واحدة ، وبينها فترات متساوية!! وأصدر دوبوف أوامره :

— أيقظ الرفاق ... اجر كانريح إلى كل كوخ ... هلمّ سريعا .

وبعد ثوان إندفع إلى الردهة مرتديا ملابسه ، مسلحا .

وكان النور قد بدأ يضيء السماء الباردة الساكنة .

وتسابقت النجوم مذعورة فى طريق المجرة المتشح بالضباب ، الذى لم تطرقه من قبل النجوم .

واندفعت أشباح الجنود مشعثة من مدخل مخزن الدريس واحدا بعد الآخر ، يطلقون السباب وهم يحكمون إغلاق أحزمة الذخيرة ، ويقودون خيلهم إلى الخارج ، وتسربت الدجاجات من أقفاصها صائحة مرتاعة . أما الجياد فتعالى صهيلها منتحبا .

وصدرت أوامر دوبوف :

— اخرجوا ... اعتلوا جيادكم ... يا ديمترى سيميون أيقظ الرجال فى الأكواخ ...

وارتفع صاروخ فى الميدان الذى يواجه مقر القيادة ، وانبعث أزيزه يحيط به الدخان مالئا السماء ، وأطلت فلاحة عجوز ما زالت وسنى .

وصاح صوت مرتجف يشيع فيه القلق : « ضموا الصفوف »

وأقبل ليفيمكا مندفعا ، حثيث السير من مقر القيادة وهو يصيح واقفا بالباب « هلموا .. اصطفوا عند مركز التجمع .. كاملى العدة للمعركة » وكان رأس حصانه وقد كشر عن أنيابه يحلق فوق أعلى جذع من جذوع الباب ، وصاح ليفيمكا بشيء آخر لم يستطع أحد أن يفهمه ثم اختفى .

وحينما عاد الرجال الذين ذهبوا لإيقاظ بقية الفرقة ، اتضح أن مايربو على نصف الفرقة من الجنود لم يقضوا الليل فى معسكراتهم . فقد ذهبوا إلى المنتديات الليلية . ثم مضوا إلى مضاجعة الفتيات .

ولم يعرف دوبوف وقد تملكه الانزعاج أينطلق بالباقين من رجاله أم يذهب إلى مقر القيادة منفرداً ليطلع على جلية الأمر ، وأرسل رجالا راكبين فى جميع الأنحاء ليلتقطوا الرجال واحدا واحدا وهو يلعن الله والمجمع المقدس ، وتكرر صدور الأوامر إلى جنود المراسلة أن يعودوا ومعهم بقية الفرقة ، ولكن الرجال الغائبين مازالت أماكنهم شاغرة . وفى غمرة يأسه وهو يذرع الردهة ،كوحش فى شراك ، أوشك أن يطلق على نفسه الرصاص، وكان من الممكن أن يفعل ذلك لولا وعيه بمسئوليته الخطيرة طول الوقت . وصاحب سوء الطالع كثيراً من رجاله فهوت على وجوههم قبضته التى لا ترحم .!

وفى النهاية انتزعت الفرقة أقدامها فى الطريق إلى مقر القيادة يتبعها نباح الكلاب، وهى تملأ الشوارع المذعورة بوقع حوافر الجياد وقعقعة السلاح .

وكاد دوبوف يصعق حينما رأى جميع الفصائل فى الميدان وقد امتد إفريز من الأمتعة محاذيا الطريق الرئيسى ، وترجل كثير من الرجال ثم جلسوا إلى جوار خيلهم يدخنون . وبحثت عينا دوبوف عن هيكل ليفيذسون الضئيل ، وقد جلس على مقربة من كومة من الجذوع تضيئها المشاعل ، ويتبادل حديثا هادئا مع ميتيليتسا

وانقض باكلانوف على دوبوف صائحا : —

— لماذا جئت متأخراً كل هذا التأخير .. ورغم ذلك فأنت لا تنكف عن بدء مفاخراتك الزائفة بقولك : نحن رجال المناجم !! .

وكان من الواضح أن الغضب قد أفقد باكلانوف زمام نفسه وإلا

لا جرؤ على توجيه مثل هذا القول إلى دوبوف .

ولم يستطع دوبوف إلا أن يحنى رأسه . وكان أشد مايحز فى نفسه هو أن هذا الشاب باكلانوف أصبح الآن من حقه أن يسبه كما يشتهى، وأن جميع السباب لا يمكن أن يكون قصاصاً عادلا من هذا الإثم العظيم.!!

وبالإضافة إلى ذلك فقد مس باكلانوف وتراً حساساً ، فدوبوف يعتقد فى قرارة نفسه أن اسم « رجل المنجم » هو أسمى لقب وأنبله ، وأنه قصارى مايطمح إليه أى رجل على ظهر الأرض ، ودوبوف قد استيقن أن فرقته قد جلبت العار لا على نفسها فحسب بل على كل مناجم الفحم ، وكل آكلى الفحم حتى الجيل السابع على الأقل.!!

وبعد أن فرغ باكلانوف من صب اللعنات على رأس دوبوف وفق هواه ، انطلق كى يعيد الدوريات إلى مكانها . وعلم دوبوف من رجاله الخمس أن ليس ثمة عدواً على الجانب الآخر من النهر ، وأن تمثيلية إطلاق الرصاص بدأت بأمر من ليفينسون . وتحقق من أن ليفينسون أراد أن يختبر مدى تأهب فرقته ، وشعر بالغضب فهو لم يكن عندحسن ظن قائده ، كما أنه أخفق فى أن يكون قدوة للآخرين .

وحينما اصطفت الفرقة .ونوديت قائمةالحضور والغياب، اكتُشف أن عدداً كبيراً من الرجال لم يحضر ، وكانت كثرة الغائبين من فرقة كوبراك .

وكان كوبراك قد ذهب أثناء النهار كى يودع أقاربه ، ولكنه لم يستفق بعد من سكره ، وظل يوجه الحديث إلى فرقته ، ويستطرد فى الحديث متسائلا :

— أمن الممكن أن تحترموا ... وغدا ... خنزيرا مثلى ؟

وهو يبكى ولا يكف عن البكاء ، حتى علمت الفرقة كلها أن الخمر قد أفقدته الوعى . أما ليفينسون ، وليفينسون وحده ، فقد تظاهر أنه

لم ير شيئا ، وإلا فسيصبح مضطرا إلى طرد كوبراك من منصبه ، وليس ثمة من يستطيع أن يحل محله .

ومر ليفينسون بحصانه أمام الصفوف ، حتى وصل إلى منتصفوا ، ثم رفع يده فى إشارة حازمة تنبىء عن رباطة جأش ، وعم الصمت حتى أصبح من الممكن سماع ما فى الليل من أصوات غامضة .!!

وبدأ ليفينسون خطابه فى صوت خافت ولكنه واضح الكلمات ، صوت وثيق الصلة بالجنود كأنه نبضات قلوبهم :

ــ أيها الرفاق . . . سنرتحل بعيدا . . . ولكن أين ؟ ... ليس هناك ضرورة للإجابة الآن على هذا السؤال ... فالقوات اليابانية رغم أن لاداعى للمبالغة فى ضخامتها من المنعة بحيث تدفعنا إلى أن نرى الحكمة فى الاختباء بعض الوقت . وليس معنى ذلك أننا سنتفادى الخطر تماما . . . لا . . . ليس هذا صحيحا . . . فنحن دائما على شفا الخطر ، وكل جندى يعلم ذلك جيدا ... فهل نحن مخلصون لقضيتنا ... قضية جنود الانصار ؟.. نحن لم نثبت ذلك اليوم . . . فليس لدينا من النظام إلا مقدار ما عند حزمه من فتيات المدارس ... ماذا كان يحدث لو هاجمنا اليابانيون فعلا ؟... كانوا سيقطعون رقابنا دون مقاومة ... ياللعار !!.

وانحنى ليفينسون بغتة إلى الأمام ، وانطلقت من فمه كلمة «يا للعار» كسهم صائب ، فأحس كل جندى أن أصابع من الفولاذ تعتصر رقبته .!!

وحتى كوبراك الذى لم يفهم كلمة واحدة مما قيل صاح فى اقتناع عميق .

ــ هذا صحيح .... كل كلمة فيه صحيحة ..

وهز رأسه الكبير وسعل بصوت مدو .

وتوقع دوبوف كلما مرت دقيقة أن يقول ليفينسون :

« هاكم دوبوف على سبيل المثال ... لقد كان يشمخ بأنفه بعد كل احتفال ... وكنت اعتمد عليه وأوثره على الآخرين ... ياللعار !! »

ولكن ليفينسون لم يذكر اسم أحد ، لقد تكلم قليلا جدا فى واقع الأمر ، ولكنه تعمد إبراز أمرا واحدا ، مؤكدا إبرازه ، وكأنه يدق مسمارا سيظل فى مكانه أبد الدهر !! ولم ينظر ليفينسون ناحية دوبوف إلا بعد أن اطمأن على توضيح فكرته ، ثم قال :

« ستذهب فرقة دوبوف مع ركب الأمتعة ... كى تستريح قليلا ... فهى شديده السرعة فى اللحاق »

ثم انتصب على سرجه ، ولوح بسوطه صائحا :

ـ انتباه ..!! ... إلى الأمام ... ثلاثات ... سر !!

وصلصلت الأعنة ، وأصدرت السروج صريرا عاليا !

وبدت الصوف الكثيفة من المحاربين تتموج فى الظلام ، كسمكة هائلة فى مستنقع راكد ، طافية نحو قمم سيخوتى آلين ، تاركين وراءهم فى الوادى العجوز ذى الشباب المتجدد ... الفجر وهو وشيك البزوغ .

الفصل التاسع

ميتشيك فى الفرقـــة

علم ستاشينسكى برحيل الفرقة من مساعد أمين المخزن الذى أقبل إلى المستشفى كى يطمئن على المؤن .

وقال مساعد أمين المخزن ، وهو يدير ظهره الأحدب الذى اكتسى ثوبا ناصل اللون ناحية الشمس :

ــ ما أبرع دهاء ليفينسون !!.. لو لم يكن موجودا لأُبِدنا جميعا .. أنظر .. لا أحد يعرف الطريق إلى المستشفى لذلك إذا تعقبنا اليابانيون فان الفرقه تستطيع اللجوء هنا هاربة منهم ... ولدينا ما يكفينا من مؤن ... أليس ذكيا ؟

ومال برأسه إلى اليمين واليسار فى إعجاب .

ولكن ستاشينسكى استطاع أن يدرك ، أنه لايمتدح ليفينسون من أجل ذكائه فحسب ، بل لأن الأحدب يسره أن ينسب إلى بعض الناس ما يفتقر إليه هو من صفات .

وفى هذا اليوم استطاع ميتشيك أن يقف على قدميه أول مرة ، ومشى فى المروج مستندا إلى عكاز . وقد طغت عليه الفرحة ، وشملته الدهشة وهو يحس بازدهار الربيع تحت أقدامه ، فمضى يضحك دون أن يكون هناك ما يضحك .!!

وحينما استلقى بعد ذلك على فراشه ، تسمّع نبضات قلبه وهى تسرع إما من التعب وإما من إحساسه بالنضارة تحت أقدامه ، وكان الإعياء مازال يرسل الرعشة إلى ساقيه ولكن السعادة كانت تعصف بكيانه كله.

وقد نظر فرونوف إلى ميتشيك أثناء سيره بعين يملؤها الحسد ، ولم يستطع ميتشيك أن يخنق شعورا غامضا ، من الاحساس بالإثم فى حضرة فرولوف ، وكانت فترة مرض فرولوف قد طالت حتى استنفدت عطف الآخرين عليه ، وكان يسمع فى غضون اهتمامهم المتصل به ، سؤالا لم تنطقه أفواههم .. « متى ستموت ؟ » ولكنه لم يكن راغبا فى الموت ، ووقع تشبثه العقيم ، الواضح العقم ، بالحياة على الجميع ،كحجر المقبرة.

ولنعد إلى ميتشيك ، فقد ظلت علاقته الغريبة بفاريا حتى آخر أيام مكثه فى المستشفى ، وكانت هذه العلاقة تشبه المباراة فكل منهما يعلم ماذا تريد المرأة ، وماذا يخشى الرجل ، ولكن كلا منهما لامقدرة له على أن يتخذ موقفاً جسورا حاسماً .

فان فاريا التى عرفت فى حياتها الغليظة القاسية عددا هائلا من الرجال يستحيل عليها أن تميزهم بألوان عيونهم أو شعرهم أو حتى بأسمائهم ، لم تستطع أن تقول لأى منهم .. « ياحبيبى ... ياروحى» !! وكان ميتشيك أول رجل تشعر برغبتها فى مناجاته بهذه الكلمات ، ولقد همست له بها فعلا . وقد بدا لها أنه وحده ، بوسامته وتواضعه ورقته ، يستطيع أن يطفىء توقد شوقها إلى الأمومة ، واستيقنت أن هذا مبعث ولهها به وكانت لهفتها الخرساء تدفعها إلى زيارته ليلا ، وإلى البحث عنه نهارا فى اشتياق مستعر ، محاولة أن تنفرد به كى تمنحه حبها الدفين ، ولكنها لم تستطع أبدا ، لسبب أو آخر ، أن تفصح له عن حبها .

وعلى الرغم من أن ميتشيك يشتهى ما تشتهيه هى ، بكل مافى صباه الذى لم يكتمل نضجه بعد من حماس وخيال ، فقد فعل كل ما يستطيع.

ليتجنب الانفراد بها . فتارة يجرجر بيكا وراءه وتارة يتمارض . وكان خجولا هيابا ، فهو لم يعرف امرأة قبل الآن ، وظن أنه لن ينجح فى ممارسة الحب كما ينجح الآخرون ، بل سيخفق فى مضاجعتها أو يتعثر . !!

وحينما يتغلب على خجله ، تحول بينه وبينها ذكرى موروزكا ، وهو يهرول قادما من الوادى ، غضوبا ، يضرب الهواء بسوطه . ويستحوذ على ميتشيك مزيج من الرعب والشعور بأنه لن يستطيع إيفاء دينه إلى هذا الرجل .

وفى غمرة هذا التمزق نحل عوده . وبدا أطول قامة ، ولكنه لم يستطع حتى آخر لحظة أن يقهر ضعفه ... فغادر المستشفى فى صحبة بيكا وودعا الآخرين دون أسى ، كأنهما يفترقان عن قوم لم تكد تتوثق بهم الصلات .

وأسرعت فاريا نحوهما ، ولحقت بهما عند بدء الطريق وقد توهج وجهها ، فهى قد أقبلت تجرى ، وهى فوق ذلك نهبا للحيرة .

« لنقل وداعا ... على الأقل بطريقة لائقة .. لقد كنت خجلى ... ولم يحدث ن ذلك من قبل ... ولكننى خجلى حقيقة هذه المرة »

ودست فى يده ، وعليها طابع من يستشعر الاثم . كيسا منقوشا من الطباق ، كما تفعل عادة كل « الفتيات » فى المناجم عند وداع الأحباب .

ولم تكن هديتها ، ولم تكن حيرتها ، أشياء مألوفة منها ، فشعر ميتشيك بالاشفاق . ولكنه لم يزد على أن مست شفته خدها مسا رقيقا تحرجا من بيكا ، أما هى فنظرت إليه مودعة وقد غامت عيناها ، وارتجفت منها الشفاة .

وصاحت خلفهما ، وقد اختفيا خلف الأشجار :

ــ تعال لترانى . .

ولما لم تسمع إجابة ، سقطت على الأرض منتحبة ..

ومضى ميتشيك فى طريقه . . . وهو ينفض عنه كل الذكريات

السيئة ، واتخذ بينه وبين نفسه قرارا بأنه جندى حقيقى من جنود الأنصار ، بل وشمر عن ساعديه متلهفا إلى أن تكسب الشمس لونه سمرة ، وخيل إليه أن هذه السمرة فائقة الأهمية فى الحياة الجديدة التى يدلف اليها بعد هذه المحادثة التاريخية مع الممرضة .

وكان الطريق ىتلئا بالمخاطر .

فمدخل « إروخدزا » تحتله الكتائب اليابانية مع جنود كولتشاك ، وكان بيكا خائفا متوترا ، تتعالى شكاته طيلة الطريق من أوجاع وهمية . وحينما أخفق ميتشيك فى إقناعه بأن يدورا حول القرية عبر الوادى ، لم يبق أمامهما إلا تسلق الجبال مخترقين ممرات غير مألوفة .

وفى الليلة الثانية هبطا صخورا ذات نتوء إلى النهر وقد كادا يدقان عنقهما ، ولم تكن ساقا ميتشيك قد استكملتا البرء !! ، ووجدهما الصباح فى مزرعة كورية ، فالتهما « الشومىزا » فى شراهة ، دون ملح .

وعندما يطيل ميتشيك النظر فى بيكا ، وقد تشعث شعره ، وبدا منظره مثيرا للاشفاق ، يعجز ميتشيك عن استرجاع تلك الصورة الزاهية ، لرجل هادىء تقدمت به السن ... ومع ذلك ظل محتفظا بنضارته ، يجلس على ضفة بحيرة وادعة الموج ، يحتضنها سياج من نبات البردى !! فمظهر بيكا وقد سحقه الوهن يؤكد أن ما فى الصورة من سلام وادع ، زائف لا استقرار فيه ، فهو لم ينطو على راحة أو خلاص .

وفى خاتمة المطاف ، شقوا طريقهم عبر مزارع متناثرة حيث لم يسمع أحد عن اليابانيين ، وحينما سألا الفلاحين عن الطريق الذى مرت به الفرقة ، أشاروا ناحية النهر ، وسألوهما بدورهم عن الأخبار . وقدم لهما الفلاحون شراب « الكفاس » المستقطر من عسل النحل ، وظلت الفتيات ترنون معجبات بميتشيك !!

أما النساء فكان أمامهن عمل شاق ، فقد تكدست سنابل القمح

المثقلة بالحبوب ، وسدت الطريق .

وجاء الصباح وتألق الندى فى خيوط العنكبوت ، وأفعم طنين النحل نسائم الخريف .

ولم يصلا إلى شيبيشى إلا عندما حل المساء ، وكانت القرية الصغيرة مستلقية ، يغمرها شفق المغيب ، عند أقدام جبل نمت على سفحه الغابات . وكان ثمة مجموعة مرحة من الرفاق ترتفع أصواتهم ، وتستقر ورود حمراء من النسيج على قلنسواتهم ، يلعبون ألعابا روسية على مقربة من معبد متداع ، نمت عليه الطحالب .

وكان ثمة أيضاً رجل قصير القامة ، يلبس حذاء ضخما ، ذو لحية حمراء مدببة جعلته يبدو قزما خرافيا خرج لتوه من أحد كتب أساطير الأطفال ، وقد ألقى كل رمياته بعيدا عن الأهداف بعدا مخجلا ! وضحك منه الجميع ، وعبس الرجل مذعنا للهزيمة ، ولكن الجميع كانوا يعرفون أنه لم يفقد اهتمامه باللعب وأنه كان يستمتع استمتاعا لا يقل عن الآخرين .

وقال بيكا :

ـــ هذا هو ليفينسون .

ـــ أين ؟

ـــ هذا الرجل ذو الشعر الأحمر .

وحث بيكا السير متجها نحو الرجل القصير فى سرعة تثير الدهشة ، تاركا ميتشيك واقفا مكانه لا يريم .

ـــ انظروا يا أولاد ... هاكم بيكا

ـــ نعم ... إنه هو ... إنه هو !!

ـــ لقد نجح فى الزحف خلفنا .. هذا الشيطان الأقرع !

ونسوا لعبهم والتفوا حول الرجل العجوز ، وظل ميتشيك واقفا على

مبعدة منهم ، حائرا أيتقدم أم ينتظر حتى يدعى .

وسأل ليفينسون آخر الأمر .

ـــ من هذا الذى جاء معك ؟

ـــ زميل من المستشفى ... من معدن جيد .

وأضاف أحدهم وقد عرف ميتشيك

ـــ إنه الغلام الجريح ... الذى أنقذه موروزكا .

هذا هو الرجل العجوز الذى لايجيد اللعب ، إن له عينين واسعتين يقظتين كأنهما تحتويان ميتشيك ، وتقلبانه ظهرا لبطن ، وتظلان ممسكتين به بعض الوقت كأنهما تزنان كل ما فيه .

وبدأ ميتشيك يتكلم وقد تخضب وجهه ، فهو لم يتذكر أن يعيد كمى قميصه إلى مكانهما ..!

ـــ لقد جئت كى أنضم إلى فرقتكم ، وقد ظللت مع شالديبا حتى جرحت .

وشعر بأنه أضاف أهمية إلى كلامه .

ـــ وكم مكثت مع شالديبا ؟

ـــ على وجه التقريب ... منذ شهر يونية ... ابتداء من منتصف ...

وألقى ليفينسون نظرة حادة متفحصة إلى محدثه .

ـــ أتعرف الرماية ؟

فأجاب ميتشيك فى غير ثقة ... نعم .

ـــ يفيمكا ... هات بندقية ..

وشعر ميتشيك بعشرات من العيون المتطلعة تحدق فيه وكأنها تحاول أن تسبر غوره ... بينما اختفى يفيمكا لكى يحضر البندقية وبدأ

ميتشيك يشعر أن هذا التحديق الصامت ينطوى على العداء ودارت عينا ليفينسون حول المكان !

— حسنا ... أمسك بها ... ماذا ستجعل هدفا لك ؟

واقترح أحد الحاضرين فى مرح : الصليب ..!!

— لا ... من الأفضل لا ... ضع هذا على العامود الذى عندك .

وأمسك ميتشيك بالبندقية ، وأوشك أن يغمض عينيه وقد حل به أسى مفاجىء ، لا لأن عليه أن يصيب الهدف ، بل لأنه اعتقد أن الجميع يودون لو أخطأ المرمى .

ونصحه احدهم قائلا :

— قرب يدك اليسرى قليلا ... يصبح الأمر أكثر سهولة .

وقد ساعدت هذه الكلمات ، التى بدا فيها العطف الواضح ، ميتشيك كثيرا ، وتشجع ، ضغط على الزناد ، وحينما انطلقت البندقية لم تستطع عينه إلا أن تطرف ، ورغم ذلك فقد استطاع أن يرى الهدف يسقط على الأرض !

وضحك ليفينسون قائلا : أنت تعرف كيف تطلق النار ... هل سبق لك أن امتطيت حصانا ؟

فأجاب ميتشك بالنفى ، وقد هيأه نجاحه لكى يحمل فوق ظهره أوزار الجنس البشرى كله .

فأجاب ليفينسون : هذا سىء جدا ، وكان من الواضح أنه يعتقد فعلا أن هذا الأمر سىء جدا . وأغمض عينيه قليلا وهو يقول « باكلانوف ... اعطه زيو شيخا ... ولكن اعتن بها ... إنها فرس وديعة ، وسيعلمك قائد فصيلتك كيف تسوسها ... فى أى فصيلة نضعه ؟

فقال باكلانوف :

— أعتقد أنه من المستحن وضعه فى فصيلة كوبراك ... ومعه

بيكا ، فلديه نقص فى الرجال .

ووافق ليفينسون قائلا : « لم لا ... انصراف ! »

وقد كانت نظرة واحدة إلى «زيو شيخا» كافية لأن تحمل ميتشيك ينسى انتصاره الجديد ، وما أثاره فيه من أمنيات ، يشيع فيها غرور صبيانى ! ، فقد كانت فرسا رمداء عصبية ، ذات لون أبيض فى اغبرار ، مقوسة الظهر ، منتفخة البطن ، فرسا من أفراس الفلاحين الهزيلة ، كم حرثت من أفدنة فى حياتها ! ! وفوق ذلك فقد كانت حاملا ، وكان اسمها الغريب يناسبها كما تناسب بركات الرب عجوزا شمطاء ثرثارة .!!

وتساءل ميتشيك فى صوت خافت :

— أهذه لى ؟

فأجابه كوبراك وهو يضرب بيده مؤخر الفرس :

— إنها ليست جميلة عندما تنظر إليها ... وحوافرها ضعيفة ، وقد يكون ذلك ناتجا عن حياة ناعمة أو عن صحة متداعية . ولكن رغم ذلك كله تستطيع أن تركبها .

فسأله ميتشيك ، وقد امتلأ غضبا عقيما من زيو شيخا ، ومن فكرة امتطائها : « أليس لديكم حصان آخر ؟ »

ولم يشغل كوبراك نفسه بمحاولة الإجابة ، بل بدأ يلقن ميتشيك فى صوت رتيب ممل ، مايجب أن يفعله فى الصباح وفى وقت الغداء وفى المساء مع هذه الفرس المتداعية كى يحميها من آلاف الأمراض والأخطار التى تتهددها !!

— حينما تعود من ركوب طويل ، لاتنزع السرج فور مجيئك ، بل دع الفرس تستريح ... وتبرد حرارتها ... وبمجرد أن تنزع السرج ، جفف ظهرها بيديك أو بالدريس ، وقبل أن تضع السرج مرة ثانية ،

يجب أن تجفف الظهر أيضا .

وتقلصت شفتا ميتشيك ، وحلقت نظراته فوق راس الحصان دون اهتمام ، وشعر أنه قد أُعطى هذه الفرس العجفاء ذات الحوافر المنفرة من أجل غرض واحد هو إذلاله منذ البداية . فقد تعود فى الأيام الأخيرة على تحليل كل خطوة يخطوها من زواية الحياة الجديدة التى عقد العزم على المضى فيها ، وبدا له الآن أنه من المستحيل أن يتقدم فى هذه الحياة الجديدة ممتطيا صهوة هذه الفرس البغيضة ، فلن يتمكن أحد من أن يلحظ أنه غدا رجلا آخر ، قويا ، واثقا من نفسه ، وسيستمر الجميع فى الاعتقاد أنه لم يزل ميتشيك القديم الذى لا يُستطاع أن يُعهد إليه بحصان متين البنيان !

وواصل قائد الفصيلة كلامه ، بطريقة غير مقنعة ، ودون أن يعبأ ، سواء بضيق ميتشيك أو بمدى ما يلقاه كلامه من اهتمام :

ـ هذه الفرس ، بالاضافة إلى نقائصها الأخرى ... جرباء .

... والواجب يقتضى أن تعالج بمركبات الكبريت ... ولكن ليس لدينا منها شيء .. لذلك فنحن نعالج أمثال هذه الحالات بما يقذفه الدجاج من أمعائه .. إنهعلاج شاف ، ، ليس عليك إلا أن تضع بعضا منه فى خرقة ثم تربطه حول حديدة اللجام قبل أن تضع اللجام نفسه ... إنه دواء يصنع المعجزات ! !

ولم يصغ ميتشيك إلى قائده ، واسترسل فى التفكير :

ـ من أنا ؟.. طفل صغير ؟... لا سأذهب إلى ليفينسون وأخبره بأنى أرفض ركوب هذا الحصان ... لست مضطراً إلى أن أقاسى من أجل الآخرين .

وسره الاعتقاد أنه ضحية من أجل الآخرين .. « لا .. سأقول له بصراحة ووضوح .. أنك لن تستطيع معاملتى بهذه الطريقة ! ! »

ولم يندم على رفضه الإنصات إلى التعليمات ، إلا بعد أن فرغ القائد من كلامه ، وإلا بعد أن تسلم الفرس . وأحنت زيو شيخا رأسها ، وقلصت شفتيها الشاحبتين فتحقق ميتشيك من أن حياة الفرس بكاملها بين يديه ، ولكنه لم يعرف ماذا يصنع بتلك الحياة ، بل هو لا يعرف كيف يعقل هـذه الفرس الذلول . فقد هامت على وجهها فى ظلام الاصطبلات وهى تدس رأسها فى نصيب الجياد الأخرى من الدريس فتثير غضبهم كما تثير غضب الحراس !

وصاح رجل فى الاصطبل ، ودوى صوت غضوب من سوط

— أين بحق الجحيم هذا الرفيق الجديد ؟ لماذا لم يضع القيد فى رجل فرسه ؟ ... انصرفى أيتها العاهرة اللعينة .. من الحارس الآن ؟ اسحبها بعيدا ... وقل لها تذهب إلى ...

فتصبب ميتشيك عرقاً فى هرولته واضطرابه ، وهو يلعن نفسه ، ويندفع مخترقاً شجيرات شائكة ، ماراً بشوارع مظلمة نائمة . محاولا أن يصل إلى مقر القيادة .

وكاد فى طريقه يتوغل داخل منتدى ليلى من الشبان ، حيث كان «أكورديون» مبحوح الصوت يعزف «ترانيم ساراتوف» ، كما توهجت السجائر فى الظلام ، وقعقعت المهاميز والسيوف ، وصاحت الفتيات مبتهجات ، وترنح المكان كله فى رقص مجنون .

ولم يجرؤ ميتشيك على السؤال ، ومر بهم سريعا ، وكان من الممكن أن يتجول فى الشوارع طول الليل ، لو لم يبرز له شبح منفرد من أحد الأركان .

وسأل ميتشيك مقتربا منه : أيها الرفيق .. كيف أصل إلى مقر القيادة ؟ وعرف متيشيك فى هـذا الرفيق . . . موروزكا !! فقال فى اضطراب كبير «هالو» .

وتوقف موروزكا مندهشا ، محدثا أصواتا لاتفهم . ثم أجاب آخر الأمر عند ما لم يجد شيئا آخر يقوله : « المنزل الثانى على يمينك » فومضت فى عين ميتشيك نظرات غريبة وواصل طريقه دون أن ينظر خلفه .

وقال ميتشيك فى نفسه . . « موروزكا ... إنه هنا بطبيعة الحال »

وشعر كما كان يشعر فى الأيام الماضية بأنه وحيد ، تحدق به أخطار متعددة، متجسدة فى موروزكا ،وفى الشوارع الغريبة المظلمة. وفى الفرس السهلة القياد التى لا يعرف كيف يسوسها .!!

وحينما وصل إلى مقر القيادة ، تبخرت عزيمته ، ولم يعد يدرى لم جاء ، وماذا هو قائل أو فاعل .

ووجد جمعا من الجنود ممددين حول نار تشتعل، وسط ردهة خاوية متسعة الأرجاء ، كأنها أحد الحقول ، وقد جلس ليفينسون قريبا من النار ، وكأنه مسحور بالدخان ، وأزيز اللهب ، وقد تربع على طريقة الكوريين . وبدا لميتشيك أكثر من أى وقت مضى كأنه قزم خرافى هارب من أسطورة أطفال ! وتابع ميتشيك سيره حتى وقف خلف الرجال . ولم يلتفت إليه أحد .

وكان الجنود يتبادلون سرد النكات البذيئة ، وهى تدور جميعاً حول القسيس الغبى وزوجته الشهوانية ، ومعهما بطبيعة الحال شاب جسور واسع الحيلة ، يبرع فى خداع القسيس ، والتمتع بحلاوة عناق زوجته !

وتخيل ميتشيك أنهم يسردون هذه الأقاصيص لا لأنها ممتعة فعلا بل لأنهم ليس لديهم مايقولون غيرها ، كما تخيل أنهم يضحكون لأن من الواجب أن يضحكوا .. ومهما يكن من شىء ، فقد كان ليفينسون يضحك مرعداً فى مرح واضح ، وحينما جاء دوره ، سرد بضع أقاصيص فكهة ، وكانت أقاصيصه أكثر الأقاصيص إحكاماً .. وابتذالا ، فهو

أكثر الحاضرين ثقافة . ولكن ليفينسون لم يكن يستغرقه العبث ، وكان يلقى النكات بهدوء ساخر ، وصدرت عنه الكلمات المبتذلة دون أن تحيطه بالابتذال ، وكأنها ليست كلماته على الإطلاق !

وود ميتشيك حينما نظر إلى ليفينسون أن يقص هو أيضا إحدى الطرائف . فهو فى قرارة نفسه يحب الاستماع إلى هذه القصص البذيئة رغم اعتقاده أنها مخجلة ، ورغم تظاهره بتعاليه على هذا الاسفاف ! ! ولكنه خشى أن ينظر إليه الجميع فى دهشة ، وذلك يضعه فى مأزق حرج .

وأخيرا قفل ميتشيك عائدا ، وقلبه ينبض بسخط موجه الى نفسه هو ، وينطوى على التبرم بهم جميعا وخاصة ليفينسون : « هذا المترهل »

ثم ضم شفتيه فى عبوس حزين قائلا لنفسه « لن أعبأ بهذه الفرس ، وليخرج الشيطان من بطنها .. وسأرى ماذا يقول حينئذ ... لست خائفاً من أحد . »

وقد وضع ذلك فى التطبيق فعلا بعد أيام ، فقد تجاهل الفرس ولم يفك عقالها إلا عند تمرينات الركوب ، وفى مواعيد شربها . ولو كان قائده أدق ملاحظة لعوقب ميتشيك ؛ ولكن كوبراك لم يكن يهتم أدنى اهتمام بما يدور فى فرقته ، تاركا الأمور تجرى وفق هواها . فقد غطت القروح زيو شيخا ، وقاست دائما الجوع والعطش ، وقلما انتفعت بصدقات الاخرين . وكوفىء ميتشيك على ذلك بنفور عام من الزملاء بوصفه « متسكعاً » .

ولم يكن فى الفرقة من يصادقه سوى بيكا وسيسكين ، وقد تودد إليهما ، لا تقديرا لصداقتهما بل لأن الآخرين يتجنبونه ، وكان سيسكين أيضا لايجد من يصادقه ، فحاول كسب صداقة ميتشيك .

وذات يوم كان ميتشيك مضطجعا وحده فى الحظيرة ، يحدق شارد اللب فى السقف بعد مشاجرة مع أحد رؤسائه حينما أخفق فى تنظيف

البندقية ، فانتهز سيسكين الفرصة وأقبل إليه ...

ــ أهدأت ثائرتك ؟ ... حاول أن تنسى ... فما هو إلا فلاح جاهل ... لماذا تعبأ به ؟

فتنهد ميتشيك قائلا : « ليس هذا هو السبب » .

وجلس سيسكين على مقدمة إحدى العربات ، وبحركة معتادة أحكم رباط حذائه ذى الدهان الكثيف ، وبدأ كلامه :

ــ حسنا ... أنت تعلم أننى شديد الضجر أنا الاخر ، فليس هنا كثير من المثقفين ، ربما ماعدا ليفينسون ... رغم أنه هو أيضا ... »

وهز سيسكين كتفيه ، ونظر إلى حذائه نظرة ذات مغزى .

وهنا تساءل ميتشيك فى فضول :

ــ وهو أيضا ... ماذا ؟

ــ حسنا ... أنت تعلم أنه ليس شديد الثقافة ... ما هو إلا رجل ماكر ... إنه يصنع مجده على حسابنا ... ألا تصدق ؟

وابتسم سيسكين فى مرارة ثم تابع حديثه :

ــ أنت تعتقد بطبيعة الحال أنه شجاع جسور ... جنرال حقيقى؟!

ونطق سيسكين كلمة « جنرال » فى تلذذ واستمتاع .

ــ عبث فارغ ... لقد اخترعنا ذلك كله بأنفسنا ، وهذا ما أؤكده لك .. ولنأخذ مثال انسحابنا كواقعة مادية ... فبدلا من أن نوجه إلى العدو ضربة ساحقة مفاجئة ... ركضنا هاربين إلى هذا الجحر القذر.. من أجل الأهداف الاستراتيجية العليا !! .. هناك يموت رفاقنا ، ولكننا لدينا أسباب استراتيجية !!

وفى حركة آلية نزع سيسكين مسمار الربط من إحدى العجلات ثم أعاده إلى مكانه فى ضيق .

ووجد ميتشيك أن من العسير عليه تصديق ما وصف به سيسكين قائده ليفينسون ، ولكنه استمتع بالأنصات إليه ، فقد مر وقت طويل دون أن يسمع لغة مثقفة ، كما ود ـ لسبب خفى ـ أن يعتقد أن ثمة ذرة من الصدق فى كلمات سيسكين .!!

ـ أهذا صحيح ؟ ... لقد اعتقدتُ أنه رجل شديد التهذيب .

فصاح سيسكين مصعوقا « شديد التهذيب!! » وفقد صوته حلاوة الإيقاع، وبدت فية رنة استعلاء .

ـ ما أشد إبغالك فى الخطأ ! ... يكفيك أن تنظر الى الناس الذين يحيط بهم نفسه .. باكلانوف مثلا ... طفل سيال اللعاب . . وهو معتد بنفسه ... ولكن ياله من نائب لقائد !! كأن القائد لا يستطيع أن يجد له نائبا آخر ! ... أنا مثلا رجل مريض ... أُصبت بجراح ... لقد اخترقت سبع رصاصات جسمى كما أصبت بصدمات ... وليس لى رغبة فى أن أتولى هذا المنصب المضنى ... ولكننى على أية حال أستطيع أن أقول ـ دون فخر ـ أننى لن أكون أسوأ منه .!!

ـ قد لايعرف القائد انك حاذق بفن الحرب .

ـ يا إلهى!!.. لايعرف؟... ولكن الجميع يعرفون ذلك . حاول أن تسأل أى انسان تريد ... بطبيعة الحال بعضهم تقتلهم الغيرة من كفاءتى وسيذكرون لك عنى الأكاذيب ولكن رغم ذلك . فمعرفتى بفنون الحرب حقيقة لاشك فيها .

وبدأ الحماس يدب تدريجيا فى ميتشيك ، وبدأ فى الوقت نفسه يفضى الى سيسكين بما يعتمل فى نفسه ، وكانا ينفقان اليوم كله سويا . ورغم أن سيسكين قد ظهر على حقيقته ، منفرا كريها ، إلا أن ميتشيك لم يستطع الاستغناء عنه ، بل لقد كان يفتقده ويبحث عنه كلما غاب . وقد نقل سيسكين إليه خبرته فى مزاولة أعمال الحراسة والمطبخ ...

وإن تكن هذه الأعمال قد فقدت جدتها وأصبحت واجبا عسير الأداء .

وابتداء من هذا الوقت انزوى ميتشيك منتحيا عن حياة الفرقة الصاخبة ، ولم يعد فى استطاعته أن يرى منابع الحياة فيها أو يشعر بضرورة ما يقع من أحداث ، وغرقت كل أحلامه عن حياة جديدة تتوثب جسارة فى هذا الاغتراب .

ولكنه تعلم كيف يتعامل مع الآخرين ، وألا يخشى الناس ، كذلك فقد لوحته الشمس ولم يعد يشغله التفكير فى ملابسه . وهكذا فقد أصبح من ناحية المظهر لا يفترق عن الجنود الآخرين

الفصل العاشر

بداية الهزيمة

استحوذت الدهشة على موروزكا بعد التقائه بميتشيك ؛ فهو لم يشعر نحوه بحقد أو بغضاء ، كما كان يشعر من قبل . ولم تنطو جوانحه إلا على الحيرة ، فلماذا تبرز له هذه البيضة الفاسدة من جديد ، وتعترض طريقه ؟ وتمتزج الحيرة باعتقاد غير واع بأنه — موروزكا — يجب أن يكون ناقما على ميتشيك . وقد أثارته هذه المقابلة حتى جعلته يتحرق لهفة إلى التحدث عنها إلى أى إنسان .

فقال لدوبوف :

— لقد كنت أذرع الشارع ، فخرج على هذا الرفيق — الذى كان فى فرقة شالديبا — من أحد الأركان — أتذكره ؟ ، الرفيق الذى أنقذته أنا وجئت أحمله .. ؟

— حسنا ؟

— لاشىء ... لقد سألنى أين مقر القيادة ؟ فأجبته : المنزل الثانى إلى اليمين .

فاستحثه دوبوف على الحديث ، متسائلا « وماذا بعد ؟ » ، حينما لم يجد شيئاً جديرا بالانتباه فى قصة موروزكا ، وتوقع أن يكون للحديث بقية ...

وتساءل موروزكا متوترا دون مبرر :

— حسبنا ... لقد التقيت به ، وهذا كل ما فى الأمر ... وماذا يمكن أن يحدث غير ذلك ؟

وأحس فجأة بالضجر يعتصر كيانه ، وفقد كل رغبة فى محادثة الناس ، وبدلا من أن يتوجه إلى مرقص المساء كما قد عقد العزم ، انتحى ركنا قصيا ، وافترش كومة من الدريس ، ولكن النوم استعصى على أجفانه ، فقد بدأ يرزح تحت أثقال ذكريات مريرة ، وتخيل أن ميتشيك اعترض طريقه عامدا لكى يحرفه عن مسلكه القويم الذى انتهجه حديثا .!!

وحينما أشرق الصباح ، أنفق يومه هائما على وجهه دون أن تهدأ ثائرته ، وهو يجاهد أن يذهب باحثا عن ميتشيك .

وصاح متأففا مهتاجا فى قائده :

— ماذا يبقينا هنا دون أن نقوم بشىء ؟ ... سيفترسنا الضجر .. ألم يفكر ليفينسون فى شىء ؟

— إنه يفكر فى أفضل الوسائل لتسلية موروزكا ، لقد أصبح سرواله باليا لطول ما جلس مفكرا فى ذلك !!

ولم يكن دوبوف يساوره — حتى مجرد الشك — فى أن انفعالات متضاربة تثور داخل موروزكا ، فلم يلق موروزكا منه استجابة أو تعاطفا وأحس بقلبه يمتلىء كآبة وأسى ، وخشى أن ينزلق إلى إدمان الخمر إذا لم يشغله الاستغراق فى العمل قريبا .

وكانت هذه هى أول مرة يناضل فيها نوازع نفسه واعيا بهذا النضال ، ولكن طاقة إرادته لم تكن فى مستوى المعركة .

ولم ينقذه من التمزق الا حدث عارض .

فليفينسون بعـد أن تراجع إلى موقع جانبي ، فقد اتصاله بالفرق الأخرى، ونقلت إليه الأنباء المتناثرة التي تصله بين الحين والاخرصورة بشعة من الاضمحلال ، كما حملت اليه الريح من « آلاخي» رائحة الدخان والدم .

ولكن ليفينسون تمكن من إقامة اتصال بينـه وبين خط السكة الحديدية ، عبر ممرات الوادي الخفية ، التي لم تطأها قدم منذ بعيد .

وقد علم ليفينتسون أن قطارا حربيا محملا بالسلاح والملابس سيمر بعد قليل . ووعده عمال القطارات أن ينقلوا إليه يوم وصوله وساعته وليفينسون قد قرر أن يبدأ هو بالهجوم ! فمكان فرقته لن يظل سرا وسيعرفه العدو إن لم يكن اليوم فغدا ، كما أنه من المستحيل قضاء فصل الشتاء في السهول دون ذخيرة أو ملابس ثقيلة .

فأعد جونشارنكو ألغامه في عجلة ، وتسربت الفرقة خفية خلال أرض العدو ذات ليلة كثيفة الضباب ، وظهرت فرقة دوبوف بغتة عند السكة الحديدية .

وفصـل اللغم الذي فجره جونشارنكو عربات البضائع عن بقية قطار البريد ، دون أن تصاب عربات المسافرين بأي ضرر . وتناثرت القضبان ، وارتفعت عاليا في ضجيج الانفجار ودخان الديناميت ، ثم ارتجفت في الهواء وهوت ساقطة إلى الجسر .

وقد اشتبك فتيـل الديناميت بسلوك التلغراف ، وترك الناس مدة طويلة بعد ذلك يجهدون ذهنهم متسائلين كيف وصل إلى هذا المكان ولماذا وصل . !

وحينما هجمت داوريات من الفرسان ، وأحاطت بالجيرة ، إختفى دوبوف ، وقد ثقلت أحمال خيله في غابة سفياجينو ، ثم شق طريقه بعد ذلك في ظلام الليل عبر شعاب الجبال ، فوصل إلى شيبيشي بعد بضعة أيام

دون أن يخسر واحدا من رجاله .

« والآن يا باكلانوف ، يجب أن تكون مقبوض الكف !! »

ولم يعرف أحد من عينه المغمضة ، إذا كان ليفنسون جاداً أم هازلا وقد وزع فى هذا اليوم بالذات كل ما فى المخازن وأعطى المعاطف والذخائر والسيوف والقطائر إلى الرجال ، ولم يدع جانبا إلا ما تستطيع الخيل حمله . .

وكان العدو قد استولى على كل وادى الأولاخى حتى ضفاف نهر الأوسورى ، وقد تجمعت قوات جديدة عند مدخل الإروخيدزا وكان جنود الاستكشاف اليابانيون يتجولون فى كل مكان ، وقد التقوا أكثر من مرة بداوريات ليفينسون ، وفى نهاية أغسطس بدأ اليابانيون فى الارتحال إلى أعالى النهر ، وقد تقدموا ببطء ، وتخلل سيرهم فترات استراحة طويلة ، وهم يستوثقون من كل خطوة ، ويبعثون حراساً على الجانبين ، ويستطيع المرء أن يشعر أن فى تصميمهم الحديدى ، أثناء تقدمهم ، قوة واثقة من نفسها ، ذكية ، وإن تكن عمياء . وعاد جنود ليفينسون من استكشافهم جاحظى العيون ، متناقضى التقارير .

وتساءل ليفينسون فى برود :

ـ ماذا تقولون ؟ . بالأمس قلتم أنهم كانوا عند سولومينايا وهذا الصباح تقولون عند مونا كينو .. أمعنى ذلك أنهم يتقدمون إلى الوراء ؟

وتلعثم الكشاف قائلا :

ـ لا أع . . رف قد تكون الطليعة وحدها عند سولومينا !

ولكن كيف تعرف أن جسم الجيش هو الذى عند مونا كينو وليس الطليعة . ؟

ـ هذا ما يقوله الفلاحون . .

ـ عليك اللعنة أنت ومعك الفلاحون .. ماذا كانت أوامرك ؟

ويضطر جندى الاستكشاف حينئذ إلى إختراع قصة تفسر استحالة دنوه من العدو مسافة أكبر . ولكن ما كان يحدث فعلا يختلف عن ذلك. فثرثرة النساء كانت تدخل الرعب على قلب الكشاف ، فلا يجسر على الاقتراب من العدو ، إلا وهو على مبعدة عشرة فراسخ ، ثم يجلس بين الأشجار يستمتع بالتدخين ، ويترقب لحظة ملائمة يعود فيها إلى الفصيلة! وجندى الاستكشاف يقول فى نفسه ، وهو ينظر إلى ليفينسون بعينى فلاح ماكرتين تطرفان : «كم أود أن أراك وأنت تدس أنفك هناك!..»

واضطر ليفينسون آخر الأمر أن يقول لباكلانوف :

ــ ستضطر إلى الذهاب هناك بنفسك ، وإلا فسنقع فى المصيدة كأننا الذباب ... لا يمكنك أن تصنع شيئاً بمساعدة هؤلاء الناس ، اصطحب معك جندياً واذهب قبل الفجر .

وتساءل باكلانوف عمن يأخذ معه ، وهو يتظاهر بأن يبدو جادا ، قلقاً ، رغم أن كل ما فى داخله ينبض باللهفة إلى المعركة ، والاغتباط بالاقتراب منها ، فهو مثل ليفينسون يعتبر إخفاء مشاعره واجباً ضرورياً

ــ ليس مهماً من تأخذ معك ... اصطحب هذا الجندى الجديد فى فرقة كوبراك ... ما اسمه ؟ ... ميتشيك ؟ ... ستكون هذه فرصة كى تعرف أى نوع من الرجال هو ... إنهم لا يرتاحون إليه .. وقد يكونون مخطئين .

وكانت هذه الرحلة الاستكشافية مدعاة لسرور ميتشيك ، فأثناء الفترة القصيرة التى قضاها فى الفرقة تجمعت لديه كثير من المهام التى لم تنجز ، ومن الوعود والآمال التى لم تتحقق ، فاذا تحقق واحد منها الآن ، فلن تكون له قيمة أو دلالة ... أما هذه الأشياء ككل فهى تثقل على نفسه ، خانقة مؤلمة ، جاعلة من المستحيل أن يهرب من نطاقها الضيق . ولكن ... لقد بدا له الآن أنه قادر على تحطيمها ، والنفاذ خارجها

بضربة واحدة تفيض جسارة .

وما أن جاء الفجر حتى كانا قد ارتحلا ، وقمم السلسلة الجبلية يشحب فوقها لون الغسق . وانبعث صياح الديكة من القرية الرابضة عند أقدام الجبل ... وكان الجو قاتماً بارداً يثير المخاوف ، ولكن هذه الملابسات الاستثنائية ، بالإضافة إلى استشعار الخطر ، أيقظت فيهما روح المقاتلة فطردت كافة الهواجس ، وجرى الدم فى عروقهما حاراً ساخنا وتوترت منهما العضلات ، واستشعرا اللهيب وقد سرى فيه التأجج رغم برودة الجو .

وقال باكلانوف :

ــ إن فرسك عبرة لمن اعتبر . ! ألا تهتم بها ..؟ لعل هذا الغبي كوبراك لم يشرح لك كيف تسوسها ؟

فلم يخطر أبدا على بال باكلانوف أن رجلا يعرف الخيل ، يهمل فرسه حتى تصل إلى مثل هذه الحال الزرية ، واستطرد مكملا حديثه :

ــ كوبراك لم يشرح لك . . أليس كذلك ؟

فأجاب ميتشيك فى ارتباك :

ــ إنه ليس ميالا إلى إسداء العون ... ولا أعرف أحدا أسأله النصيحة .

ولكن مالبث أن خجل من كذبه ، وقبع على سرجه وقد تفادى أن ينظر إلى باكلانوف .

ــ ماذا ؟ أسأل أى واحد منهم .. لدينا كثير من الرفاق يفهمون احتياجات الخيل جيدا ... وجنود ممتازون أيضا .

ورغم آراء سيسكين التى مازالت راسخة فى ذهن ميتشيك ، فقد بدأ يميل إلى باكلانوف ، ورآه متين البنيان صلب العود ، يستقر على السرج كأنه جزء منه ، وعيناه البنيتان يقظتان ، وذهنه يحيط بكل شىء فى لحظة خاطفة

فيميز بين الغث والسمين ويصل إلى نتائج عملية .

ــ اللعنة يارجل ! ! لاأفهم لماذا ينزلق سرجك بهذه الطريقة ، لقد أحكمت الرباط الخلفى ، وتركت الأمامى رخوا ، على العكس مما يجب .. دعنا نصلحه .

وقبل أن يعرف ميتشيك أين الخطأ وأين الصواب، ترجل باكلانوف وانهمك فى إصلاح أشرطة السرج .

ــ حسنا ... حسنا .. إن الملاءة أيضا شديدة الانتفاخ ، والتغضن فيجب أن تنزل ... إنك ستحطم الحصان . سنعيد وضع السرج

وبعد أن سارا بضعة فراسخ ، اقتنع ميتشيك أن باكلانوف أكثر كفاءة وأكثر ذكاء ، وأنه فوق ذلك رجل شديد القوة والذكاء ، يجب أن يطيعه دون مناقشة ، ومن الجانب الآخر كانت معاملة باكلانوف متحررة من الاعتداد بالنفس رغم أنه تحقق سريعا من تفوقه على ميتشيك . فهو يخاطبه كند له ، محاولا عن طريق الملاحظة الموضوعية أن يكتشف قيمته الحقيقية .

ــ من أرسلك إلينا ؟

ــ لقد جئت من تلقاء نفسى .. وقد أخبرنى الاشتراكيون الثوريون أين أجدكم .

وهنا تذكر ميتشيك نفور ستاشينسكى الذى لم يفهمه ، وحاول أن يعرف شيئا عن التنظيم الذى أرسله .

ــ الاشتراكيون الثوريون ؟ أنت على خطأ فى اتصالك بهم ... إنهم ليسوا إلا بالونات ثرثارة ..

ــ أنا لا أعبأ بهم . . لقد كان لى فى المدرسة العليا زملاء منهم .. هذا كل مافى الأمر .

ــ هل اكملت دراستك العالية ؟

ـــ نعم . . . لقد أكملتها .

ـــ هذا بديع ... لقد ذهبت أنا أيضا إلى مدرسة تجارية ، كى أتعلم الخراطة . ولم أتمكن من إتمام دراستى . فقد بدأت متأخرا .

وقال ذلك كما لو كان يعتذر .. ثم واصل :

ـــ لقد كنت أعمل فى مصنع للسفن حتى كبر أخى الأصغر . . وبغتة بدأ هذا الاضطراب .

وبعد دقائق قال :

ـــ نعم . . . مدرسة عليا . . . لقد وددت أنا الآخر أن أذهب إلى مدرسة عليا حينما كنت صبياً ... ولكن أتعلم أنت ماذا حدث ؟

وكان من الواضح أن أشارة ميتشيك العارضة قد أيقظت حشدا من الذكريات الهاجعة عند باكلانوف ، وبحماس مفاجىء بدأ ميتشيك يدلل على أن عجز باكلانوف عن مواصلة الدراسة ليس أمرا سيئا على الاطلاق بل هو أمر مفيد ! ودون أن يدرى هو نفسه دوافع حماسه ، بدأ يقنع باكلانوف ـــ أنه على الرغم مما حدث ـــ شاب رائع ذكى .

ومهما يكن من شىء فباكلانوف لم يقتنع بأن ثمة امتيازا خاصا فى تخلفه عن الدراسة . وأخفق تماما فى تتبع حجج ميتشيك المعقدة ، وبهذا لم يتمكنا من أن يتبادلا حديثا تشيع فيه حرارة العاطفة ، فحث كل منهما حصانه وسارا زمنا فى صمت .

وفى الطريق كانا يلتقيان بجنود الاستكشاف الذين لم يتورعوا عن مواصلة الكذب ، ولم يسع باكلانوف إلا أن يهز رأسه !

وعند مزرعة تبعد ثلاثة فراسخ عن قرية سولومينايا ، ترجلا وسارا على الأقدام ، وكانت الشمس على وشك الغروب ، والحقول الوسنى مزدانة بمناديل الفلاحات المزخرفة ، وامتدت الظلال الوادعة كثيفة من حزم الدريس المتكدسة ، وحينما إلتقيا باحدى العربات سأل باكلانوف

أثمة يابانيون فى سولوميناريا .

— يقولون أن خمسة يابانيين قد مروا فى الصباح ، ولكننا لم نسمع عنهم شيئا طول النهار ... آه لو أعطوا نامولة نخزن فيها الحبوب.. ليأخذهم الشيطان !

ودق قلب ميتشيك مسرعاً ولكنه لم يكن خائفا .

فقال باكلانوف

— معنى ذلك أنهم حقيقة فى موناكينو ، وهؤلاء الخمسة من جنود الاستكشاف ... نحن نستطيع الآن الدخول إلى القرية .

وفى القرية قابلهما نباح كسول ، وسارا حتى لقيا عربة عند مدخل فندق صغير ، تعرفا عليه بفضل شارته المميزة : حزمة دريس مربوطة إلى عامود ، وهناك شربا بعض اللبن على طريقة باكلانوف ، أى من صحن تسبح فيه فتات الخبز ..وفى مستقبل الأيام حينما يذكر ميتشيك أحداث هذا اليوم وما فيها من رعب ، فانه يسترجع دائما صورة باكلانوف خارجا من الفندق ، ووجهه يشع سعادة، وقطرات بيضاء من اللبن تلمع على شفته العليا .!

وما كادا يسيران بضعة خطوات بعد الفندق ، حتى أبصرا بامرأة مترهلة ، تجرى لاهثة وقد رفعت ذيل ثوبها ، مقبلة من حارة جانبية ثم توقفت أمامهما وكأنها قد صلبت مكانها . وكانت عيناها شاخصتين وهى تجرع الهواء بفمها شاهقة ، وكأنها سمكة أُخرجت من الماء . وما لبثت أن صاحت بصوت رفيع نفاذ :

— أين أنتما ذاهبان يا ابنىّ ؟ ثمة جمع غفير من اليابانيين على مقربة من المدرسة .. إنهم قادمون ... اهربا فى الحال ... إنهم قادمون

وقبل أن يستوعب ميتشيك معنى كلامها ، برز من الحارة الجانبية ، أربعة جنود من اليابانيين يسيرون فى خطوات منتظمة ، رافعين بنادقهم على أكتافهم

فانتزع باكلانوف مسدسه هاتفا وأطلق النار على اثنين منهم ، وشاهد ميتشيك رشاشا من الدم يتطاير على ظهريهما وهما يسقطان ، ولم تنطلق الرصاصة الثالثة وسدت مسدس باكلانوف فأصبح لاجدوى منه ،وفى هذه الأثناء أطلق أحد اليابانيين ساقيه للريح ، أما الرابع فقد انتزع بندقيته من على كتفه .

وهنا شعر ميتشيك بأن قوة جديدة تسرى فى دمه ، وتحل محل الخوف ، فأطلق على اليابانى بضعة طلقات متتابعة ، وأصابت الطلقات الأخيرة جندى العدو وهو يسقط متخبطا على الأرض .

وصاح باكلانوف : جريا ... إلى العربة .

— وبعد لحظات ، فكا قيدحصان كان يتوثب على مقربة من ردهة الفندق ، وركضا بالعربة طائرين ، يثيران سحبا من غبار ساخن . ووقف باكلانوف فوق العربة وهو يضرب الحصان بأطراف اللجام ضربا موجعا ، ناظرا بين الحين والآخر إلى الخلف ، ليتحقق من أن العدو لايطاردهما .

— وفى وسط القرية ، انبعث صوت خمسة أبواق محذرا !!

وصاح باكلانوف فى غضب منتصر : « إنهم هنا ... جميعا ... كلهم ... الجسم الاساسى ... ألا تسمع أبواقهم ؟»

ولم يسمع ميتشيك شيئا ، ولكنه استشعر — وهو قابع فى قاع العربة غبطة ضارية ، لقد كان فى أمان بعد أن قتل هذا اليابانى ، وفكر فيه وهو ، يتلوى محتضرا على الأرض الساخنة ، يغالب حشرجة الموت ، وحينما نظر إلى باكلانوف بدا له وجهه المقطب منفرا مرعبا .

وبعد دقيقة كان باكلانوف يضحك !!

— لقد أحكمنا التصويب والإطلاق .. أليس كذلك ، لقد دخلوا القرية ، ونحن كذلك !! أنت صلب كقطعة الطوب يا أخى ... لم

أتوقع ذلك منك .. إذا لم تكن قمت بذلك لأفنانا برصاصه .

وحاول ميتشيك أن يتفادى النظر إليه ، وظل ممددا . ورأسه مائلة إلى الخلف ، وقد شحب وجهه ، وبدت فيه بقع سوداء كأنه سنبلة من القمح فاتها الحصاد ... فتلفت .

وبعد فرسخين من السير دون أن يسمعا أى صوت ينم عن تعقب أو مطاردة ، أوقف باكلانوف الحصان ، إلى جوار شجرة ضخمة وحيدة تظلل الطريق .

— امكث هنا ... وسأتسلق الشجرة لأستكشف المكان .

فتساءل ميتشيك وقد دفعته الاستثارة إلى التلعثم :

— لماذا ... دعنا نسرع راجعين ... علينا أن نقدم تقريرا ... من الواضح أن قواتهم الأساسية هنا .

وحاول جاهدا أن يصدق كلماته ، ولكنه لم يستطع ، فقد شعر الآن بالخوف لقربه من العدو .

— لا ... يحسن بنا أن ننتظر ... فليس كافيا أننا قتلنا هؤلاء الأغبياء الثلاثة ... يجب أن نتسقط الأخبار .

وبعد نصف ساعة شاهدا جمعا من الفرسان يركض من سولومينايا ، وفكر باكلانوف « ماذا لو عرفوا موضعنا ؟ » وهو يرتجف فى قرارة نفسه ... « لن نستطيع الهرب منهم بهذه العربة » ولكنه ما لبث أن ملك زمام نفسه ، وقرر الانتظار حتى آخر دقيقة . وكانت فرقة الفرسان التى على الجانب الآخر من التل بعيدة عن مرمى بصر ميتشيك ، وكانوا فى منتصف الطريق إليهم حينما أبصر باكلانوف من مخبئه ، بجنود المدفعية وقد غادروا القرية توا فى صفوف متلاحمة ، وبنادقهم تلمع فى الغبار .

وقرر باكلانوف ضرورة العودة ..

وكادا يقتلان الحصان فى ركضهما إلى القرية ، وحينما وصلا إلى المزرعة ، امتطيا جواديهما ، وأسرعا فى السير متسابقين تجاه شيبشى .

ولم يكن ليفينسون فى انتظارهما، فقد أدرك بثاقب نظره ، أنهما لن يعودا سريعا — وفى الواقع فإنهما لم يصلا إلا حينما هبط الليل — وأنفق الوقت فى تدعيم فصائله ، وقد ترجلت فصيلة كوبراك تحقيقا لهذا الهدف ولم يبق إلا قرابة الثلث من الفرقة على صهوة الجياد ، أما الباقون فكانوا فى نوبة الحراسة خلف حصون قلعة مغولية صغيرة . وسلم ميتشيك فرسه إلى باكلانوف وانضم إلى فصيلته .

وميتشيك مجهد غاية الإجهاد ، ولكن لم تكن به رغبة فى النوم . وضباب مثلوج يزحف متصاعدا من ناحية النهر ، وميتشيك يتقلب على جنبيه ويئن أثناء نومه ، وكان يسمع للحشائش حفيفا غامضا تحت أقدام الحراس . واستلقى ميتشيك على ظهره وحملق فى النجوم ، والنجوم تكاد تختفى ذائبة فى الفراغ الداكن خلف أستار الضباب ، وفى قلبه ، أحس ميتشيك بفراغ مماثل ، أكثر سوادا وخواء ، فليس فيه أطياف نجوم!! وخطر فى باله أن فرولوف يشعر بهذا الفراغ دائما ، فدب فيه الرعب واستحوذ على كيانه ، خشية أن يشبه مصيره ، مصير فرولوف . وحاول أن يبعد هذه الفكرة عن ذهنه ، ولكن صورة فرولوف ظلت ماثلة أمام عينيه ، وقد رآه راقدا على فراشه ، وذراعاه متراخيان دون حياة ، ووجهه ذابل ، وأشجار الاسفندان تصطفق فروعها فوق رأسه وادعة . وصاح ميتشيك فى رعب : انه ميت !! ، ولكن فرولوف أشار باصبعه ، وحول رأسه إليه قائلا فى إبتسامة خامدة :

« لن يستطيع رفاقنا القيام بواجبهم» ، وبغتة بدأت التقلصات تعصف بكيانه ، وقد تطاير جسمه أشلاء ، ولم يعد ميتشيك يرى فرولوف أمامه،

بل الجندى اليابانى . . « هـذا مريع » وارتجف جسمه ، ولـكن فاريا أطلت عليـه قائلة « لا تخف » ، وكانت رطبة ، رقيقة الملمس ، وشعر ميتشيك بتحسن ، وقال فى حنان : « لا تغضبى منى لأننى لم أودعك كما يجب ... أنا أحبك » ، فالتصقت به . وفجأة اختفى كل شىء ، وطار إلى مكان آخر ... وفى اللحظة التالية وجد نفسه مفترشا الأرض وعيناه تطرفان ، ويده تتحسس بحثا عن بندقيته ، وكان النهار قد بزغ ... وكان الرجال يحومون حوله . وقد حسروا معاطفهم عن سيقانهم ، وكان كوبراك مختبئا فى أجمة من الشجيرات ، يتطلع خلال منظار الميدان وقـد تجمع حوله الجنود يتساءلون أين ... أين ؟ »

ووجد ميتشيك بندقيته آخر الأمر ، وتسلق قمة الحصن بعد أن تحقق من أن السؤال يشير إلى العدو ، ولـكنه ، حينما لم ير لليابانيين أثرا تساءل مع الجميع . « أين .. أين .. ؟! »

وهمس كوبراك . « لماذا تتراصون هنا ؟ » وهو ينحى أحد الجنود بعيدا .. « تأهبوا ... للقيام بمناوشة »

وحينما ساروا بحذاء الحائط ، مد ميتشيك عنقه محاولا أن يسترق النظر إلى العدو .

وسأل الجندى الذى يجاوره عدة مرات : « أين هم ؟ »

ولم يصغ إليه الرجل ، فقد كا منبطحا على بطنه ، وقد تدلت شفته السفلى ، ولـكنه — لسبب أو آخر — كان يضع إصبعه فى أذنه بين لحظة وأخرى ، وفجأة نهض لاعنا ميتشيك فى غضب ، لإلحاحه فى السؤال! ولم يكن ثمة وقت كى يجيب ميتشيك على هـذه الشتائم فقد تعالى صوت القائد صائحا : « فرقة .. انتباه ! » .

ودفع فوهة بندقيته فوق سور الحصن ، وهو مازال عاجزا عن رؤية أى شىء ، وضايقه التفـكير فى أن جميع رفاقه يرون العـدو . ثم

أطلق الرصاص فى طاعة عمياء حينما سمع الأمر : « أطلق النار ! » ، ولم تكن أمامه طريقة لكى يعرف أن ما يزيد على نصف الفرقة لم يبصر بالعدو ، بل تظاهر بذلك ، كى يتجنب السخرية بعد انتهاء الاصطدام !

وكرر القائد الأمر « أطلق النار » ... وأطلق ميتشيك مرة ثانية .

وصاح أحد الرجال : « لقد نالوا كفايتهم » وبدءوا جميعا يتكلمون فى جلبة واختلاط ووجوههم تطفح بشرا .

وصاح قائد الفرقة : « كفى ... كفى ... من الذى يطلق النار هناك ؟ .. وفر الذخيرة .. »

وسرعان ما علم ميتشيك أن فرقة استطلاع يابانية حاولت المرور ، وبدأ كثيرون من الذين لم يروا العدو مثله ، يسخرون منه ، بل وقد افتخر بعضهم برؤية ضحاياهم تسقط من على ظهر الخيل بعد أن أصابها الرصاص !!

وفى هذه اللحظة دوى صوت مدفع من مدافع الميدان ، وامتلأ الجو بترديد صداه ، وسقط كثير من الرجال على الأرض فى رعب ، وتضاءل ميتشيك كما لو كان قد أصيب ، فقد كانت هذه أول مرة فى حياته يسمع مدفع ميدان ، وانفجرت الشظايا خلف القرية ، وعوت المدافع الآلية مجنونة دون توقف ، ودوى صوت عشرات البنادق مرة بعد مرة ، ولم يرد جنود الأنصار على كل ذلك !

وبعد دقيقة ... وقد يكون بعد ساعة اختفى كل إحساس بالزمن ، وأحس ميتشيك بذلك فى ألم ، وشعر أن عدد جنودهم يتعاظم ، ورأى باكلانوف وميتيليتسا يقبلان سائرين على طول الجدار ، وكان باكلانوف ممسكا بمنظار ميدان ، ووجنات ميتيليتسا تتقلص ، وقد اتسع منخاراه .

وقال باكلانوف وقد زالت من جبهته الغضون .

ـــ أأنت مستلق هنا .. حسنا كيف حالك ؟

وابتسم ميتشيك ابتسامة تفيض بالألم ، وهو يحاول استجماع قوته ثم تساءل : أين خيولنا ؟

— فى السهول ... سنلحق بها فوراً ... ولكن علينا أن نعوقهم قليلا . . فان موقفنا هنا ليس شديد السوء .

وكان واضحاً أنه يحاول إدخال الطمأنينة على نفسه .

— ولكن فرقة دوبوف مازالت فى الوادى ... آه هذا الشيطان .

وأعاد السباب، ثم أذهله انفجار قريب، فأكمل كلامه «وليفينسون هناك أيضا» ثم ركض أمام صف من الجنود ممسكا بمنظاره بين يديه .

ولكن ميتشيك استطاع أن يرى الجنود اليابانيين هذه المرة حينما كان عليه أن يصدع بأمر إطلاق الرصاص ، لقد كانوا يتقدمون فى موجات ، قافزين من شجرة إلى شجرة ، وكانوا شديدى الدنو حتى أن ميتشيك اعتقد أن لا مهرب . ولم يشعر بالخوف بل بترقب معذب .

وفجأة برز كوبراك صائحاً : «على أى شىء .. بحق الشيطان يطلق الرصاص ؟ »

والتفت ميتشيك خلفه ، ورأى قائد الفرقة يوجه كلماته لا إليه ، بل إلى بيكا — الذى لم يلحظه ميتشيك حتى الآن — وقد انبطح بيكا فى مستوى أكثر انخفاضا من الآخرين دافنا وجهه فى الأرض . وكان ممسكا بالبندقية فوق رأسه وهو يطلق الرصاص آلياً دون تبصر . وواصل جذب الزناد حتى بعد صيحة كوبراك مصوباً البندقية إلى شجرة أمامه وواصل جذب الزناد حتى بعد أن فرغ الرصاص وأصبح الجذب عبثاً !! وركله قائد الفرقة بقدمه عدة مرات ولكن بيكا لم يرفع رأسه .

وبعد ذلك فروا جميعا ، وقد تسابقوا أول الأول فى اضطراب وحشى ، ثم هاموا على وجوههم منتظمين فى صف واحد .

وجرى ميتشيك مع الآخرين دون أن يدرك ماذا يحدث ولكنه

أحس حتى فى أكثر اللحظات اختلاطا و يأساً أن الأمر ليس عرضياً وخاليا من الدلالة كما يبدو له ، وأن ثمة عددا من الناس ، قد تختلف استجابتهم فى ذلك الوقت عن استجابته ، يتحكمون فى مسلكه ومسلك الآخرين الذين معه . ولم ير هؤلاء الرجال ، ولكنه كان واعيا كل الوعى بآثار إرادتهم . وحينما وصلوا إلى القرية واستجمع شتات ذهنه كان الجنود قد أبطأ سيرهم وانتظموا فى صف طويل، ولكن عينيه كانتا تبحثان — شاردتين — عن هؤلاء الذين يشكلون مصيره ... هاهو ذا ليفينسون يسير فى المقدمة ، وقد بدا شديد الضآلة وهو يهز مدفعه الضخم بطريقة تثير السخرية ، حتى أصبح من الصعب الاعتقاد أنه القوة الرئيسية الموجهة .

وحينما كان ميتشيك يحاول أن يصل إلى حل لهذه المشكلة، بدأ الرصاص يهطل فوقهم كثيفا غضوبا ، وكاد يحس بالرصاصات الطائشة تمشط شعره وتداعب شحمة أذنه . واندفع الصف وثبا إلى الأمام وسقط بعض الرجال . وشعر ميتشيك أنهم لو اضطروا إلى إطلاق الرصاص فلن تختلف طريقته عن طريقة بيكا .!

وكان ثمة انطباع مبهم من انطباعات هذا اليوم ، يتعلق بموروزكا فوق حصانه، وقد كشر الحصان عن أنيابه ، وتطاير شعر معرفته فى الهواء وهو يمرق بسرعة تجعل من الصعب إدراك أين ينتهى موروزكا وأين يبدأ الحصان .

وعلم ميتشيك بعد ذلك أن موروزكا كان واحدا من الفرسان المنوط بهم إقامة اتصال بين الفرق المقاتلة .

ولم يستفق ميتشيك تماما إلا فى السهول ، عند ممر جبلى ، حرثته حوافر الخيل .. وكانت هذه البقعة ظليلة هادئة ، ورحبت بهم غابة قاتمة من أشجار الأرز ، وآوتهم فى حمى فروعها الوادعة المتشابكة .

الفصل الحادى عشر

المتاعب اليومية

اختبأت الفرقة بعد المعركة فى أخدود مهجور غطته النباتات والحشائش .

وهناك كان ليفينسون يتفقد الخيل ، حينما وقع بصره على زيوشيخا : —

— ما هذا ؟

— عن أى شىء تسأل ؟

— ارفع السرج حتى أرى ظهرها .

وفك ميتشيك أشرطة السرج بأصابع مرتجفة ، فقال ليفينسون وقد نمت لهجته على أنه لم يتوقع شيئا يختلف عما رأى :

— ظهرها تملؤه القروح بطبيعة الحال ... ولكن أتعتقد أنك تستطيع أن تمتطى هذه الفرس بينما يعتنى بها أحد غيرك ؟

ورغم أن ليفينسون قد حاول جاهدا ألا يرتفع صوته ، إلا أنه لم ينجح فى إخفاء غضبه ، فقد ارتعشت لحيته ، وأطبقت أصابعه متوترة على غصن انتزعه من شجرة ، ثم قال :

— يا قائد الفرقة ... أقبل ! ... أين كانت عيناك ؟

وحملق القائد دون أن تطرف عيناه فى السرج الذى ما زال يحمله

ميتشيك بين يديه ، ثم اجاب بصوت يشيع فيه بطء عبوس :

ـــ ما أكثر ما لفت انتباه هذا الغبي !!

وطوح ليفينسون بالغصن بعيدا ، وألقى على ميتشيك نظرة غضب باردة ثم قال :

ـــ كنت أعلم ذلك .. اذهب إلى أمين المخزن ... وابق مع خيول الحمل ... حتى تندمل جروح فرسك .

فتمتم ميتشيك وفى صوته رعدة المذلة التى يستشعرها ، لا لأنه أساء معاملة الفرس بل لأنه اعتقد أن منظره والسرج الثقيل بين يديه ، ينم عن غباء :

ـــ أنصت إلىّ يا رفيق ليفينسون ... لست أنا الملوم ... أنصت إلى ... انتظر ... تستطيع أن تعتمد على الآن ... سأعتنى بها كل العناية ..

ولكن ليفينسون لم يعبأ به ، وواصل سيره ليتفقد حصانا آخر .

ولم يمض وقت طويل ، حتى دفع نقص المؤن الفرقة ، إلى الانتقال والمكوث فى واد قريب .

ومرت بضعة أيام ، والفرقة تتخبط فى المتاهة التى صنعها نهر الأولاخى ، من روافده المتعددة ، وقد برّح بها مالاقته من نصب فى مناوشة العدو وفى السير المضنى الطويل .

وبدأ الأمر يزداد سوءا .

فعدد المزارع التى لايحتلها العدو تتناقص وتمعن فى التناقص وأصبح ثمن الحصول على كل كسرة من الخبز ، أو كل حفنة من الشوفان خوض معركة قاسية ، وعادت الجروح التى أوشكت أن تلتئم ، تفغر أفواهها وتدمى من جديد ، وسار الرجال يلفهم تجهم صامت وقد استشرت ضراوتهم وقسوتهم .

وكان ليفينسون راسخ الإيمان برجاله ، فغريزة المحافظة على البقاء لم
يكن — فى اعتقاده — الدافع وراء سلوكهم ، بل كان ثمة هدف سام
ليس أقل فعالية من الغريزة — وإن يكن أعمق من أن تحيط به الملاحظة
السطحية ، بل قد يكون محتجبا عن أعين رجاله أنفسهم — يدفعهم إلى
المعاناة وحتى إلى الموت ، والهلاك فى سهول الأولاخى من أجل القضية ،
قضيتهم التحررية .

ولكن ليفينسون لم يغب عنه شيء آخر ..

فهذا الدافع العميق يكمن مستتراً وراء ضرورة تلبية المتطلبات
اليومية .. ووراء اهتمام كل فرد وحرصه على حياته الخاصة التى إن تكن
ضيقة ، فهى حاسمة الأهمية بالنسبة إليه ، فكل إنسان يجب أن يأكل
وأن ينام .. وما أضعف الطين الجسدى أمام نوازعه !!

وقد عهد الجنود بالمسئوليات الضخمة إلى قادة يفوقونهم صلابة ،
فالجنود تثقلهم أكداس من الشواغل اليومية ، وهم فوق ذلك يحسون
بما فى أنفسهم من نواحى النقص ، لذلك فقد عهدوا إلى أمثال ليفينسون
وباكلانوف ودوبوف ، بأن يوجهوا إلى القضية اهتماما أكثر مما يولونه
إلى إشباع رغباتهم الذاتية فى الطعام والنوم ... وبأن يبرزوا أمام الاخرين
المشكلات الجوهرية .

وكان ليفينسون دائما وسط رجاله ، يقودهم بنفسه إلى المعركة ،
ويتناول طعامه من صحافهم نفسها ، وينفق لياليه يقظان يتفقد
الحراس ، وفوق كل ذلك كله فهو الرجل الوحيد الذى لم ينس بعد
كيف يبتسم !!

ويستطيع رجاله أن يحسوا وراء كلماته ، حتى التى تتعلق بالمسائل
المعتادة ، حقيقة واضحة يصيح بها كيان ليفينسون جميعه .

« أنظروا ... أنا أشارككم العناء .. وغداً قد انتهى قتيلا .. أو

أحتضر جوعا وسغبا ... ولكنني لن أفقد أبدا الإصرار على النصر .. فالموت ليس حدثا خطيرا على الإطلاق . »

ورغم ذلك كله ... لم تسر الأمور كما يريد ليفينسون ..

فما كان يربطه بقلوب رجاله من أواصر لا تُرى ، بدأت تتداعى واحدة واحدة ، وكأن كل يوم يذهب بواحدة ، وكلما تناقصت هذه الأواصر ، ودب فيهـــا الضعف أصبح عسيرا عليه أن يقنع رجاله بطاعته ، وتحول إلى قوة منعزلة ، تقف وحيدة على رأس الفرقة .

وذات يوم رأى ليفينسون شيئا غريبا يدور فى فرقته ..

فقد اعتاد الرجال أن يصطادوا الأسماك لغذائهم ، بأن يصعقوها بالقنابل اليدوية ، ولم يكن أحد متلهفا على أن يغطس فى الماء البارد لذلك فقد كانوا يرغمون أضعفهم على ذلك إرغاما ، وما أكثر ما وقع اختيارهم على « لافروشكا » المسكين ! .

و « لافروشكا » هذا ، من رعاة الخنازير ، لا يعرف أحد بقية اسمه وهو هيَّاب دائم التلعثم .

وكان النزول إلى الماء يدخل على قلبه رعبا لا شفاء منه ، وحينما أرغموه هذا اليوم ، كانت الرجفة تعصف به ، وهو يرسم علامة الصليب متأهباً للانتقال إلى العالم الاخر ، أثناء زحفه هابطا إلى النهر .

واعتصر الألم قلب ميتشيك وهو يرى ظهره الأعجف ، وهزاله الذى يثير الإشفاق .

وأحنق ليفينسون مرأى لافروشكا ، فاستوقفه طالبا منه الانتظار ثم صاح بجندى منبعج الخصر (وكأن أحد جانبيه قد اشتبك بمصراع باب !) ، كان يركل لافروشكا إلى الماء :

ـــ لماذا لا تقوم أنت بذلك ؟

فرفع الرجل أهدابه البيضاء عن عينيه الغاضبتين ، وأجاب دون أن

تكون إجابته متوقعة :

ــ ولماذا لا تحاول أنت ؟

ــ ولكن ليفينسون لم يفقد هدوءه ، وهو يقول :

ــ لن أحاول أنا ... فلدى أشياء أخرى أقوم بها .. ولكنك ستنزل إلى الماء حتما ... إخلع ملابسك فورا ... ألا ترى الماء يجرف السمك بعيدا ؟ .

ولكن الجندى أدار ظهره إلى ليفينسون ، ومشى متباطئا بعيدا عن الضفة قائلا :

ــ ليذهب السمك بعيدا ... فلست عبدا لكل إنسان هنا !!.

وتابعته عشرات العيون مؤيدة ، ثم ارتدت إلى ليفينسون هازئة .
وبدأ جونشارنكو انقاذا للموقف ينزع ملابسه قائلا « يا لكم من متسكعين !! » ولكنه توقف بغتة ملتفتا ناحية ليفينسون حينما سمعه يصيح عاليا ــ على غير المعتاد ــ آمرا الجندى بأن يعود .

وكان فى نبرات صوت القائد عناد حازم .

وكف الجندى عن السير ، وقد بدأ يساوره الندم لإثارته المتاعب ولكنه كان حريصا على ألا تهبط مكانته فى عيون زملائه ، فأصر على أن يعيد كلامه : « قلت لك . . . لن أنزل »

فتقدم ليفينسون نحوه ، ثقيل الخطو ، ويده على زناد مدفعه ، وقد ضاقت عيناه ، وانبعثت منهما نظرة نفاذة ، كادت تخترق الرجل فبدا التردد عليه ، وبدأ ينضو ملابسه عن جسمه .

وصاح به ليفينسون متوعدا : « أسرع ! »

واسترق الجندى النظر حوله وقد استحوذ عليه رعب مفاجىء ، انعكس فى عجلته وإسراعه أثناء خلع ملابسه ، فتعثرت ساقه واشتبكت بالثوب ، وخشى أن يخفق ليفينسون فى فهم هذا التعثر ، ويعتبره إبطاء

فى تنفيذ الأمر ، ويطلق النار فبدأ يلهث قائلا :ـــ

ـــ لقد تعثرت ... اللعنه على السروال ... لحظة واحدة !

وحينما أدار ليفينسون بصره فى وجوه رجاله ، وجدهم جميعا يطيلون النظر إليه فى احترام ناجم عن الخوف ... ولكن ليس للحب أثر فى عيونهم !

وفى هذه اللحظة ، أدرك ليفينسون أنه قوة على رأس الفرقة ، قوة يناصبها الجنود العداء ... ولكنه كان على استعداد لمواجهة الموقف ، فهو مستيقن أن قوته ... قوة عادلة .

ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد ليفينسون يتردد حينما كان الأمر يتعلق بالحصول على الطعام أو بيوم من أيام الراحة فكان يستولى على الماشية ويغير على حقول الفلاحين وبساتينهم .

ولم يعتقد أحد ـــ حتى موروزكا ـــ أن هذا العمل ذو طابع مماثل لسرقة البطيخ من حقول ريابيتس !

ولم تكف الفرقة عن السير والترحال ..

فبعد أن قطعت فراسخ كثيرة ، عبر متعرجات الأوديج الجبلية ، لم تذق أثناءها سوى الأعناب وعيش الغراب ، استقرت فى وادى التيجر ، عند مزرعة كورية منعزلة ، تبعد عشرين فرسخا عن مدخل الإروخيدزا .

وهناك التقوا بعملاق من عمالقة الرجال ، أشعت كفراء حذائه وقد ثبت مسدسين ، أحدهما من طراز سميث ، والآخر من طراز ويسون فى حزامه . وعرف فيه ليفينسون ستيركشا وهو أحد مهربى الخمر من دوبيسخ .

وحياه ستيركشا صائحا باسمه ، وصوته يتحشرج من سعال مزمن ، وقد برزت عيناه تحت شعره الكث الغزير ، وفيهما عبوس مرير .

ــ أهلا ... أما زلت حيا ؟ ... هـذا حسن ... أنهم يبحثون عنك هنا .

ــ من يبحث عنى ؟

ــ اليابانيون ... ورجال كولتشاك بطبيعة الحال ... مَنْ غيرهم ؟

ــ أتعشم أن يسفر بحثهم عن شىء ... ولـكن هل سنجد نحن طعاما هنا ..؟

ولـكن ستيركشا أجاب ... وكلماته حافلة بالمعنى : ــ

ــ قد يعثرون عليك .. إنهم ليسوا أغبياء ... لقد أعلنوا ثمنا لرأسك ... وأذاعوا فى محافل القرى أمرا بالقبض عليك ، حيا أو ميتا وحددوا مكافأة لذلك .

ــ أهذا صحيح . . وهل هذه المـكافأة كبيرة ..؟

ــ خمسمائة من الروبلات السيبيرية .

ــ ما أبخس الثمن !... كيف نحصل هنا على بعض الطعام ؟

ــ ليس هنا شىء ... فالـكوريون أنفسهم لا يأكلون إلا «الشوميزا» ولديهم هنا خنزير يزن عشرة بودات ... يكادون يعبدونه ... إنه كل مالديهم من اللحم طيلة الشتاء .!

ولم يجد ليفينسون بدا من الذهاب لمقابلة صاحب المزرعة .

فابتدأه الرجل المرتجف ، ذو الشعر الرمادى ، والقبعة المصنوعة من الأسلاك الشائكة ، بالتوسل إليهم ... ألا يمسوا خنزيره بسوء ...

ولـكن ليفينسون ، وفى ذهنه فـكرة إطعام مائة وخمسين من الأفواه الجائعة ، حاول ــ وهو مشفق على الفلاح الـكورى ــ أن يقنعه بأن ليس أمامه خيار ، ولا مفر من الاستيلاء على الخنزير .

ولم يفهم الرجل كلمة واحدة ، وواصل ضراعته ، ضاما يديه كما لو كان يصلى ، مكرراً قوله : « لا تأكلو ... وها ... لا تفعلوا » وفى

النهاية أصدر ليفينسون أمره قائلا « لا فائدة ... أطلقوا النار على الخنزير » ثم تغضن وجهه عابساً ، كأنه هو الذى سيصيبه الرصاص وليس الخنزير !

وتغضن وجه الكورى أيضاً ثم انفجر باكيا ، وفجأة ركع على ركبتيه ، وأحنى رأسه حتى غاصت لحيته فى حشائش الأرض ، وانهال على قدمى ليفينسون تقبيلا ، ولم يحاول ليفينسون أن يحثه على النهوض ، فقد كان يخشى أن يفلت منه زمام السيطرة على نفسه ويلغى أمره السابق .!

ورأى ميتشيك كل ذلك .. واعتصر الألم قلبه ، ولم يلبث أن جرى خلف الكوخ ودفن وجهه فى القش ، ورغم ذلك فلم يستطع أن ينحى عن عينيه صورة الوجه الدامع العجوز ... والكيان الضئيل المتشح بالبياض .. الراكع عند قدمى ليفينسون ... وتساءل ميتشيك فى حيرة محمومة : « أليس من الممكن تجنب هذه الأشياء » ، ومر أمامه طابور طويل من فلاحين ... مستكينين فى إذعان ... قد انتزع منهم آخر ما لديهم من قوت .

وعاودت ميتشيك أفكاره من جديد .. « هذا بشع ... هذا بشع ... شديد البشاعة » ودفن وجهه فى القش أعمق من ذى قبل .!!

وميتشيك يعلم أنه لم يكن بقادر على اقتراف هذه الإساءة فى حق الفلاح الكورى ، لو كان الأمر متروكا إليه ولكنه شارك فى التهام لحم الخنزير مع بقية الرجال ، فهو يتضور جوعاً !!

وفى الصباح الباكر .. كان العدو قد نجح فى محاصرة ليفينسون من ناحية الجبل ، ولم يستطع ليفينسون أن ينفذ إلى وادى الإرو خيدزا إلا بعد قتال امتد ساعتين ، فقد فى وطيسه ثلاثين رجلا ، وكان فرسان كولتشاك فى أعقابه ، فاضطر إلى أن يترك خلفه كل جياد الحمل ، ولم يستطع الوصول إلى الطريق المفضى إلى المستشفى إلا بعد الظهيرة بقليل .

وهنا أحس ليفينسون بالثمن الفادح الذى تكلفه كى يظل فوق سرجه ، وأبطأت دقات قلبه وكأنها على وشك التوقف، بعد الجهد المضنى الذى بذله فى الساعات الأخيرة . وأحس برغبة جارفة فى النوم ، فأحنى رأسه . وفى الحال شعر كأنه يطفو فوق السرج ، وبدت له الأشياء ، كل الأشياء ، بسيطة ... ضئيلة الأهمية . وفجأة أيقظته انتفاضة انبعثت من داخله والتفت خلفه ... إن أحداً لم يلحظ أنه كان نائماً ... ورأى الجميع فى المقدمة ، ظهر القائد ـ كما ألفوا رؤيته دائماً ، منحنياً هذه المرة قليلا إلى الأمام . . وكيف يستطيع واحد منهم التفكير فى أنه متعب مثلهم ، وبه رغبة إلى النوم ؟ ، وساءل ليفينسون نفسه : « أستكون لدى المقدرة على المواصلة حتى النهاية ؟ »

وهز رأسه ، وشعر بركبتيه ترتجفان ، وامتلأت نفسه مرارة .

وقال دوبوف مخاطباً موروزكا حينما اقتربوا من المستشفى :

— سترى زوجتك بعد دقائق . .

ولم يجب موروزكا ، فقد كان يعتقد أن حياته الزوجية قد انتهت رغم أن الشوق إلى فاريا كان يشتعل فيه طول هذه الأيام .!

وقد فسر هذا الشوق — ممعنا فى خداع نفسه — بأنه تطلع طبيعى من جانب متفرج لا يعنيه الأمر ، يتحرق فحسب إلى معرفة « ماذا ستصنع الأيام بهذين العاشقين فاريا وميتشيك ؟ » .

ولكنه حينما رآها — وكانت واقفة إلى جانب الكوخ ، مع ستاشينسكى وخارشنكو ، وهما يصافحان الجميع — أحس إعصاراً يعصف بنفسه ، فاستمر فى الركض دون توقف حتى وصل إلى أشجار الاسفندان ،وانهمك هناك فى الاعتناء بحصانه وإرخاء أشرطة السرج .

أما فاريا فقد استغرقها البحث عن ميتشيك ، وكانت تجيب دون اهتمام على تحية العائدين ، وتبتسم لهم فى خجل، وهى شاردة الذهن . . ،

وأخيراً التقت عيناها بعيني ميتشيك ... فأومأ إليها بالتحية ، ثم تخضب وجهه خجلا ... ونكس رأسه ، فقد خشي أن تندفع نحوه مباشرة ، فيعلم الجميع ما بينهما ، ولكنها كانت من التعقل بحيث عزفت عن إبداء سرورها برؤياه .

وما أن فرغ من شد وثاق زيوشيخا فى عجلة حتى هرول إلى الغابة ، فخطا بضع خطوات ، ارتطم بعدها بصديقه العجوز بيكا ، مستلقياً إلى جوار حصانه ، وكانت عيناه الغائرتان الشاخصتان نديتين ، ودعا ميتشيك إلى الجلوس بصوت يتضح فيه الإجهاد ، فألقى ميتشيك بنفسه إلى جواره ...

— أين سنذهب الآن ؟

ولم يجب ميتشيك .

وقال بيكا حالما :

— لو واصلت السير فى طريقى القديم ... لكنت الآن أصطاد السمك .. من البحيره ... بجوار بستان النحل ... الأسماك تسبح الآن فى إتجاه التيار ... ما علىّ إلا أن أقيم مسقطا للماء ... ثم ألتقط الأسماك » .

وصمت هنيهة ثم أضاف محزونا : ولكن لم يعد هناك بستان ... وما أجمل لو كان ! ... السكون سابغ هناك الآن والنحل وسنان ..

ثم نهض فجأة متكئاً على مرفقة ، واضعاً يده على ميتشيك متحدثاً إليه بصوت يفيض التياعا :

« أصغ إلىّ يا بافل ... أصغ إلىّ يا بافل ... يا صغيرى الحبيب أليس ثمة مكان مماثل فى الهدوء ؟ ... كيف نعيش بدونه يا ولدى العزيز ... ليس لى أحد .. أنا وحيد تماما ... أنا قد بلغت من الكبر عتياً ... ومنيتى تدنو »

وخانته الكلمات ، فصمت وهو يشهق ، وأمسك بالحشائش فى نوبة من التوتر .

ولم ينظر ميتشيك إليه ، بل هو لم يكن حتى مصغيا ، ولكن عند كل كلمة من كلمات العجوز ، أحس بشيء يرتعد داخله فى وهن ، كأن أصابع خائرة تقتطف أوراقا ذبلت من شجرة نضرة .. هى روحه .. وثقلت روح ميتشيك بالأفكار «كل هذا انتهى ولن يعود أبدا» وغمره الحزن على الأوراق الذابلة . وقال لصديقه ، وهو راغب فى مفارقته «أنا ذاهب لأنام .. فأنا متعب .»

وتوغل فى الغابة ، ثم تمدد بين الشجيرات ، واستغرق فى نعاس لاراحة فيه . وما لبث أن استيقظ فجأة كأنه تعرض لهزة كبيرة ... وقلبه ينبض نبضا متلاحقا ، وقد التصق قميصه الذى بلله العرق بجسمه . وسمع خلف الشجيرات اثنين يتحدثان وعرف من صوتهما أنهما ستاشينسكى وليفينسون ، فأزاح الأغصان بحذر مختلسا النظر .

وكان ليفينسون يتكلم باكتئاب :

ــ لن نستطيع الصمود طويلا فى هذه المنطقة ، والمخرج الوحيد ناحية الشمال ، ناحية وادى تودو ــ فاكو .

وفتح حقيبة الميدان وأخرج منها خريطة :

ــ هنا ... نستطيع أن نمر عبر السلاسل الجبلية ثم نهبط محاذين الخوانيخيدزا ... إنها مسيرة طويلة .. ولكن ليس أمامنا طريق آخر

ولم ينظر ستاشينسكى إلى الخريطة ، بل سدد بصره بعيدا ، إلى السهول كأنه يقيس الفراسخ التى سيغرقها قريبا العرق المتصبب من الرجال ، ثم طرفت عيناه ونظر إلى ليفينسون :

ــ وماذا عن فرولوف ، لقد نسيته مرة ثانية .

ــ آه ... فرولوف

وتهادى ليفينسون جالسا على الحشائش ، واستطاع ميتشيك أن يرى جانب وجهه الشاحب ... أمامه مباشرة .

وقال شتاشينسكي بصوت خفيض :

— بطبيعة الحال ، أستطيع البقاء إلى جانبه .. وعلى أية حال هذا واجبي .

فأجاب ليفينسون وهو يهز رأسه :

— هراء .. سيكون اليابانيون هنا غدا . بعد الغداء على الأكثر وسيجدون في مطاردتنا ... هل من واجبك أن تُقتل ؟

— وماذا في استطاعتنا غير ذلك ؟

— لا أعرف . .

ولم ير ميتشيك من قبل مثل هذا التعبير ... من العجز ... والإذعان على وجه ليفينسون .

— يبدو أن قد بقي أمامنا شيء واحد .. لقد فكرت فيه من قبل.

وتوقف ليفينسون بغتة ضاغطا على أسنانه ، ثم صمت .

وتساءل ستاشينسكي في تطلع :

— ماذا ؟

وأحس ميتشيك أن أمرا سيئا يدبر في الخفاء ، فمال بجسمه إلى الأمام ، وكاد يكشف عن مكمنه .!

وكان ليفينسون يهدف إلى أن يفصح في كلمة واحدة ... عن الشيء الوحيد الذي بقي أمامهما ، ولكن هذه الكلمة كانت واضحة القسوة حتى أنه لم يستطع أن يرغم نفسه على النطق بها .

ونظر إليه ستاشينسكي بعينين يتألق فيهما الرعب ، والدهشة المرتاعة، فقد فهم !!

ودون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، وهما في رعبهما يرتجفان ويتلعثمان، تكلما وأسهبا ، عن الشيء الذي يفهمانه الآن والذي لا يستطيع أحدهما أن يصفه ... بالكلمة الواحدة ... التي تستطيع أن تعبر عن كل شيء

وتخلص بما من تمزقهما .

وصاح ميتشيك لنفسه « إنهما يريدان قتله » وشحب وجهه ، ودق قلبه بعنف ، حتى خشي أن يسمعه اللذان فى الناحية الأخرى من الشجيرات .

وتساءل ليفينسون عدة مرات :

ـــ إذا لم تكن هذه الضرورة !! . . وإذا لم نكن نحن . . !! وبالاختصار ... أهناك أى أمل فى تماثله للشفاء ؟

ـــ لا أمل على الإطلاق . ولكن أهذا هو الأمر الرئيسى ؟

ـــ إن هذا يجعل المسألة أهون على النفس .

وشعر ليفينسون بالخجل لمحاولته أن يخدع نفسه ، ولكنه أحس فعلا أن المسألة أخف ثقلا على النفس ، وبعد فترة قصيرة من الصمت قال فى وداعة : « علينا أن نقوم بذلك اليوم . . . ولكن خذ حذرك من أن يرانا أحد . . . وفوق كل الاعتبارات يجب ألا يعرف هو . . أمن الممكن أن يتم ذلك ؟ »

ـــ لن يعرف . . لقد أوشك وقت تعاطيه دواءه من البرومور وبدلا من البرومور ... ولكن أليس من الممكن تأجيل ذاك إلى الغد ؟

ـــ لماذا ؟ . . . وما الفرق ؟

وأعاد ليفينسون الخريطة إلى مكانها ، ثم نهض على قدمه « نحن مضطرون إلى ذلك . . لا مفر . . أليس كذلك » لقد كان يبحث دون وعى ، عن مساندة عند رجل ... هو فى أشد الحاجة إلى من يسانده !!

وقر فى نفس ستاشينسكى ألا مهرب من ذلك ، ولكنه التزم الصمت وبدأ ليفينسون فى بطء . .

ـــ أنصت إلىّ . يجب أن يتم ذلك فورا . . أأنت على استعداد ..؟ إذا لم تكن .. قل . . تكلم .

ـــ أنا على استعداد ؟ .. نعم أنا على استعداد .. استعداد .!!

وجذبه ليفينسون من ثوبه ... « هيا بنا » ... وجرجرا أقدامهما في طريق الكوخ .

أما ميتشيك فقد دفن وجهه في الحشائش ... ويداه على عينيه !!

وتساءل « أسيفعلان ذلك حقيقة ؟ »

ولم يعرف كم من الزمن قضاه وهو على هذه الحال ، ثم نهض مستنداً على الشجيرات ، وهو يترنح كالجريح ، متعقباً ستاشينسكى وليفينسون .

والتفتت الجياد برءوسها المجهدة إليه ، وقد تحررت الآن من السروج ، وهبطت حرارتها ، وكان بعض الجنود يغطون نائمين في الطريق ، وبعض آخر يطهو العشاء .

وبحث ميتشيك عن ستاشينسكى فيما حوله ، ولما لم يجده هرع جاريا في اتجاه الكوخ .

وقد اقتحم ميتشيك الكوخ في الوقت المناسب ، فستاشينسكى يقف موليا فرولوف ظهره ، ويداه المرتجفتان مرتفعتان إلى النور ، تصبان شيئاً في الكأس .

وصاح ميتشيك مندفعاً إليه ، وعيناه متسعتان رعباً :

ــ انتظر ... ماذا تفعل ؟... انتظر ... لقد سمعت كل شيء !.

وبدت الدهشة على ستاشينسكى ، ومالت رأسه جانباً ، وازدادت يده ارتعاشاً ، ولكنه ما لبث أن تقدم نحو ميتشيك وقد انتفخ وريد بارز في جبهته ، ولاح له لون قرمزى يثير الرعب .. ، متوعداً في همس مختنق : « سأقتلك !! » . فصرخ ميتشيك ، وخرج قافزاً من الكوخ ، وهو لا يكاد يعى ما يفعل !!. أما ستاشينسكى فقد استجمع في الحال شتات نفسه واستدار إلى فرولوف .

وتساءل المريض وهو ينظر مرتاعا إلى الكأس من جانب عينيه .

ــ ماذا ... ما هذا ؟

فقال ستاشينسكى بصوت عبوس آمر : «إنه دواؤك ... اشربه ... »

والتقت عيناهما ... لا تطرفان . . وكل يفهم الآخر . . وفكرة واحدة تربطهما . وجال فى ذهن فرولوف : «أهى النهاية ؟» ولم يكن مندهشاً أو خائفاً ، فقد نضبت كل عواطفه . . ولم يستشعر فزعاً أو حتى مرارة . ولاحت كل الأشياء بسيطة ، يسيرة ... بل وبدا له مستغربا ... رغبته فى إطالة آلامه ، وعناده فى التشبث بالحياة ، وخشيته من الموت ؛ فالحياة لا تضمر له إلا مزيداً من مكابدة تباريح الألم ... والموت وحده سيحرره منها جميعاً . ونظر حوله دون تصميم على شىء ، كأنه يبحث عن غائب ووقع بصره على عشائه الذى لم يمسه ، وقد استقر على كرسى قريب ؛ لبن رائب ، قد أصبح الآن بارداً ؛ وتجمع حوله الذباب .

ولأول مرة منذ أن سقط فرولوف جريحاً أشرق فى وجهه تعبير إنسانى . . قد يكون الإشفاق على نفسه أو على ستاشينسكى . ولكن ما لبث أن أغمض أجفانه . . وحينما فتح عينيه مرة ثانية ؛ كان وجهه هادئاً ممتلئاً تصميماً .

وفى بطء قال :

— إذا قدر لك أن تذهب إلى سوشان . . فقل لهم لا داعى للحزن . . فكل إنسان سينتهى حتما . . نعم كل إنسان !

وأعاد تكرار الكلمات ، وبدا كأنه لم يقتنع بعد كل الاقتناع بحتمية الموت بالنسبة للجميع ، وهو اقتناع يسلب موته كفرد ... دلالته الذاتية ، المنعزلة ... الكئيبة ... ويغرقه فى تيار عام ... من الألفة والاعتياد .

وبعد فترة من إمعان الفكر قال :

— لى ابن هناك . . فى المنجم . . اسمه فيديا . يجب أن تتذكروه حينما تنتهى الحرب ... قدموا له العون . . وما يشبه ذلك ... والآن اعطنى الكأس .

ولكنه قطع حديثه على حين غرة وصوته خافت مرتعش . وناوله ستاشينسكى الكأس، وشفتاه الشاحبتان ترتجفان ، وكيانه بأكمله يتداعى، وعينه تطرف بسرعة مخيفة ... فأمسكها فرولوف بيديه معا .. ثم شرب .
ولنعد إلى ميتشيك .

لقد هام على وجهه فى الغابة متعثرا بالأغصان الكسيرة ، دون أن يدرى لنفسه هدفا . وقد ضاعت قلنسوته وتهدلت خصلات شعره ، منفرة لزجة كخيوط العنكبوت ، حتى غطت عينه ، وكان الدم يندفع نابضا فى صدغيه ، وميتشيك يلفظ مع كل نبضة كلمة لامعنى لها ، حافلة بالإشفاق ، يتشبث بها لسانه ، فليس هناك مايتشبث به غير ذلك !

ووجد نفسه يصطدم بفاريا ، فتراجع قليلا ، وعيناه تتوهجان . وبدأت تحدثه مبتهجة : « لقد كنت أبحث عنك » ولكنها كفت عن الحديث وقد أفزعتها نظراته المجنونة .

فأمسك بيدها وهو يتكلم فى اندفاع متهدج :

— اسمعى .. لقد دسا له السم ... فرولوف ... أتعرفين ؟.. لقد .

فصاحت وقد أدركت فورا الموقف كله :

— دسا السم ؟ . . ماذا . . هدىء روعك .

وضمته فى عنف إلى صدرها ، ووضعت راحة يدها الدافئة الرطبة على فمه : « هدىء روعك .. لنذهب بعيدا من هنا » .

وانتزع نفسه من ذراعيها . ودفعها جانبا وأسنانه تصطك .

— أين ... دعينى وحدى !!

وأمسكت به مرة ثانية من ثوبه ، وأرغمته على أن يتحرك معها معيدة القول فى إصرار : « كفى ... لنبتعد .. سيروننا .. هناك شخص يحوم حول هذا المكان .. تعال .. أسرع .. »

وانتزع ميتشيك نفسه مرة ثانية وهو يكاد يضربها .

فصاحت وهى تجرى خلفه : « إلى أين تذهب ؟ . . أنتظر ! . »

وفى هذه اللحظة ، قفز سيسكين خارجا من بين الشجيرات ، فمرقت فاريا جانبا . وعدت فوق غدير ، واختفت فى أيكة من أشجار الحور .

وبادر سيسكين ميتشيك قائلا :

ـــ ماذا حدث ؟ ... ألم تسمح لك بمضاجعتها . . . قد أكون أكثر توفيقا منك . .

وضرب سيسكين فخذه بيده ، وحث السير راكضا خلف فاريا .

الفصل الثانى عشر

الـــزحفـــ

منذ الحداثة تعود موروزكا أن يرى أمثال ميتشيك من النـاس ، يخفون أفكارهم .. وهى بسيطة صغيرة ... كأفكاره هو ، خلف كلمات رنانة ضخمة ، وهم بهذا يضعون حاجزا بينهم و بين أمثاله من الناس ؛ الذين يعجزون عن إضفاء ثياب زاهية على مشاعرهم .

ولم يعرف موروزكا أن افتراضه هذا صحيح ، بل هو لا يستطيع أن يصوغه فى كلمات ، و لكنه كان يشعر دائما أن بينه و بين هؤلاء الناس سورا شاهقا من الألفاظ و الأعمال الزائفة ، المبرقشة ، لا يدرى إلا الله من أى المواد بنوه .

و يصدق ذلك فيما يتعلق بميتشيك تماما .

فهو فى صدامه بموروزكا ، يحاول إظهار انسحابه من الميدان على أنه إقرار منه بجميل موروزكا الذى أنقذ حياته !

وكانت فكرة خنق ميتشيك لمشاعره الوضيعة ، من أجل رجل لا يستحق أية تضحية على الاطلاق ، تملؤه بشجن صفوح ... بهيج مع ذلك .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان ميتشيك فى أعماقه حانقا على نفسه وعلى موروزكا ، يضمر السوء كل السوء مخلصا لموروزكا ، و لكنه عاجز عن أن يصيبه بضرر مهما تضاءل ، فجبنه يقف حائلا دون ذلك ، إذن فاستسلامه لهذا الشعور بالشجن والصفح (!!) أكثر إمتاعا لنفسه من رغبة

كسيحة فى الانتقام .

أما موروزكا فقد كان يشعر أن فاريا قد آثرت ميتشيك بحبها ، لهذه المقدرة على تجميل القبح والدمامة ، فموروزكا تنقصه هذه المقدرة ، وفاريا تعتقد أن ما يحيط بميتشيك من رونق خلاب ، نابع من جمال روحى عميق ... ولا تعرف أنه طلاء لا يتعدى السطح .

وكانت هذه الخواطر تزدحم فى رأس موروزكا حينما التقى بفاريا هذه المرة ، فألقت به وهو غير راغب ، إلى اللجة المغرقة من التفكير ، فيها ... وفى نفسه ... وفى ميتشيك .

ورأى بعينيه فاريا قد مضت بعيدا « مع ميتشيك دون شك ! » فاستعصى عليه النوم مدة طويلة ، رغم ما يزعمه لنفسه من أن الأمر لا يعنيه فى قليل أو كثير . وظل يرفع رأسه فى حذر عند سماع أى صوت خافت ، محدقا فى الظلام وهو يتوقع أن يرى شبحين يتسللان خارجين من الغابة ، فى خطو مسترق يهمس بالإثم .

ولكن النوم أغلق أجفانه رغم هذا التحفز ! ! وأيقظته ضوضاء قريبة .. فريح رطيبة تئن وهى تعصف بنيران المشاعل ، وظلال هائلة تتلوى وتملأ الفراغ .

وكانت نوافذ الكوخ تضاء ، ثم يسودها الظلام . فهناك من يشعل ثقابا ، وخارشنكو يخرج من الكوخ ويتبادل حديثا مبتورا مع شخص يخفيه الظلام ، ثم يمشى بين نيران المعسكر ، باحثا عن أحد .

وسأل موروزكا بصوت خافت : « عمن تبحث ؟ » . ولم يستطع أن يسمع إجابة ، فسأل ثانية « من هناك ؟ »

فأجاب خارشنكو بصوت مختنق « فرولوف ... مات »

وأحكم موروزكا تثبيت معطفه حول جسمه ، ثم أسلم نفسه للنوم !

وبعد أن أشرق الصباح بقليل أهال موروزكا — مع الآخرين —

التراب على قبر فرولوف دون اكتراث !

وحينما سمع موروزكا عند إسراج الجياد ، أن بيكا لا يعرف أحد له مكاناً ، وأبصر بحصانه الضئيل ، ذى الأنف المعقوف ، يقف حزينا تحت شجرة ، وعليه معالم الأسى — فسيده لم ينزع عنه السرج فى الليلة الماضية — لم يزد على أن قال :

— لقد فر العجوز الحيزبون ... لم يستطع تحمل الحياة معنا .

أما ليفينسون فقد قال مقطبا وجهه ، وهو يرزح تحت وطأة ألم فى ضلوعه يعذبه منذ الصباح :

— حسنا لا تبحثوا عنه .

ثم بدأ فى إعطاء أوامره :

— لا تنسوا العناية بالحصان . . . لا ... لا تضعوا عليه أحمالا .. أين أمين المخزن ؟ .. أكل شىء على استعداد ؟ . . . ركوبا !!

ثم تنهد بعمق . وقد عبس مرة ثانية ، وهو يرفع نفسه فوق السرج متثاقلا ، كما لو كان يحمل داخله عبئا ثقيلا ضخما ، يضفى عليه هو نفسه ثقلا وضخامة .

ولم يطف بيكا بخاطر أحد . فلم يكن غير ميتشيك وحده يحس بأنه مُنى بخسارة ، فعلى الرغم من أن العجوز كان يدخل على نفسه الضيق فى الأيام الأخيرة ، ويثير فيه الذكريات القاتمة . ألا أنه شعر ، أن قطعة من نفسه ضاعت مع بيكا .

ومرت الفرقة بمتعرجات صخرية شديدة الانحدار ، التهم الماعز البرى حشائشها ، وامتدت فوقها سماء داكنة باردة ... وهناك بعيدا عند السفح استطاع الجنود أن يلمحوا زرقة الوديان القاتمة بينما حوافر الجياد تزيح الصخور من أماكنها فتهوى منحدرة .

وأخيرا احتضنتهم أوراق السهول الذهبية وحشائشها الجافة ، وقد

غمرها هدوء الخريف ، وكأن غزلان سيبريا قد أعارت شعرها إلى الأغصان الصفراء المتشابكة .. وترنمت الينابيع .. وتألق الندى على الأشجار نقيا شفافا وقدسكبت عليه الأوراق ألوانها ..وزأرت الوحوش الضارية من الصباح حتى المساء ... وأصواتها رهيبة ، شديدة الوقع على النفس ... وبدا هذا الشحوب الذهبي يرين على السهول كأنه أنفاس حيوان أسطورى خالد .

ولنعد إلى قصتنا ..

كان جندى المراسلة الجديد ييفيمكا هو أول من شك فى أن العلاقة بين موروزكا وفاريا ليست وثيقة ... وقد بدأ شكه حينما كان يحمل قبيل راحة الظهيرة أمرا إلى كوبراك مؤداه « لاتدع ذيلك يطول حتى لا يتمكن أحد من قطعه »

فركب بشق النفس إلى نهاية الصف ، بعد أن مزقت الشجيرات الشائكة ثيابه ، وانتهت الرحلة بمشاجرة مع كوبراك ، فقد نصح ييفيمكا بألا يدس أنفه القذر تحت أى ذيل ! !

وفى الطريق لاحظ أن موروزكا وفاريا يسيران على مبعدة وتذكر أنه لم يرهما معا أبدا طيلة البارحة .

وعند العودة اقترب من موروزكا متسائلا :

ــ أرى أنك بعيد عن زوجتك .. ماسبب المشاجرة ؟

فنظر موروزكا ــ غاضبا حائرا ــ إلى وجه ييفيمكا الغليظ قائلا :

ــ أية مشاجرة ... لقد هجرتها .

فأشاح ييفيمكا بوجهه فى صمت وعبوس ، كأنه يفكر فى كلمة « هجرتها » وهل هى ملائمة للموقف ، فلم يكن ثمة رباط زوجى فعلى بين موروزكا وفاريا طيلة علاقتهما السابقة .

وقال آخر الأمر :

ــ حسنا ... هذا يحدث فى كثير من الأحوال . . . مسألة تتعلق بالحظ ... هذا ما أعنيه . . . إلى الأمام . . . يا فرسى الصغيرة .

وألهب ظهرها بالسوط فى رشاقة . وتابع موروزكا ببصره ييفيكا وقميصه الذى يملؤه الهواء ، ورآه بعد ذلك يحادث ليفينسون ثم يعود إلى مكانه .

وفى غمرة اليأس بدأت الأفكار تلهب ذهن موروزكا .. « يالها من حياة !! » وشعر بحزن أسود ، وأحس أن أغلالا تقيده ، وتحول بينه وبين أن يذرع الصف كرفاقه ، أو يتبادل الحديث مع من يركبون إلى جواره .

وفكر وهو يغبط زملاءه : « إنهم محظوظون . . . يتحركون وفق هواهم ، فلا أحزان تعضهم ... هذا ليفينسون مثلا حشرة ضخمة . . . الجميع يحترمونه ... ويعمل ما يحلو له ... هذه هى الحياة ! »

ولم تكن أمام موروزكا وسيلة للتحقق من أن ليفينسون يقاسى تباريح ألم فى ضلوعه ، وأنه ينوء بحمل مسئولية موت فرولوف ، وأن مكافأة قد رصدت لمن يقتله ، وأنه أول من يتعرض لفقد حياته .. ولكن موروزكا استحوذ على تفكيره ، مرأى الدنيا حافلة برجال أقوياء آمنين سعداء ، ولم ير نفسه إلا تعسا عاثر الحظ .

وعاودته الأفكار القديمة المضنية التى دخلت رأسه أول مرة ، ذات يوم قائظ من أيام يولية عند عودته من المستشفى ، حينما أعجب الفلاحون بحذقه فى الركوب ، وهى عين الأفكار التى سيطرت على ذهنه وتملكت زمامه حينما عبر الحقل المهجور بعد اصطدامه بميتشيك ، وحينما أبصر بغراب وحيد لا مأوى له ، حط على غصن سامق ، بل وقد اكتسبت هذه الأفكار الآن حدة جديدة ، وحيوية قاتلة جديدة لم تكن لها من قبل . وأحس موروزكا أنه خُدع فى حياته السابقة ، ولم يجد حوله الآن أيضا إلا زيفا وضلالا . ولم يعد يشك فى أن حياته منذ فارق المهد ،

ذهبت هباء بكل ماغصت به من عمل شاق عقيم ... أو عربدة مخمورة ، ولم يعد يشك أيضا فى أن كل ما سفحه من دماء وعرق أو ما اقترف من نزوات عابثة لم تجلب سعادة أو هناء ، بل كان كل ذلك جهدا مضنيا يبذله عبد رقيق دون أن يلقى تقديرا أو يتوقعه .

واصطبغت أفكاره باستسلام واهن . بل وباذعان ، يماثل إذعان العجائز للمصير . فها هو ذا قد تخطى السابعه والعشرين ؛ ولن يستطيع إرجاع لحظة واحدة من الماضى كى يحياها بطريقةمختلفه . كما أن المستقبل لا يضمر له آمالا مشرقة ؛ وقد تضع رصاصة خاتمة لكل هذه الأشياء ، وسيموت دون أن يبكيه أحد كما مات فرولوف ، وتذكر موروزكا أنه حاول جاهدا طيلة حياته أن ينتهج طريقا قويا واضحا مثل الطريق الذى يسير فيه رجال من أمثال ليفينسون وباكلانوف ودوبوف ...

وحتى ييفيمكا بدا له الان ينتهج هذا السبيل ، ولكن شيئا كان دائما يحاول أن ينأى به هو فى غلظة ، بعيدا عن الجادة ... وبطبيعة الحال لم يخطر له أبدا أن هذا العدو الذى اعترض طريقه دائما ، هو موروزكا نفسه !! فقد كان مما يدخل المرارة على نفسه . . مصحوبة بارتياح مريض ... أن يعتقد أنه كابد المشقات نتيجة لوضاعة الاخرين . . . وخاصة أمثال ميتشيك .

وظل موروزكا نهبا لأفكاره السوداء حتى حان وقت الغداء .

وبعد الغداء حينما كان يسقى حصانه من جدول ، أقبل إليه جندى تتموج خصلات شعره عليه سيماء من ينوء بأسرار جسام ، عرف فيه موروزكا سارق إبريقه ذات يوم .

وانحدرت الكلمات من فمه فى سرعة السيل .

وبدأ يثرثر : « إن مايجب أن أقوله لك . . . إن ما سأقوله لك ... ألا لتحرق اللعنه جلدها . . . أنا أقصد فاريا . . إن لى أنفا حساسا فى

هذه الأمور أيها الأخ ،

فسأله موروزكا بخشونة رافعا رأسه :

ــ ماذا ؟ ... فى أى أمور ؟

وأفاض صاحبنا فى شرحه وإن يكن قد حيره موقف موروزكا .

ــ فى النساء ... فأنا أعرف الكثير عن النساء ... ليس هذا شيئا كبير الأهمية .. لم يصبح شيئا كبير الأهمية بعد ... ولكنهن لايستطعن إخفاء أى شيء عنى أيها الأخ . . إنها لانستطيع أن ترفع عينيها عنه . ! عيناها ملتصقتان به . . إنها . .

وتخضب وجه موروزكا خجلا بعد أن تحقق من أن الآخر يشير إلى ميتشيك . ثم قال وقد نسى أنه يجب عليه التظاهر بجهل الموضوع تماما .

ــ وماذا عنه هو ؟

فأجاب الآخر بصوت خافت لاصدق فيه ، وكأن كل ماقاله لايهمه فى قليل أو كثير ، ولا هدف من ورائه إلا أن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وإلا أن يكتسب غفران موررزكا . . . « هو . . . لاشيء على الاطلاق يصدر من جانبه » .

فبصق موروزكا صارخا . . « إلى الجحيم . . هما معا . . ماشأنى بهما ؟ » ثم أضاف وفى صوته احتقار وسخرية لاذعة :

ــ قد تكون أنت الآخر ... استمتعت بمضاجعتها .

ــ اللعنة علىّ إذا كان هذا قد حدث !.. لماذا ؟... أنا ...

فصاح به موروزكا فى غضبة مفاجئة .

ــ إذهب ... إلى أمك ... إلى الجحيم بأنفك ... ضع أنفك تحت حافر الحصان .

ثم ركله ركلة عنيفة فى مؤخرته ..

وقد أفزعت ميشكا هذه الحركة المفاجئة فقفز جانبا ، وبذلك انزلقت

ساقه إلى الجدول ، وظل دون حراك فى مكانه وقد انتصبت أذناه .

وتمتم الجندى الذى نالته هـذه الركلة لاهثا فى غضب واندهاش « يا ابن الـ.... » وقبـل أن يكمل سـبابه قفز على موروزكا وتماسكا متلاحمين ، فاستدار ميشكا وركض بعيدا عنهما .

وغمغم موروزكا « سأريك ماذا تستطيع أن تفعله بأنفك ..أنت .. » وقد شدّد القبضة على الآخر من جانبيه ، وإن يكن غاضبا لأن خصمه قد تعلق به ، فعاق حركة ذراعيه ، ومنعه من أن يسدد ضربة صاعقة .

وصاح صوت مندهش من عل : « أنظر إليهم !.. ما ذا تفعلان؟ » وفصل بينهما ذراعان هائلان ، أمسكتا بطوق كل منهما ونحتاهما بعيدا . وحاولا الاشتباك ثانية دون أن يدركا ما ذا حدث فأصابت كل منهما ضربة عاتية ، طرحت واحدة بموروزكا حتى وقع على ظهره مستندا إلى شجرة ... ودفعت الثانيـة الآخر إلى أن يتعثر بجذع فيسقط فى المـاء مفتوح الذراعين !

وقال جونشاركو فى جد رصين .

ــ هات يدك ... سأساعدك .... لقد كنتما تلعبان لعبة ممتعة .

وصاح موروزكا

ــ كيف يجرؤ ؟.. هؤلاء الأوغاد يجب أن .. القتل يلائمهم تماما !!

ثم حاول أن يصل إلى غريمـه الذى وقف فى المـاء فاغر الفاه مادا يدا إلى جونشارنكو ، ضاربا بالأخرى صدره ، وهو يهز رأسه غاضبا موجها الحديث إلى جونشارنـكو وحده ، صائحا ، باكيا

« قل لى ... قل لى فقط ... قل لى فقط ، هل معنى ذلك أنه يستطيع أن يعامل كل الناس هذه المعاملة إذا أراد ... هل يستطيع أن يركل من يشاء فى عجيزته ... عجيزة من يشاء ؟ »

وحينما لاحظ أن جمعا قد احتشد حولهم واصل صياحه ..

« أهو خطأ أي إنسان ... أن زوجته ... أن زوجته ..... »

وخشي جونشارنكو إثارة فضائح . كما خشي على موروزكا من وصول نبأ اعتدائه إلى ليفينسون ، فأحكم قبضته على الجندي الصارخ ثم أمسك بيد موروزكا ونحاه بعيدا .

وقال عابسا لموروزكا وهو يجاهد لتخليص يده .

ـ تعال هنا ... سترى ... سيقذفون بك يا ابن العاهرة خارج الفرقة .

وكف موروزكا عن المجاهدة حينما تحقق من أن هذا الرجل العبوس العارم القوة ... يطوي الجوانح على حبه .

وتساءل ألماني أزرق العينين من فرقة ميتيليتسا أقبل يجري نحوهم

ـ ماذا يحدث هنا ؟

فأجاب جونشارنكو بعذوبة . لقد اصطادا دبا .

وجحظت عينا الجندي الألماني ، ووقف لحظة دون حراك ، ثم أطلق ساقيه للريح وكأنه ذاهب إلى معركة .

وكانت هذه أول مره . يرمق موروزكا جونشارنكو في تطلع باسم ، قائلا له وقد استشعر رضا ساذجا بما يتضمنه القول . أنت وحش عارم القوة ! .

وتساءل جندي النسف: « لماذا هاجمته ؟ »

فعاد موروزكا إلى ثورته ثانية .

ـ ما ذا أستطيع غير ذلك .. ؟ ... هؤلاء الأوغاد ... يجب أن ..

وقاطعه جونشارنكو مهدئا من ثائرته .

ـ إذن هو يستحق ما أصابه ... حسنا ..

وعلا صوت باكلانوف ، آمرا بالاستعداد ، ونبرات صوته تنزلق فجأة من خشونة الرجولة إلى رنين صبياني .

وهنا برز رأس ميشكا ، ذو الشعر الغزير ، من بين الشجيرات ، وصعّد الجواد البصر فى الرجال ، وعيناه البنيتان المائلتان إلى الاخضرار تشعان ذكاء ، وصهل صهيلا رقيقا .

فصاح موروزكا فى حماس : « أهلا بصديقى »

ــ ما أروع جوادك !!

فأجاب موروزكا وهو يربت عنق ميشكا فى إعزاز :

ــ أنا على استعدادللتضحية بحياتى من أجله !

وابتسم جونشارنكو ابتسامة ضئيلة أشرقت فى قتامة لحيته الكثة وهو يقول :

ــ لا تبعثر حياتك بهذا الكرم ...قد تحتاج إليها ... مازال على أن أسقى حصانى ... أراك قريبا .

ثم سار إلى حصانه بخطوات فتية واسعة !

وتعقبه موروزكا بعينين متشوقتين ، وهو يتعجب كيف أنه لم يهتم كثيرا فى الماضى ، بهذا الرجل الرائع .

وحينما اصطفت الفرقة أخذ موروزكا مكانه دون وعى إلى جانب جونشارنكو ، ولم يفارقه لحظة طيلة الرحلة إلى نهر الخوانيخيدزا .

وكانت فرقة كوبراك وقد التحق بها فاريا وستاشينسكى وخارشنكو تتقدم المؤخرة . وتبدو الفرقة بكاملها عند انحناءة السلسلة الجبلية منتظمة فى صف طويل ، وقد ركب ليفينسون فى المقدمة وجسمه مائل قليلا إلى الأمام ، وخلفه باكلانوف يقلده دون إرادة ، فيما يتخذه من أوضاع .

وأثناء الرحلة كانت فاريا تحس بوجود ميتشيك خلفها وكان حنقها من مسلكه فى اليوم السابق يشتعل داخلها ، ويكاد يخنق ما تكنه له من عواطف دافئة .. سخية .

وهى لم يغب عن بالها ميتشيك لحظة واحدة منذ أن غادر المستشفى ، ولم يملأ حياتها إلا الشوق إلى لقائه ، وقد تعلقت بهذا الشوق أشد أحلامها عذوبة، وأوثقها التصاقا بنفسها وهى لم تعترف قط بهذه الأحلام ولكنها كانت رغم ذلك أحلاما نابضة بالحياة ، مصنوعة من طين الواقع ، تكاد تلمسها بيديها..

وما أكثر ما تخيلته قادما إليها من حافة الوادى ، مرتديا قميصه الجلدى المزخرف ، رشيقا ... يسيل رقة... جميلا ، ولكن خجولا بعض الشيء... وما أكثر ما أحست بأنفاسه الحلوة على وجهها ، وبشعره الناعم المتموج بين أصابعها ، وكم صافح سمعها حديثه الرقيق العذب .

وبذلت قصارى جهدها لتنسى ما دار بينهما من مشادات ، وبدا لها أنهما لن يفترقا من جديد أبد الدهر .

وعلى وجه الإجمال ، فقد صور لها الخيال أن علاقتهما فى المستقبل ستختلف تماما عن علاقتهما الماضية .. وستصبح حافلة بكل ما تصبو إليه من بهجة ، ونحت عن فكرها كل ما قد يقع من منغصات .

وحينما التقت بميتشيك ، أدركت بفضل ما أوتيت من حساسية على استشفاف خواطر الناس ، أنه موزع الفكر ، مستثار الانفعال ؛ فلا يستطيع أن يتملك أمر نفسه أمامها ، وأدركت أيضا أن ما عصفت به من أحداث ، ذات فعالية ترجح ما أصابها من أذى طفيف . ولكنها كانت قد أبصرت خشونة لقائه فى ضوء مغاير أول الأمر ، فآذاها وأفزعها .

وخالجها لأول مرة شعور مبهم... أهذه الجفوة فى المعاملة عرضية ؟ ألا يمكن أن يكون ميتشيك رجلا غير الذى ظلت تنتظره ... أياما طويلة وليالى مسهدة ؟ .. ولكن لم يكن أمامها سواه .

ولم تجد من الشجاعة ما يكفى لأن تعترف لنفسها بذلك فورا ، فما

أوجع أن تفقد الثقة فى كل ما عاشت من أجله . فى كل ما كابدت من لوعة ... وما رشفت من سعادة ... أياما طويلة ، وليالى مسهدة !!
وما أوجع أن تنطوى الجوانح على خواء ونضوب !!

لذلك فقد أرغمت نفسها على الاعتقاد بأن شيئا لم يحدث ، وأن الجفوة نشأت عن موت فرولوف ... وأن كل شىء يمكن إصلاحه .
ولكنها ظلت تفكر منذ الصباح المبكر فى أن ميتشيك جرحها ، وأنه ليس من حقه أن يجرحها ... حينما تقبل عليه مغدقة أحلامها وحبها . !

ولم يخفف ذلك من وقدة شوقها إلى رؤيته ، وإلى محادثته ..ولكنها لم تلتفت وراءها مرة واحدة ، ولم تذهب إليه حتى عند راحة الغداء ، قائلة لنفسها : « لماذا أطارده كأننى بنت صغيرة ؟ » ... إذا كان يحبنى حقا ، كما يقول فليبدأ هو بالمجىء ... لن أوجه إليه كلمة لوم واحدة إذا جاء ... وإذا لم يجىء . . الأمر سواء ... سأظل وحيدة »

واستمرت غارقة فى هواجسها حتى اتسع الطريق الذى يخترق السلسلة الجبلية أمام الفرقة ، فانزلق سيسكين إلى جوار فاريا ، وكان قد أخفق البارحة فى اللحاق بها . ولكنه كان مثابرا فى هذه الأمور ؛ لا يستسلم لليأس بسهولة . وأحست فاريا بلمس ركبته ، وبلهاثه الفاجر فى أذنها ، ولكنها كانت فى متاهة من أفكارها فلم تعبأ به .

وأصر سيسكين على مواصلة حديثه :

— ماذا تقولين فى ذلك يا سيدتى ؟ (وسيسكين يخاطب كل فصيلة النساء بكلمة ياسيدتى) ... أنت موافقة ؟ ... نعم . هه ؟

ولكن فاريا كانت فى واد آخر ..

« أنا افهم كل شىء . هل ارهقته بمطلب ؟ .. أمن الصعب عليه أن يكون لطيفا معى ؟ .. ولكن قد يكون هو الاخر رازحا تحت آلام كبيرة لأننى غاضبة منه ... ماذا لو تحدثت إليه ؟

لا ... ليس ذلك محتملا !. أبعد ان طردني وأقصاني .؟ لا تستمر الأمور على هذا المنوال ! »

— يا سيدتي العزيزة .. هل أصابك الصمم ..؟ أنا اوجه اليك سؤالا ... أنت موافقة .. هه ؟

فاجابت فاريا :

— موافقة على ماذا ؟... أنت تعرف أين تستطيع الذهاب .

فهز سيسكين كتفيه، متظاهرا بأن جفاف الإجابة آذى شعوره الرقيق.

— هذه تحية جميلة ... لا تحاولي أن تمثلي مسرحية يا سيدتي العزيزة ... وكأن هذه أول مرة بالنسبة إليك ، أو كانك مازالت طفلة .

وبدأ من جديد يهمس في أذنها وقد اقتنع كل الاقتناع أنها سمعت وفهمت ... ولكنها تساوم .. فما هي الا امرأة كسائر النساء .. لكي تحصل على ثمن أكبر .

وهبط المساء أو كاد ... فاظلمت الأخاديد ، وشهقت الجياد متعبة ، وتكاثف الضباب فوق ينابيع المياه ، ثم زحف متثاقل الخطو منحدرا إلى الوديان .

وميتشيك مايزال بعيدا عن فاريا ، بل ومن الواضح أنه لاينتوى تجشم الاقتراب ، وكلما استقر في نفسها هذا الاقتناع ازدادت حدة شعورها بعقم أشواقها ، وبمرارة أحلامها الماضيات ، وبصعوبة أن تنتزع نفسها من هذه الأشواق والأحلام .

وحطت الفرقة رحالها ليلا في أخدود ، وتجمع الجياد والرجال في الظلال الرطيبة المرتجفة .

وسيسكين لم يزل مثابرا على غزله ، وتوقحه « لا تنسى ياسيدتي العزيزة ... نعم... سأشعل نارا صغيرة بعيدا عن الآخرين... تذكرى ذلك . »

ولم تمر لحظات حتى اشتبك سيسكين فى مشاجرة مع جندى آخر ، وارتفع صياحه .

ـــ ماذا تعنى بسوالى أين كنت ؟... ماذا تفعل أنت نفسك هنا .. سادا الطريق ؟

ـــ أين أنت ذاهب ؟ ... ليست هذه فرقتك !

ـــ ماذا تعنى بأنها ليست فرقتى ؟ افتح عينيك جيدا !

وبعد فترة من الصمت ، فتح كل منهما أثناءها « عينيه جيدا » قال الجندى الذى كان يجادل سيسكين معتذرا :

ـــ اللعنة !! فرقة كو براك حقيقة !.. ولكن أين فرقة ميتيليتسا ؟

وبعد أن شعر أن اعتذاره قد ذهب بخطئه، صاح بصوت ذى نبرات مستطيلة : ميتـ ـيلـ ... يتسا ..!!

وارتفعت من وهدة مجاورة صيحة غاضبة ، منبعثة من رجل ، تنم صيحته على أنه إما سينتحر وإما سيبدأ فى تقتيل الآخرين ، إذا لم يلق مطلبه استجابة ....!! « أشعلوا النار ... قلت لكم »

وفى قاع الأخدود ، أضاءت نار على حين غرة ، فاختطفت من براثن الظلام : رؤوس الجياد ذات الشعر الغزير ، ووجوه الرجال المتعبة ، وكلها ينعكس عليها وميض كاب من البنادق ، وأحزمة الذخيرة .

فاتجه ستاشينسكى وفاريا وخارشنكو إلى أحد الأركان ثم ترجلوا .

وأعلن خارشنكو فى ابتهاج أنهم سيستريحون ويشعلون نارا ، ولكنه لم يلق استجابة من الآخرين .

ومع ذلك فقد استطرد : « لنذهب جميعا ... ونجمع أحطابا ... فرقتنا لا تتوقف أبدا فى الوقت المناسب ... لذلك فما أكثر ما نقاسى !! »

وبسط حجته بصوت لا إقناع فيه ، ويداه تضربان الحشائش على

غير هدى . وكان يقاسى آلاما حقيقية من الرطوبة والظلام ، والفزع من أن تلدغه أفعى ، ومن صمت ستاشينسكى ،هذا الصمت المكتئب :

ـــ أنا اذكر أننا حينما ارتحلنا عن سوشان ، حدث لنا شيء مماثل ... كان يجب أن نتوقف فى وقت أكثر تبكيرا ، لقد كان الظلام حالكا ولكننا ...

وساءلت فاريا نفسها :

ـــ لماذا يتحدث عن كل ذلك الآن ؟ ... سوشان ... وارتحالهم عنها .. وحلوكة الظلام .. من يريد أن يصغى إلى ذلك ؟ لقد انتهى كله الان .. ولن يحدث شيء .

وكانت جائعة ، وأضاف جوعها إلى ما تحس به من فراغ أخرس مدمر ، لايستطيع شيء فى العالم أن يملؤه . ولم تستطع أن تحبس دموعها .

ومهما يكن من شيء ، فحينما أكلوا ، واصطلوا النار مستدفئين ، تبدل الحال ، وأصبح ثلاثتهم أكثر ابتهاجا ، وبدت الدنيا التى كانت فى أعينهم مظلمة السوداء ، جافية ، باردة ، أكثر إشراقا وألفة ودفئا .

وصاح خارشنكو فى صوت ينم على الشبع ، وهو يفك حزمته :

ـــ هذا هو معطفى العتيق العظيم ... إنه لايحترق بالنار ولا يغرق فى الماء ... وإذا شاركتنى فيه امرأة ... فلن يكون ذلك أمرا سيئا »

وغمز بعينه .. ضاحكا .

وعادت فاريا إلى أفكارها .

« لماذا أقسو على الغلام ؟ » ، وشعرت بطبيعتها الوديعة ، وسجيتها المتوددة ، ترتد إليها مرة ثانية نتيجة للنار البهيجة ، والوجبة الشهية ، وحديث خارشنكو الطلى .

ـ لم يحدث شيء خارق ... مع كل ذلك ... فماذا قلب كيانى إلى هذه الدرجة ؟ ... والغلام المسكين يقبع هناك يقاسى الوحدة من أجل حماقتى ... ما على إلا أن أذهب إليه. فتعود المياه إلى مجاريها .

وشعرت فجأة بعزوفها عن أن تتمادى فى النفور منه ، وعن إساءة الظن به ، فذلك يصيبها ، هى نفسها ، بألم ولوعة ..

وهنا كل الرفاق مغتبطون حولها ، لا يثقلون رءوسهم بشيء ، وهى أيضا يجب أن تنعم بالسعادة دون تصديع الرأس بالتفكير . وبين لحظة وأخرى عقدت العزم على أن تنحى كل شيء جانبا وتذهب إلى ميتشيك دون إبطاء ... ولم تعد ترى فى ذلك أى انتقاص لكرامتها .

وفكرت وقد استحوذ عليها سرور مفاجىء :

ـ لا أريد منه شيئاً ... آه لو كان راغبا فى ، عاشقا لى .. !! ، لو بقى إلى جوارى .. لمنحته كل شيء .. ما أجمل أن يركب بجوارى دائما ، ويتحدث إلى ، ويضاجعنى ... فهو فى نضرة الشباب ... فتان الرشاقة !!

وكان ميتشيك وسيسكين قد انتحيا جانبا ، وأشعلا نارا وهما على جانب كبير من الكسل ، فلم يطهوا طعاما ، وقنعا بشواء شريحة سمينة من اللحم ، وهاجماها سويا فى حماس ، ناسيين أن ثمة شيئا اسمه الخبز يأكله الناس ، وما أن فرغا من عشائهما حتى أحسا بالجوع من جديد !!

ولم يكن ميتشيك قد استفاق تماما من صدمتى موت فرولوف واختفاء بيكا ، فهو قد أنفق يومه مختنقا ، يحس بالغثيان ، سابحا فى ضباب من خواطره الداكنة الأليمة عن الوحدة والموت . وعند المساء بدأ هذا الضباب ينقشع ، ولكنه كان راغبا عن رؤية الآخرين . بل وخائفا منهم جميعا .

واستطاعت فاريا أن تصل إلى نارهما الخافتة بعد عناء ، وكان

الأخدود كله ، لاتضيئه إلا أشباه هذه النيران ، حيث يغنى الرجال فى ستر من الدخان .

فاستقبلها سيسكين مرحبا ، مكشرا عن أنيابه ، فى غبطة

— لقد افتقدناك ... أجلسى أيتها السيدة العزيزة ... اجلسى .

ونحى معطفه جانبا ، داعيا إياها إلى الجلوس بجانبه ، وقد تلظت حرارة أشواقه إلى لحمها ، ولكنها لم تقبل دعوته ؛ فقد نفرت من ابتذاله كل النفور ، وكانت قد أحست من قبل هذا الابتذال بغريزتها دون أن تدرك كنهه تماما .

ثم تكلمت بانفعال يسرى فيه نغم رتيب ، مختصة ميتشيك وحده بكلماتها ، ودون أن تخفى أنها أقبلت من أجله ... وحده :

— لقد جئت كى اطمئن عليك ... مادمت قد نسيتنا ونسيت كل شىء عنا ... سأل خارشنكو عنك ... وعن صحتك وقال « لقد كان ميتشيك جريحا ، جرحا بالغ الخطورة ، ولكن يبدو أنه قد تماثل للشفاء » ... ولن أتحدث عن اهتمامى انا .

وهز ميتشيك كتفيه ولم يقل شيئا .

أما سيسكين ، فقد صاح ، محولا الحديث إلى نفسه فى شغف

— أخبريهم أننا فى أحسن حال ... لاشك فى ذلك ... ثم أردف :

— ولكن تعالى هنا . . اجلسى ياسيدتى ... لاتكونى خجولة !!

— يكفى ذلك ... لقد جئت كى أمكث لحظة ... لقد مررت عرضا .

وشعرت بأنها أهينت ، لقد جاءت من أجل ميتشيك ، وهو لم يزد على هز كتفيه ، ولكنها أضافت :

— أرى انكما لم تأكلا شيئا ... إن وعاء طعامكما نظيف شديد النظافة !!

وعبس سيسكين قائلا فى تذمر لا مبرر له :

ــ وماذا هنا يصلح للأكل؟... إنهم لا يعطوننا ما نستطيع ابتلاعه بل يوزعون أشياء لا يعرف ما هي إلا الشيطان ... تعالى ... اجلسى إلى جانبي .

وحثها على الجلوس مرة ثانية ، وقد استيأس فى إبداء كرم ضيافته، ثم أمسك بيدها ، وجذبها نحوه :

ــ اجلسى ياسيدتى ... اجلسى ... ألا تجلسى ؟

وجلست على معطفه .. إلى جواره . وغمز سيسكين بعينه قائلا

ــ أنت تذكرين وعدك .. هه ؟

وتساءلت فى قلق « أى وعد ؟ » وقد أوشكت أن تتحقق مما يرمى إليه . وقالت لنفسها « ما كان يجب أن أجىء ». وبدأ ينمو داخلها شعور خانق ثقيل .

ــ ماذا تقصد ؟ .. أى وعد ؟ ... ياسلام !! سأخبرك بعد لحظة يا سيدتى .

ثم اتجه فى عجلة إلى ميتشيك ، وقد وضع يده على كتفه قائلا : « رغم أنه ليس من الحكمة مشاطرة الأسرار » ، ثم استدار ثانية إلى فاريا : « ومع ذلك ... »

فأجابت بابتسامة مغتصبة ، وعيناها تطرفان بسرعة ، وبدأت تسوى شعرها بأصابع مرتجفة ، قائلة « أسرار ؟.. استمر !! »

وهمس سيسكين متعجلا فى أذن ميتشيك « لماذا بحق الشيطان تظل جالسا هنا كالقفل ... لقد رتبنا كل شىء معا ... وأنت ... » وابتعد ميتشيك عن سيسكين ، ثم ألقى نظرة سريعة على فاريا وقد تخضب وجهها وبدت نظرتها الغائمة تعتب عليه وكأنها تسأله « حسنا ... هل يسرك ذلك ؟... أترى ماذا يحدث ؟ »

ثم غمغمت بمجرد أن التفت إليها سيسكين ، وكأنه يعرض عليها

أمرا مخجلا مزريا « لا .. لا .. أنا ذاهبة ... لا ..لا »

ونهضت مدبرة ، بخطوات سريعة متقاربة .. « لا..لا..أنا ذاهبة» وقد انحنت رأسها إلى الأرض ، ثم ابتلعتها أطواء الظلام .

وفى غضب ، انبعث فحيح سيسكين ، ممتلئا بالحنق على ميتشيك

— لقد أفسدت كل شىء .. أيها الأخرق .

ثم هب واقفا بغتة ، كأن قوة عاصفة استيقظت داخله ، واندفع خلف فاريا عدوا .

ولحق بها ، ثم احتضنها بذراعيه فى عنف وجذبها إلى ما بين الشجيرات قائلا : « تعالى أيتها السيدة العزيزة ... تعالى أيتها الفتاة الصغيرة »

وتوسلت إليه : « دعنى ... اتركنى وحدى ... سأصرخ » ، وهى خائرة ، موشكة على البكاء ، ورغم ذلك فقد أحست أن ليس لديها المقدرة على الصياح ، بل وبأن ليس ثمة داعيا إلى الصياح الآن .. فلماذا يجب أن تستنجد ... ومن أجل من تضن بنفسها على الآخرين ؟

واستطرد سيسكين واضعا يده على فمها ، وقد اشتعل اشتهاؤه : « هلمى ياسيدتى العزيزة ... لماذا الصياح ؟ »

وكانت تفكر ... متعبة مضناة ... « هذا صحيح .. لماذا يجب أن أصرخ .. وما فائدة ذلك ... الآن ؟ ... ولكن هذا الرجل هو سيسكين البغيض ... سيسكين .. فلماذا استسلم له ... أوه .. ولكن ما الفرق؟ »

وفى واقع الأمر ... لم تعد تكترث بشىء !.

الفصل الثالث عشر

أعبـــاء

موروزكا يتمايل فوق السرج فى تراقص إيقاعى ، وكلما رفع ميشكا ساقه الأمامية اليمنى ، ضرب موروزكا أوراق الأشجار الصفراء المتألقة بسوطه ، ضابطا انتظام الإيقاع :

« أنا لا أحبهم ... هؤلاء الفلاحون ... بكل بساطة أنا لا أطيقهم ومازلت أذكر زيارتى لجدى العجوز ، لقد كان لى هناك اثنان من الأعمام يحرثان الأرض . لا أنا لا أطيقهم ... إنهم لا يماثلون رفاقنا ، فدماؤهم مختلفة ، إنهم بخلاء ... وماكرون فوق ذلك . هذه حقيقة »

وهنا أخطأ موروزكا إصابة الشجرة بسوطه ، فضرب به حذاءه ، حتى لا يختل النغم :

« وماذا يفيدهم هذا البخل وهذا المكر ؟ » ، ثم رفع رأسه « إنهم لا يمتلكون أى شىء يستحق الذكر ، ماهم إلا متسولون . »

ثم ضحك متخذا هيئة متفرج ، حسن النية ، يشفق على إملاق الفلاحين .

وكان جو نشارنكو مصغيا ، وقد استقرت عيناه على الفجوة التى بين أذنى حصانه ، وأشرق فيهما تعبير ينم عن أناة وذكاء ، يلائمان رجلا يجيد الإصغاء والتفكير فيما يسمع . ولكنه قال دون توقع :

« ولكنني أظن ... لو انك نزعت القشرة السطحية عن أى واحد منا» واكد كلمة « منا » ناظرا إلى موروزكا — « أنا أو أنت أو دوبوف فستجد داخل كل منا فلاحا .. نعم ستجد فلاحا » ثم كرر فى إقتناع :
« فلاح بكل خصائص الفلاح .. ما عدا الحذاء الليف !! »

وتساءل دوبوف ، مستديرا نحوه « عن أى شيء تتحدث ؟ »

— أو قد يكون بحذاء الليف أيضا ... لقد كنا نتحدث عن الفلاحين ، وقد قلت إن فى كل واحد منا فلاحا .

فقال دوبوف متشككا : أهذا صحيح ؟

— وكيف يكون الأمر خلاف ذلك ؟ موروزكا يقول إن له فى القرية جدا ، وزوجا من الأعمام ، وأنت ..

— ياصديقى ... ليس لى أحد هناك ، وشكراً لله على ذلك . فأنا لا أحب هذه السلالة ، وأقر بذلك . خذ كوبراك على سبيل المثال .. إنك لا تتوقع من كل إنسان أن يكون ذكيا ، ولكن انظر إلى الذين وضعهم فى فرقته .

ثم بصق دوبوف فى احتقار !

وقد حدثت هذه المناقشة فى اليوم الخامس من أيام الزحف ...

حينما وصلت الفرقة إلى منابع نهر الخوانيخيدزا ، وكان الجنود يذرعون طريقا شتويا عتيقا ، مغطى بحشائش غليظه ذابلة . وعلى الرغم من أن آخر ما بقى لديهم من فتات الخبز قد نفد مع كل ماحمله أمين المخزن ، منذ مبارحة المستشفى ، فقد كانوا جميعا هادئى البال ، فالراحة والمأوى على مقربة منهم .

وتساءل موروزكا غامزا بعينيه : « أسمعت ما قال ؟ .. إن دوبوف على علم بالأمور ، أليس كذلك أيها الرجل العجوز ؟ »

ثم ضحك وقد أدهشه وأدخل على نفسه السرور ، أن يتفق معه قائد

الفرقة وليس مع جونشارنكو .

وهنا أجاب جندي النسف دون أن يغضب : « ليست هذه هى الطريقة التى يجب أن نتكلم بها عن قومنا ... حسنا ، ليس لك أقارب فى القرية ... ولكن ليس هذا هو الموضوع .. فلم يبق لى ، أنا الآخر ، أحد هناك أيضا ، ولكن انظر إلى رجال منجمنا .. لقد جئت أنت من جبال الأورال .. هذا صحيح . ولكن ، ماذا عن موروزكا على سبيل المثال ... إنه لم ير شيئا تقريبا ما عدا منجمه »

فتساءل موروزكا غاضبا: «ماذا تعنى بأنى لم أر شيئا على الإطلاق؟. فى الجبهة لقد ... »

فقاطعه دوبوف ملوحا بيده : « أصمت ... ودعه يكمل كلامه » وأكمل جونشارنكو قوله بهدوء :

ــ ليس منجمك إلا قرية . والدليل الأول أن لكل فرد هناك حديقة خاصة ، ونصف رجالنا يأتون للعمل شتاء ، ثم يعودون إلى قراهم صيفا . حتى الغزلان هناك تصبح كالخنازير فى الحظيرة .. لقد زرت منجمكم ورأيت هذه الأشياء »

فتساءل دوبوف مندهشا دون أن يستطيع متابعة جونشارنكو « أتقول قرية ؟ »

ــ ماذا غير ذلك ؟ زوجاتكم تثرثر فى الحدائق ، وكل جيرانكم فلاحون .. ألا تعتقد أن لهذا تأثيرا ؟ إن له تأثيرا بطبيعة الحال .

وبحركته المعتادة ، لوح بيده كما لو كان يقطع الهواء !

وقال دوبوف مترددا « إن لذلك تأثيرا بطبيعة الحال» ، وهو يسأل نفسه : « أفى ذلك ما يغض من مكانة آكلى الفحم » ؟ .

ــ إذن فهذا صحيح .. والان لننظر إلى المدن ... هل مدننا كبيرة؟ ... وهل لدينا الكثير منها ؟ تمتد آلاف الفراسخ ولا شىء غير

القرى ... أليس لذلك تأثير ؟

فقال دو بوف وقد اختلط عليه الامر :

— انتظر ! هل تقول آلاف الفراسخ ؟ ولا شيء غير القرى ؟ نعم .، أنت على صواب فيما تقول .. ولذلك تأثير بكل تأكيد .. ولكن ماذا يترتب على هذا الأمر ؟

— كل ذلك ينتهى إلى نتيجة واحدة ... فى كل منا شيء من الفلاحين .

وهكذا عاد جونشارنكو إلى نقطة انطلاقه ، وقد رد على كل ما أثاره دو بوف من اعتراضات .

وهنا صاح موروزكا فى اعجاب : « لقد وضع الأمر كله فى صدفة صغيرة » . فلم تكن المناقشة تعنى موروزكا منذ تدخل فيها دو بوف ، إلا من ناحية سرعة بديهة المتناقشين :

— لقد هزمك أيها الصديق الهرم ، ولم تستطع أن ترد الضربة !!

ومضى جونشارنكو فى تفسيراته دون أن يعطى دو بوف فرصة للاستفاقه . « يدلنا كل ذلك على أننا .. وأنت أيضا يا موروزكا ، لايجب أن نختال زهوا أمام الفلاحين ... فدون الفلاحين .. » وهز رأسه ثم صمت . وكان من الواضح أن كل ما سيقوله دو بوف بعد ذلك لن يدفعه إلى تغيير رأيه . وفكر موروزكا وهو يختلس النظرات إلى جونشارنكو ... واحترامه له يتضاعف قائلا لنفسه : « ياله من شيطان بارع الذكاء !! ... لقد طارد الرجل العجوز حتى سجنه فى ركن لم يستطع منه فكاكا » ، وموروزكا قد تحقق من أن كل انسان معرض لارتكاب الأخطاء وليس جونشارنكو استثناء لذلك، فموروزكا لم يكن متأكدا على الإطلاق من أنه يحمل داخله قطعة من فلاح (!!) رغم أن جونشارنكو متأكد من ذلك . ومهما يكن من شيء فموروزكا يثق

بجندى النسف أكثر من ثقته بأى شخص آخر . فجونشارنكو فى عين موروزكا ، كان « واحدا من الأولاد » ، وهو رجل «يفهم» وفوق ذلك فهو لا ينزلق إلى الثرثرة الجوفاء وليس متمسكا . فيده القائمة الكبيرة تتحرق دائما إلى العمل ، وهى تبدو عند الوهلة الأولى بطيئة الحركة ، ولكنها فى الواقع حاذقة بشكل رائع ، وحركاتها دقيقة محكمة .

ووصلت العلاقة بين موروزكا وجونشارنكو فى هذه المرحلة الأولى إلى مرتبة الصداقة الحقيقية . وقد علق زملاؤهما على ذلك قائلين : « إنهما يلتحفان معطفا واحدا ، ويأكلان من طبق واحد » .

وأدى ارتباط موروزكا اليومى بجونشارنكو الى أن يعتبر نفسه جنديا ينخرط عن وعى فى صفوف الأنصار . فبدأ يولى جواده عناية أكبر ، ويهتم بعداته ، وينظف بندقيته ويصقلها حتى تلمع كالمرآة ، وكان دائما فى طليعة الاخرين عند العمل ويمكن دائما الاعتماد عليه ..!! وبدأ يكسب حب الزملاء واحترامهم . وقد جره ذلك دون وعى إلى الحياة القويمة التى بدا له انجونشارنكو يمارسها .. وهى حياة لامكان فيها للافكار الفارغة ... العقيمة .

وعلى غير انتظار صاح الرجال الذين فى المقدمة « قفوا .. قفوا..» وسرى الأمر حتى شمل الصف كله ، وتوقف الرجال الذين فى المقدمة ، أما الذين فى المؤخرة فقد واصلوا السير قاصمين السلسلة الممتدة .

ثم تلا ذلك أمر ثان « نادوا ميتيليتسا » ، وبعد ثوان ركض ميتيليتسا طائرا ، منقضا كالنسر ، وأعين الفرقة كلها تتبعه فى زهو غير مقصود ، معجبة ببراعته فى الركوب ... هذه البراعة المتوارثة عن أجيال من الرعاة . ولا علاقة لها بمدارس الركوب العسكرية .

وقال دوبوف : « يجب أن أذهب لأتبين جلية الأمر »

وعاد بعد قليل غاضبا ، ولكنه يحاول أن يخفى غضبه . قائلا وهو يكبح جماح نفسه ، ودون أن ينجح فى إزالة النبرات التى تنم على الغضب والجوع فى صوته . « ميتيليتسا ذاهب فى جولة استطلاعيه .. أما نحن فسنقضى الليلة هنا » .

وصاح الرجال من حوله :

ــ كيف ذلك ؟.. دون طعام ؟... ما ذا يظن الذين أصدروا هذا الأمر ؟..: أيسمون تلك راحة ؟

وانضم موروزكا إليهم قائلا : « حظ عاثر » .

وكان الرجال الذين فى المقدمة قد ترجلوا فعلا .

وقد قرر ليفينسون أن يعسكروا هذه الليلة فى الوادى ، لأنه لم يكن مقتنعا أن العدو لا يحتل المنابع الدنيا لنهر الخوانيخيدزا . ومهما يكن من شىء ، فهو يأمل ، حتى إذا كان العدو رابضا هناك فى إمكان تحسس الطريق إلى وادى تودو ــ فاكو حيث الوفرة من الخيل والحبوب .

وكانت آلام ضلوعه التى لا تطاق تمضه طيلة الرحلة ، وازدادت تباريح الألم يوما بعد يوم؛ وهو يعلم أن الألم الناجم عن التعب والأنيميا ، لا تشفيه إلا أسابيع من الراحة والغذاء الصحى .

ولكنه كان مستيقنا من أن وقتا طويلا سيمر ، قبل أن يستطيع الاستمتاع بالراحة أو الطعام ، فجهد طيلة الرحلة أن يوطن نفسه على هذه المشقة الجديدة ، مؤكدا لنفسه ، أن الأمر ليس إلا « توعكا عارضا» طالما عاناه من قبل ، وأنه لذلك لن يستطيع إعاقته عن إنجاز مايعتقد أن مسئوليته تستوجب إنجازه من عمل .

وكوبراك يكرر للمرة الرابعة ، دون أن يصغى إلى ليفينسون :

« قلت إنه يجب أن نواصل المسير » ،وهو يحدق فى حذائه المصنوع من الفراء وقد استحوذ عليه إصرار عنيد، يرفض أن يرى شيئا خارج

رغبته فى أن يأكل . ولم يكن أمام ليفينسون بدا من القول :

ــ حسنا .. تستطيع أن تواصل السير ، إذا لم تستطع الانتظار . ولكن ليس ثمة مبرر لإلقاء الفرقة بأكملها إلى التهلكة .

وقد أوحت لهجة ليفينسون بأن كوبراك قد ارتضى فعلا هذا المسلك ثم أكمل حديثه : « يحسن أن تتقدم وتتفقد أمر مواقع الحراسة أيها الأخ ! » ، متجاهلا ملاحظة يود أن يضيفها كوبراك ، ولكنه أدرك أن كوبراك يمعن فى إلحاحه ، فعبس فجأة متسائلا فى تجهم : « ماذا ؟ »

ورفع كوبراك رأسه ثم طرفت عيناه .

واستطرد ليفينسون ، وفى صوته رنة سخرية خافتة : « أرسل داورية من الفرسان تهبط الوادى ، وأقم مواقع للحراسة على مبعدة نصف فرسخ من المؤخرة ، عند الجدول الذى عبرناه ... أليس هذا واضحا ؟ »

فغمغم كوبراك موافقا ، وهو يعجب لماذا نطق بالموافقة بدلا من أن يقول ما كان يتحرق إليه ، وهمس لنفسه : « ياله من وتد لعين » ، وقد روض الاعجاب بليفينسون ، وما امتزج به من رثاء لنفسه ، كراهيته الدفينة لهذا الرجل .

وقد استرجع ليفينسون حديثه مع كوبراك ، حينما هب من نومه فى قلب الليل ، كعادته فى الأيام الأخيرة . فأشعل سيجارة ومضى يتفقد مواقع الحراسة .

وقد حاول ألا يطأ معاطف الرجال النائمين ، وهو يشق طريقه عبر النيران الخابية . وكانت النار التى على أقصى اليمين أكثر النيران توهجا فقد قبع إلى جوارها حارس المعسكر ، مادا يديه مستدفئا ... ومن الواضح أن فكره قد حلق بعيدا ؛ فقبعته المصنوعة من الفراء قد انزلقت إلى مؤخر رأسه ، وعيناه متسعتان حالمتان ، وشفتاه مفترتان عن بسمة طفولة وادعة . ونطق ليفينسون بما يدور فى خلده : يكفى أن ينظر الانسان

إليه ، معبرا عن شعور غامض يمتزج فيه الابتهاج والاشفاق ، عند مرأى هذه النيران الزرقاء الخابية ، وهذا الحارس الباسم ، وعند توقع الأخطار الكامنة التى تنتظره فى الظلام .

وواصل سيره ، مسترقا الخطو فى إعياء ، لا لأنه كان يود أن يظل فى استخفائه ، بل لأنه لم يرد أن يطفىء الابتسامة على شفتى الحارس ، الذى ظل سابحا مع أفكاره ، مبتسما للنار .

وذكرته هذه النيران — التى ينعكس ضوؤها الخافت على الجياد وهى تلوك حشائش السهل بين أسنانها — بليالى طفولته مع الخيل فى الحقول ، وبالمروج الندية يحتضنها نور القمر ... وبصياح الديكة قادما من بعيد حيث القرية ... وبالقطيع يرعى آمنا ، وبصلصلة القيد فى أرجل الماشية ، وبتوهج النار وزفيفها أمام عينيه المتعجبة ... لقد همدت هذه النار الآن منذ زمن طويل ، ولكنها لا تزال مشتعلة فى ذاكرة الحارس . اكثر توهجا من النار التى أمامه .

ولم يكد ليفينسون يغادر المعسكر ، حتى أطبق عليه ظلام رطب شذى . وغاصت قدمه فى أرض رخوة . وعبق الجو برائحة الأعشاب والأشجار وفكر قائلا « مفزع حقا ! » وهو يتلفت خلفه .. فلم يعد يرى توهجا ذهبيا ، بل خيل إليه أن المعسكر جميعه بحارسه الباسم ، قد ابتلعته الأرض . وتنهد ليفينسون تنهدا عميقا ثم مضى على طول الطريق ومشيته تنم على هدوء بال لا يستشعره حقا .

وسرعان ما سمع خرير الجدول النعسان ، فوقف بضع دقائق دون حراك ، مصغيا إلى همس الوادى المظلم ... ثم أضاءت وجهه ابتسامة ، وأسرع فى خطوه ، متعمدا أن تصدر أقدامه صوتا مسموعا .

وجاء صوت راجف من الظلام : « من هناك ؟ ... من هناك ؟»

وعرف ليفينسون صوت ميتشيك فتقدم نحوه دون أن يجيب ، وسمع

فى هدأة الظلام صرير مزلاج البندقية ؛ وقعقعة رصاصة توضع مكانها؛ بل وكاد ليفينسون يبصر يدى ميتشيك وحركتها المحمومة وهما تحاولان تثبيت الرصاصة .

وقال ليفينسون بلهجة جافة : « يجب أن تعنى بتشحيمها أكثر من ذلك . » فتنفس ميتشيك الصعداء قائلا : « أنت ؟!! ... أنا أهتم بتشحيمها ... ولكننى لا أعرف ماذا أصابها .. »

ونظر إلى القائد فى حيرة ؛ وأعاد بندقيته إلى وضعها الأول ، ناسيا أن المزلاج ليس فى مكانه !

وكانت نوبة ميتشيك فى الحراسة هى النوبة الثالثة ؛ التى تبدأ عند منتصف الليل . ولم تمض نصف ساعة حتى تلاشى وقع أقدام قائد النوبة فى إيابه إلى المعسكر .

وبقى ميتشيك وحيدا مع أفكاره ؛ مغتربا فى عالم فسيح ، يتحرك داخله كل شىء فى بطء وتلصص ؛ وتحيا كائناته حياة غريبة فى ترقب وتحفز إلى الافتراس .

ولم يشغل ذهنه طول هذا الوقت إلا فكرة واحدة ، لم يدر متى أو أين طرأت ، ومع ذلك ظلت تعاوده وتلح عليه ، مقتحمة طريقها خلال كل الأفكار الأخرى ، وهو يعرف أنه لن يستطيع أن يفضى بها إلى أى إنسان . وهو يعرف كذلك أنها فكرة شريرة مخجلة ... ولكنه يعلم أيضا ، أنه لن يتخلى أبدا عن هذه الفكرة ، ولن يدخر وسعا فى تحقيقها ... لقد كانت آخر شىء له ... لقد كانت كل ما تبقى له .

وهذه هى الفكرة : يجب أن يفر من هذه الفرقة ، بأية وسيلة ، وبأية حال وبأسرع وقت !!

وبدت له حياته السالفة فى المدينة ، وهى التى يسعى لمعاودتها الآن ، سعيدة ، خالية من الهموم . بل الحياة الوحيدة الممكنة أمامه ، وتعجب

من أنه تخيلها ذات يوم كـثيبة مضجرة !!

وحينما عرف فى القادم ، قائده ليفينسون ، أخذته الحيرة ؛ لا لأن بندقيته لم تعد صالحة للعمل ، بل لأن هذه الفكرة استولت عليه دون إرادته .

وقال ليفينسون فى هدوء ، فما زال مرأى الحارس الباسم ، يمنع سورة الغضب من أن تتملكه :

ــ أنت جندى .. ممتاز !!... أليس مخيفا بعض الشيء ، أن تقف هنا وحيدا ؟

فغمغم ميتشيك مضطربا :

ــ لا ... لماذا ؟... لقد اعتدت ذلك .

ــ أما أنا فلا أستطيع اعتياده ... لقد استيقظت وحيدا عدة مرات ، وركبت منفردا ليلا ونهارا ... وما زال ذلك مخيفا بالنسبة إلى ... حسنا .. أكل شيء هادىء هنا ؟

فرد ميتشيك بالإيجاب ، وهو ينظر إليه فى اندهاش .. وخجل !

ولكن ليفينسون استطرد معلقا ، لا على كلمات ميتشيك فيما يبدو ، ولكن على ما يستتر خلفها :

ــ هذا جميل ... سترى أن الأمور سوف تبدأ فى التحسن ... آه لو استطعنا النفاذ إلى وادى تودو ــ فاكو ...! ... هناك أفضل . هل تدخن ؟... لا ؟

فأجاب ميتشيك فى عجلة ، وهو يتذكر الطباق ، هدية فاريا إليه «لا ... بل فى بعض الأحايين» ، رغم أنه يعرف أن ليفينسون ليس فى استطاعته أن يدرى شيئا حتى عن مجرد وجوده .

ــ ألا تحس أبدا برغبة فى التدخين ؟ ... لقد عرفت محاربا باسلا من محاربى الأنصار ، اسمه كانونيكوف ، لا يستطيع أن يصبر ساعة

واحدة عن التدخين .. ترى هل وصل سالما إلى المدينة ؟

وتساءل ميتشيك ، ووجيب قلبه يسرع ، كأن فكرة غامضة ومضت فى ذهنه :

ـ لماذا ذهب إلى هناك ؟

ـ لقد بعثت به حاملا رسالة ... والطريق حافل بالمخاطر الآن... فوق أنه يحمل تقريرا .

وتحشرج صوت ميتشيك وهو يقول محاولا أن يجعل كلماته تبدو عرضية :

ـ ولكنك تستطيع أن ترسل أحدا آخر ... ألا تفكر فى إرسال أحد ؟

فتساءل ليفنسون متحفزا : « لماذا ؟ »

ـ مجرد سؤال . . . إنك إذا . . . فأنا أستطيع حمل رسالتك إلى هناك ... فأنا أعرف المدينة جيدا .

فتلعثم ليفينسون وهو يفكر أثناء كلامه :

ـ لا ... لا أعتقد ولكن ... ألك أقارب هناك ؟

ـ لا ... ولكن كان عملى فى المدينة ... إن لى أقارب بطبيعة الحال ولكن ليس هذا هو السبب ... لا ... تستطيع الاعتماد علىّ ... حينما كنت أعمل فى المدينة ، كان على أن أحمل دائما أوراقا سرية .

ـ مع من كنت تعمل ؟

ـ لقد كنت أعمل مع الاشتراكيين الثوريين ... وفى هذا الوقت لم أجد غضاضة فى ذلك .

ـ ماذا تقصد بأنك لم تجد غضاضة ؟

ـ أقصد أننى لم أجد غضاضة فى العمل مع من كنت معهم .

ـ والآن ؟

فأجاب ميتشيك فى خور ، وهو لا يعرف ماذا يجب أن يقول

— والآن لا أعرف من على صواب ، ومن على خطأ .!!

وتلعثم ليفينسون قائلا « ه ... كذا ! » وكأنه كان يتوقع كلمات ميتشيك كل التوقع ، ثم أضاف :

— لا ... لا . . أنا لا أفكر فى إرسال أحد إلى المدينة .

فانفجر ميتشيك فى حزم هستيرى مفاجىء ، وصوته يرتعش :

— لا ... سأقول لك ما الذى يدفعنى إلى ذلك .. ولكن لا تظن بى الظنون ... ولا تشك فى أنى أخفى شيئا ... سأكون صريحا معك .. !

وعقد العزم ، بينه وبين نفسه ، على أن يخبر قائده بكل شىء وأحس بأنه راغب حقا فى الإفضاء بكل شىء ، رغم أنه لم يعرف بعد أينبىء مسلكه عن تعقل أم عن حماقة .

— دفعنى إلى هذا الاقتراح ... اعتقادى بأنى لا أصلح جنديا ... لا فائدة منى ، ومن المستحسن أن ترسلنى بعيدا . لا تظن أنى خائف أو أضمر شيئا . . فليس هناك إلا عجزى عن إتقان أى عمل ... وعجزى عن فهم أى شىء . وهذا هو السبب فى إخفاقى أن أجد صديقا واحدا ... صديقا واحدا .. ليس لى من أسأله عونا . وليس هذا خطئى ... أليس كذلك ؟ لقد فتحت قلبى للجميع ، ولكنى لم أقابل إلا بالجفاء والاستهزاء والاحتقار رغم أنى خضت المعركة معهم جميعاً .. وأصبت بجراح بالغة ... كما تعلم . أنا لا أصدق أحدا ... لو كنت أقوى لاستمعوا إلىّ ، وخافوا منى ... فهذا هو الشىء الوحيد الذى يفهمونه هنا . لا أحد يتعدى تفكيره حشو أمعائه حتى لو اضطر إلى سرقة رفاقه ... لا أحد يهتم بشىء آخر ويخيل إلى ، أنهم لو وقعوا غدا فى أسر كولتشاك ، لخفوا سراعا إلى خدمته .. ولواصلوا معاملة بعضهم بهذه القسوة نفسها ولكن أنا ...

أنا لا أستطيع أن أكون مثلهم !!

وبدا لميتشيك أن كل كلمة قالها ، أحدثت منفذا فيما يحيط به من ضباب ، وأن هذه الكلمات تندفع خلال المنافذ ، فتتسع ثغراتها ، وأحس لذلك بارتياح . وود أن يتكلم ويسترسل فى الكلام ، غير عابئ بما قد يخطر عند ليفينسون من أفكار !!

ولكن ليفينسون همس لنفسه : « إذن فانت من هذا المعدن !!.. يا للارتباك ! » ، وقد إشتدت لهفته على معرفة ما وراء اندفاع ميتشيك ... ثم تكلم آخر الامر ، ممسكا به من ثوبه :

— انتظر قليلا ..

وراود ميتشيك شعور طاغ ، بأن عينى ليفينسون الواسعتين السوداوتين مثبتان عليه :

— ما أكثر ما قلت ، أيها الأخ ، حتى جعلتنى عاجزا عن الفهم . لنقف عند هذا الحد ، ولنناقش أكثر الأمور أهمية ... لقد قلت إن الجميع هنا لا يفكرون إلا فى حشو أمعائهم

وصاح ميتشيك: «لا .. لا ... لقد أردت أن أوضح » ... فهو على يقين من أن ذلك ، ليس أكثر الأمور أهمية على الإطلاق ، فأكثرها أهمية هو أن حياته أصبحت لا تطاق ، وأنه يعانى عسف الآخرين جميعا ، وأنه يتحدث عن كل هذه الأشياء بحماس متدفق ..

ولكن ليفينسون قاطعه مترفقا .

— انتظر أنت الآن ... لقد جاء دورى فى الكلام ... لقد قلت إن الجميع هنا لا يعنيهم إلا حشو بطونهم ... وإنهم إذا وقعوا فى أسر كولتشاك ...

— لا ، لم أقل شيئا عنك .. أنت شخصيا .

— لا فرق . . . لقد قلت إنهم إذا وقعوا فى أسر كولتشاك

فسيحاربون إلى جانبه بهذه القسوة .. وهذه الآلية .. ألم تقل ذلك ؟..
ولكن ما تقول خطأ كل الخطأ .

وبدأ ليفينسون يدلى بحججه التقليدية التى تدعم ما يذهب إليه ...
وكلما طال حديثه ، كلما إتضح . أن كلماته ضائعة عبثا . وقد جعلته اعتراضات ميتشيك ، وما أفصح عنه ، أثناء مقاطعته له ، يتحقق من أنه كان يجب أن يتحدث عن الأشياء البديهية ، الجوهرية ، الأشياء التى فهمها هو منذ البداية دون صعوبة على الإطلاق ، وأصبحت الآن قطعة من لحمه ومن دمه

ولم يكن الوقت مناسبا للحديث عن هذه الأشياء ، فكل لحظة تتطلب عملا سريعا حاسما .

وانتهى الأمر بأن قال ليفينسون فى صراحة لا تخلو من عطف وإشفاق :

ــ لن أستطيع أن أفعل شيئا من أجلك . ليس ثمة من تقع عليه اللائمة سواك . ولن تستطيع الذهاب إلى أى مكان ، فليس هذا إلا حماقة . إنهم سيقتلونك ... هذا كل ما فى الأمر . يجب أن تعيد التفكير ... وخاصة فيما قلت لك . قد يفيدك ذلك .

فأجاب ميتشيك مكتئبا ، وقد تبخرت فجأة الطاقة النفسية التى حدت به إلى الإفصاح عن نفسه ، فى ذلاقة وجسارة :

ــ هذا كل ما أفكر فيه !

ــ وقبل كل شىء ، لا تعتقد أن رفاقك أسوأ منك ... إنهم ليسوا كذلك .

وأخرج ليفينسون كيس طباقه متأنيا ، وبدأ يلف لنفسه سيجارة ، وميتشيك يرقبه فى عزوف ويأس .

ودون توقع قال ليفينسون : « من المستحسن أن توصد مزلاج

بندقيتك» ، وكان من الواضح أن هذا المزلاج الذى لم يوصد شغل ذهنه طيلة الحديث قبل أن يبدى ملاحظته ... !

— لقد حان الوقت كى تعتاد هذه الأشياء ... فأنت لست فى منزلكم .. كما تعلم .

وأشعل ثقابا ، فأضاء عينيه اللتين تكادان تغفيان ؛ وأهدابهما الطويلة ، وفتحتى أنفه الرقيقتين ، ولحيته الجرداء الضاربة إلى الحمرة :

— وبهذه المناسبة ... كيف حال فرسك ؟ أما زلت تركبها ؟

— نعم .

وأنعم ليفينسون التفكير ، ثم قال :

— حسنا ... سأدعك تركب « نيكفا » غدا ... هل تعرفها ؟ لقد اعتاد بيكا أن يركبها ... وستسلم أنت زيو شيخا إلى أمين المخزن ... أيرضيك ذلك ؟

فأجاب ميتشيك يائسا : « نعم ... يرضينى . »

وخطا ليفينسون غائصا فى الحشائش ... خفيف الخطو ، حذرا ، وقد ومض فى ذهنه أن ميتشيك رفيق مختلط الفكر ، ثم جذب أنفاسا سريعة من سيجارته ... لقد كانت هذه المناقشة صدمة أصابته ، وقر رأيه على أن ميتشيك خائر كسول ضعيف الارادة ... فلماذا يولد أمثال هؤلاء التعساء المساكين فى هذه البلاد ؟ ... بينما يعيش ملايين الناس حياة شظف وإملاق ... تحت شمس متباطئة تطيل يوم العمل فى استرخاء ... وهم يحرثون الأرض بمحاريث بدائية من الخشب ، ويؤمنون بإله عتيق ... غشوم أخرق ... فلماذا يولد هؤلاء الكسالى ، خائرو الإرادة ... هؤلاء الذين لا نفع فيهم ؟ ... ثم جذب أنفاسا ، سريعة شديدة السرعة ، من سيجارته .

وكان ليفينسون مستثارا ، فهذه أشد أفكاره عمقا ، وأوثقها

ارتباطا بنفسه ، فالمعنى الذى أعطاه لحياته ، لا يتعدى التغلب على هذا الابتذال وهذه التعاسة ... فاذا لم تتأجج داخله رغبة عاتية ، تعصف بسائر الرغبات الأخرى ... فى أن يعيش ليرى الناس أشد قوة . وأعمق حبا ... وأبهى جمالا ... لما أصبح كما هو الآن . بل شخصا آخر . ولكن كيف يداعبه الأمل فى أن يرى الإنسان الجديد ... الثرى بالقوة والحب والجمال ... وهناك ملايين غفيرة ، مرغمة على أن تواصل حياة قاسية ... بدائية ... مبتذلة ؟

واستحوذ على ليفينسون شعور بالدهشة حينما عاد بفكره إلى ميتشيك . « أكان من الممكن أن أصبح مثله على الإطلاق ؟ » ، وحاول أن يتذكر نفسه أيام طفولته وشبابه الأول ، وكان ذلك عسيرا كل العسر . فما أشد كثافة مرحلة عمره الأخير ، وامتلاءها بالأحداث !.. لقد اكتمل نضوجه فيها وأصبح هو « ليفينسون » ... تلك الشخصية المحددة المعالم التى يعرفها الجميع ... والرجل الذى يسير دائما فى الطليعة .

ولم يستطع أن يتذكر بوضوح إلا صورة قديمة لطفل نحيل ، تشع عيناه الواسعتان حبا وإخلاصا ، يرتدى « جاكتة » سوداء ، ويتطلع فى حدة تثير الدهشة ، لا تصدر عن الأطفال ، إلى بقعة من « الكاميرا » أخبروه أن طائرا صغيرا جميلا سيطير منها .

ولم يخرج الطائر بطبيعة الحال ... وتذكر أنه كاد يبكى لإخفاق أمله ولكن ما أكثر ما عانى الإخفاق بعد ذلك ، حتى تحقق آخر الأمر من أن الحياة لا تسير بهذه الطريقة !

وفهم أن هذه الأقاصيص الكاذبة عن طيور صغيرة جميلة ، ستطير من هنا أو من هناك ، وهى فى واقع الأمر لن تطير أبدا ... رغم أن الكثيرين يفنون عمرهم فى انتظارها أدت إلى شقاء هائل ، وآلام

مبرحة ... لا ... ليس فى حاجة إلى هذه الطيور الجميلة ، وقد خنق فى نفسه كل هذا التحرق الحلو ... العقيم ... إلها ... وكل ما ورثه عن الأجيال الماضية التى تربت على هذه الأقاصيص الكاذبة ... عن طيور صغيرة ... جميلة ، وهمية .! ووصل ليفينسون آخر الأمر ، إلى أكثر أنواع الحكمة بساطة وصعوبة .. أن يرى الأشياء كما هى ، لكى يغيرها جميعاً ويسرع بميلاد كل ما يجب أن يولد .

— ولكن رغم كل شىء ، لقد كنت صلب العود ... أكثر صلابة منه .

وراودته هذه الفكرة يصحبها شعور من الابتهاج الظافر يستعصى على التفسير ، وعلى التوقع ، وعلى الفهم ... « لم أكن راغبا لحسب فى الكثير ، بل لقد استطعت أن أفعل الكثير ... وهذا هو الأمر المهم . »

ومضى مخترقا قلب الوادى ، والأغصان الندية الباردة تغدق على وجهه انتعاشا ، فاستشعر دفقة مباغتة من القوة ، خيلت إليه أنها تحمله إلى قمم عالية . وأنه من هذه القمة الإنسانية التى تنتمى إلى الأرض يستطيع السيطرة على جسمه الضعيف وعلى مرضه .

وحينما وصل إلى المعسكر ، كانت النار قد خبت تماما ، وانطفأت الابتسامة على وجه الحارس ، فهو منهمك فى الاهتمام بجواده ، متلفظ بالشتائم واللعنات .

وشق ليفينسون طريقه إلى ناره التى لم تنطفىء بعد ، وقد تمدد إلى جوارها نائبه باكلانوف ، متدثرا بمعطفه ، مستغرقا فى سبات عميق . وألقى ليفينسون إلى النار ببعض الأحطاب والأغصان ونفخ فى لهيبها بأنفاسه . واستشعر بعد ذلك صداعاً ناجماً عما أصابه من نصب ، وأحس باكلانوف بالدفء ، فتحرك فى نومه متلمظا ، وبدا وجهه الذى لا يغطيه

الدثار، عابس الفم فى تجهم كتجهم الأطفال ، ومالت قلنسوته على صدغه واستقرت هناك منتصبة ، وكان فى وضعه هذا يشبه جرواضخما ، أكل حتى الشبع ثم نام وادعا !

وتطلع إليه ليفينسون فى ابتسام وحب ، فما أروح لنفسه أن يرى باكلانوف بعد الحديث إلى ميتشيك !

وتمدد بجوار باكلانوف ، وبدأ غطيطه ، فما كاد يغلق عينيه حتى أحس بأن رأسه تدور وتدور ، وأنه يطفو بعيدا إلى مكان ناء ، ولم يعد يعى أن لجسمه ثقلا ... حتى سقط فجأة فى هوة سوداء لا قرار لها .

الفصل الرابع عشر

رحلة ميتيليتسا .. الاستكشافية

حينما أرسل ليفينسون ميتيليتسا مستكشفا ، أمره أن يعود هذه الليلة ، مهما تكن الحال . ولكن القرية التي يستهدفها الراعي كانت أكثر بعدا مما افترض ليفينسون .

وقد غادر ميتيليتسا الفرقة حوالى الساعة الرابعة عصرا ، وقطع أكثر الطريق راكضاً ، وقد انحنى جسمه على عنق الجواد كأنه نسر من جوارح الطير . ومنخاراه الرقيقان يتسعان فى اغتباط ونزق كأنه نشوان من ركضه المجنون ، بعد خمسة أيام من الركود المضنى .

وشحب لون النهار وما زال حفيف الحشائش ، فى الوادى الذى هبط عليه الخريف ، يصل إلى مسامعه ذائبا فى ضوء بارد كاب ، يشيع جنازة النهار المحتضر .

وحل الظلام وتكاثف ... وخرج ميتيليتسا آخر الأمر من الوادى واقترب بجواده من حظيرة عتيقة متداعية ، تهدم سقفها وبدا أنها ظلت مهجورة طيلة سنوات .

وأوثق جواده ، ثم تسلق على كتل منهارة من الخشب ، حتى وصل إلى ركن أعلى الحظيرة ، وهو يكاد يسقط فى ثغرة سوداء ... هى السقف وانبعثت من هذا السطح روائح تثير الغثيان متصاعدة من خشب متآكل وحشائش عفنة ، ووقف هناك وقد ثنى ركبتيه محدقا فى الليل ، مصغيا

إلى همسه ، وكله ترقب وانتباه . وطالت وقفته حتى استغرقت ما يزيد على عشرة دقائق ،وقد امتزج هيكله بسواد الغابة خلفه ، فلاح كأنه نسر من جوارح الطير .

وامتد أمامه واد عابس تتخلله الأخاديد والحشائش ، وتعتصره سلسلتان من الجبال البركانية ، وكأنهما تظلانه من سماء تنفث العداء .

وقفز ميتيليتسا هابطا إلى سرجه ثم انطلق فى الطريق ، ومنعرجاته السوداء لا تكاد تظهر بين الحشائش العالية . وارتفعت سيقان الأشجار النحيلة ، تشع بياضا ناصعا ، كأنها شموع انطفأت .

وواصل عدوه حتى بلغ تلا صغيرا ، امتد على يساره صف داكن من المرتفعات الصخرية، منحنية كظهر حيوان أسطورى هائل ، وتناهى إلى مسامعه خرير الماء فى نهر ... وعلى مبعدة فرسخين .. اشتعلت نار صغيرة قد تكون على ضفة النهر، أعادت إلى ذهن ميتيليتسا حياة الراعى وما يحيط بها من عزلة ... وفى البعيد ، عبر الطريق ، تألقت أضواء صفراء تنبعث من قرية ، أما الجبال التى على اليمين فقد تضاءلت مختفية فى ظلام داكن الزرقة ... وهبطت الأرض منحدرة فى هذا الاتجاه ... فقد يكون هناك وادٍ لنهر قديم . تحيط بضفته غابة قاتمة الظلال .

واستنتج ميتيليتسا أن هنا أرضا مطروقة . وأحس بالبرد يخترق قميصه العسكرى ، الذى ضاعت أزراره ، وظل مفتوحا عند العنق . ويخترق كذلك « جاكتته » العسكرية وهى أيضا مفتوحة عند الصدر . فقرر أن يسعى فورا إلى النار ، فانتزع مسدسه من غمده ، وأخفاه فى حزامه تحت « الجاكته » ، وأخفى الغمد داخل حزمة خلف السرج . ولم تكن لديه بندقية ... وقد بدا الان فلاحا عائدا من الحقل ؛ فكثير من الفلاحين كانوا يرتدون ملابس عسكرية ، بعد الحرب مع ألمانيا .

وكاد يصل إلى النار ، ولكن صهيلا مرتاعا اخترق الظلام ،

فاندفع حصانه إلى الأمام ، وهيكله الوثيق البنيان يرتجف ، صاهلا فى استجابة حزينة منتحبة ، ووثب ظل عبر اللهب بغتة ، فانهال ميتيليتسا على حصانه بالسوط ، ولكنه تراجع .

وإلى جانب النار وقف غلام نحيل ، أسود الشعر ، وعيناه تحدقان مرتعبتين ، ممسكا سوطا فى إحدى يديه ، رافعا الأخرى كما لو كان يدافع عن نفسه ، وقد تدلى كمه فضفاضا ، وكان يلبس حذاء من الليف وسراويل ممزقة ، و « جاكتة » طويلة تتهدل عليه ، وحولها حبل من التيل . وتقدم ميتيليتسا بجواده غاضبا حتى كاد يرتطم بأنف الغلام . وأوشك أن يطرحه أرضا صائحا فى وحشية ، حينما أبصر فجأة بالعينين المرتاعتين فوق كمه المتهدل الفضاض ، والسراويل التى تكشف عن ركبتيه العاريتين . و « جاكته » الرثة التى لا بد أن يكون سيده قد خلعها عليه ، وبالرقبة الصبيانية النحيلة التى تبرز من الجاكته فى ذعر يثير الرثاء .

فصاح به ميتيليتسا :

ـــ لماذا تقف هنا ؟ ... هل أصابك الرعب ؟ ... أيها الشيطان الصغير ! أيها الغبى الصغير !

وقد ترقرقت فى صوته الحائر ، نبرات يمتزج فيها الحنان والغلظة معا ، يقصرها على معاملة خيله ، ولا يخاطب بها الرجال إطلاقا !!

ـــ تقف هنا وكأنك فى نوبة حراسة ..! . وماذا لو ألقيت بك أرضا ؟ ما أغباك !..

وكرر كلماته ، والحنان يفيض فى لهجته وقد استيقظت فجأة عند مرأى الصبى وتعاسته ، مشاعر تماثل ما يحيط بالصبى من بؤس وغرابة وطفولة !..

وبدأ الصبى يستفيق من الصدمة ، فأنزل ذراعه قائلا :

— لماذا تنقض علىّ كالصقر ؟

وهو يحاول أن يحاكى تعقل الكبار وثباتهم . . ولكنه لم يتخلص بعد من ارتعاشه :

— أى إنسان يدخل الرعب قلبه ... لدّى خيل هنا .

فأجاب ميتيليتسا فى بطء ساخر :

— خيل ! ... أهذا هو الأمر ؟

ثم وضع يديه فى خاصرتيه ، ومال إلى الوراء ، ناظرا إلى الصبى بعينين على وشك الاغماض ، وقد عقد ما بين حاجبيه ، وهما ناعمى الشعر ، سريعى الحركة ، ثم انفجر فجأة ضاحكا بصوت عال صادر من القلب ، يمتلىء حنانا واغتباطا ، حتى لقد أدهشته هو نفسه هذه الأصوات التى تهدر من فمه .

وضحك الصبى ضحكة خافتة وهو لم يزل حذرا مستريبا ، ولكن سرعان ما تحقق من أن ليس هناك ما يخشاه ، بل على النقيض أصبح كل شىء مضحكا إلى درجة كبيرة ، فاتخذ وجهه تعبيرا ضاحكا حتى كادت أنفه تقفز خارج وجهه ، ثم انفجر فى قهقهة صبيانية ، رفيعة الصوت ، متخابثة .

وجعلت هذه الاستجابة المفاجئة ميتيليتسا يغرق فى الضحك بصوت أكثر ارتفاعا . وابتعث كل منهما فى الاخر رغبة جديدة فى الضحك واستمر ذلك عدة دقائق ، ميتيليتسا يهتز على السرج إلى الأمام وإلى الخلف والغلام قد استلقى على ظهره واستند على راحة يديه ، وقدماه يضربان الهواء عند كل نوبة من نوبات الضحك .

وأخيرا ... قال ميتيليتسا وهو ينتزع رجله من الركاب «لقد جعلتنى أضحك كل هذا الضحك . . . أيها الرجل الصغير » ثم قفز إلى الأرض وهو يمد يديه إلى النار قائلا : «أنت ولد فكه ... فى الواقع»

وكف الصبي عن الضحك ؛ ونظر إليه فى اندهاش رزين مغتبط .
كأنه يتوقع منه خدعة أخرى تستعصى على التصديق . ثم قال وهو
ينطق كل مقطع من مقاطع كلماته بعناية واهتمام كأنه ينطق الحكم
الأخير .

ــ أنت شيطان مرح .

ــ أنا ؟ ... نعم أنا مرح أيها الأخ !

واعترف الصبي :

ــ لقد كنت خائفا . . . فلدى خيل هنا . . . وكنت أطهو
بعض البطاطس .

وجلس ميتيليتسا إلى جانبه وهو يزل ممسكا بسرجه :

ــ بطاطس ؟ ... هذا جميل ... ومن أين أتيت ببطاطسك هذه ؟

ــ أين ؟ ماذا ؟ ... ثمة كومات منها .

ولوح الصبي بذراعيه مشيرا إلى ما حوله .

ــ أتعنى أنك سرقتها ؟

ــ طبعا !... دعنى أمسك لك حصانك ... أهو مهر ؟.. لا تخف !
إنه لن يهرب منى ... إنه حصان جميل .

وألقى نظرة خبير إلى جسم الجواد المتناسق التركيب ، وإلى رشاقته
وعضلاته ثم استطرد :

ــ من أين أقبلت ؟

ووافقه ميتيليتسا على ما يتعلق بحصانه . . : « إنه ليس حصانا
رديئا ... ومن أين أقبلت أنت ؟ »

وأومأ الصبي برأسه فى اتجاه القرية قائلا :

ــ من هناك . . . خوانيخيدزا . . . هذه هى قريتنا .. ليس فيها
إلا مائة وعشرون منزلا ... لا أكثر ولا أقل .

وكان واضحا أنه يردد كلاما سمعه من الناس ، ثم بصق !!

ـــ هذا حسن ... وأنا من فوروبيوفكا ... بعد الجبل ... هل سمعت عنها ؟ .

ـــ فوروبيوفكا ؟ ... لا ... إنها بعيدة جدا ، أليس كذلك ؟

ـــ نعم ... إنها بعيدة .

ـــ ولماذا جئت إلى هنا ؟

ـــ آه .. حسنا ... إنها قصة طويلة أيها الأخ . كنت أفكر فى شراء بعض الخيل من هنا ... يقولون إن لديكم الكثير منها ... أنا أحب الخيل .. أيها الأخ .

ثم قال فى مكر رائع : « لقد أنفقت عمرى وأنا أعنى بها .. ولكنها كانت خيل الآخرين . »

فأجاب الغلام :

ـــ أنت لا تعتقد أن هذه خيلى أنا ... أليس كذلك ؟... إنها خيل سيدى .

ومد الغلام يدا نحيلة قذرة خارج كمه ، ثم دس مقبض سوطه فى رماد النار بحركة حاذقة ، فتدحرجت ثمار سوداء من البطاطس خارج اللهب .

ـــ قد تكون جائعا .. هه ؟... لدى بعض الخبز ... ولكن ليس الكثير !

وألقى ميتيليتسا بكذبته ، واضعا حافة يده عند عنقه :

ـــ شكرا . لقد امتلأتُ بالطعام حتى هنا .

ولم يتحقق إلا الآن من أنه شديد الجوع !

وشق الصبى واحدة من البطاطس ، ثم نفخ فيها ، وألقى بنصفها إلى فمه ـــ مع قشرتها ـــ ولاكها بلسانه ، وبدأ يمضغها فى شهية متضورة ،

وأذناه الدقيقتان تتحركان مع المضغ .

ونظر إلى ميتيليتسا أثناء مضغه ، وهو يقول بطريقته الجازمة التى قررت قبل ذلك أن ميتيليتسا شيطان مرح : «أنا يتيم ... لى ستة شهور من اليتم الآن ... قتل القوزاق والدى ... وقد اغتصبوا أمى ثم قتلوها أيضا ... وبعد ذلك قتلوا أخى»

واستيقظ ميتيليتسا فورا متسائلا : قوزاق ؟

— نعم ... لقد قتلوهم جميعا دون سبب ... ثم أحرقوا المنازل ، ليس منزلنا وحده .. بل ما يزيد على اثنى عشر منزلا ... وهم يأتون هنا كل شهر .. فى القرية حوالى أربعين منهم الآن ... وفى راكيتنوى — وهى قرية كبيرة مجاورة — هناك فرقة كاملة منهم مكثت طول الصيف ... ما أبشع ما يرتكبون من جرائم .. !! .. إليك بعض البطاطس !

— لماذا لم تهرب حتى الان ؟ ... أنظر ما أضخم الغابة حولك !

ورفع ميتيليتسا نفسه قليلا كى يرى الغابة .

— وما نفع الغابة ؟... إنك لا تستطيع أن تقضى فيها كل عمرك وستغرق فى أحد مستنقعاتها ... فهى شديدة الاتساع والعمق !

وصح ماتوقعه ميتيليتسا ! ... ثم قال وهو ينهض :

— خذ حصانى فى رعايتك قليلا .. حتى أذهب إلى القرية ماشيا ، فأنا أرى أنه من السهل أن يفقد الانسان كل ما معه هناك ... دون أن يشترى شيئا !

وأجاب الراعى الصغير بصوت تشيع فيه خيبة الأمل ، وهو ينهض أيضا : «لماذا تتعجل الرحيل ؟ ... امكث قليلا ... ما أشد الملل هنا وأنت وحيد !!»

وصاحبت ضراعته ، نظرات باكية تشع من عينين واسعتين فيهما

توسل ودموع !

وبدا الأسف على ميتيليتسا وهو يقول : «لا أستطيع أيها الأخ .. لقد حان وقت التسلل والدنيا ظلام ... ولكننى راجع حالا ... يجب أن نوثق الجواد ... أين يقيم رئيسهم فى اعتقادك ؟ »

وشرح له الغلام كيف يصل إلى المنزل الذى يمكث فيه قائد الكتيبة وأوضح له أن خير طريق يمر عبر الحدائق الخلفية .

— هل هناك كثير من الكلاب ؟

— نعم هناك الكثير ... ولكنها ليست متوحشة !

وشد ميتيليتسا وثاق جواده ، وودع الراعى الصغير ، ومضى مخترقا طريقا محاذيا للنهر ، وتبعه الغلام بعينين حزينتين حتى اختفى فى الظلام !

وبعد نصف ساعة وجد ميتيليتسا نفسه على مقربة من القرية وانعطف الطريق إلى اليمين ، ولكنه سار على هدى نصيحة الراعى الصغير فمضى قدما ، عابرا حقلا انتهى فيه الحصاد حتى وصل إلى السياج الذى يحيط بحدائق الفلاحين ، ثم اخترق هذه الحدائق .

وكانت القرية نائمة ، قد انطفأت كل أنوارها ، وفى ضوء النجوم الخافت تكاد العين تلمح أسقف الأكواخ الضئيله محملة بالوقود ، داخل البساتين النائمة الخاوية ، وشمل المكان عبير الأرض الرطبة وقد شق جوفها المحراث !! وتخطى ميتيليتسا حارة ثم حارة ونفذ إلى الثالثة ، وحيته الكلاب نابحة نباحا متقطعا ، مبحوح الصوت ؛ وكأنها هى نفسها ينتهبها الخوف ! ، ولم يخرج أحد لملاقاته ، فأدرك أن القرية قد تعودت على كل شىء ... على وجود غرباء لا يعرفهم أهل القرية يتجولون أنى شاءوا ويقترفون مايعن لهم !! ... ولم يصادفه عشاق يهمسون فى هدأة الليل ، ومرآهم يتوقعه المرء أثناء هذا الوقت من

السنة ، إبان موسم الزواج ، فلا أحد يهمس بالحب فى الظلال الكثيفة التى تلقيها ضفائر الأغصان ... على سياج البساتين ... هذا الخريف !!

وظل ميتيليتسا سائرا على هدى توجيه الراعى الصغير ، فتخطى حارات أخرى وطاف حول كنيسة القرية حتى وصل آخر الأمر إلى سور ذى طلاء ، لحديقة القسيس . فقائد الكتيبة مقيم بمنزل القسيس ، و تلفت ميتيليتسا حوله ثم أرهف السمع ، ولما لم يجد مايريب قفز دون صوت معتليا السور .

وكان البستان كثيفا بالأشجار والشجيرات رغم تساقط الأوراق . واتجه ميتيليتسا إلى قلب البستان ، وهو يحاول أن يقمع نبضات قلبه العالية ، وقد كف أو كاد عن التنفس . وانتهت الشجيرات عند ملتقى ممرين ، وأبصر يساره بنافذة مضاءة على مبعدة أربعين ياردة .

وكانت النافذة مفتوحة ... وهناك رجال جالسون فى الداخل ... وانسكب ضوء هادىء عذب على الأوراق التى تساقطت ، وسبحت أشجار التفاح ، بأغصانها العارية فى نور ذهبى شاحب .

وتحقق ميتيليتسا أن العدو دان منه ، فتقلصت إحدى وجنتيه فى توتر ، واستحوذت عليه حرارة تتلظى ، أشعلها شعور عارم متدفق ، من الاستيئاس الجسور ، طالما دفعه إلى أشد الانتصارات استعصاء !!

ورغم أنه لم يكن متأكدا من إفادة أحد ، من استراقه السمع ، بجوار الغرفة المضيئة ، غير أنه عقد العزم على ألا يبارح مكانه دون أن يقوم بذلك ، فلم تمض دقائق ، حتى كان واقفا خلف شجرة تفاح تلتصق بالنافذة مصغيا رهيف السمع ، محاولا أن ينطبع فى ذاكرته كل ما يقال .

كان ثمة أربعة منهم يلعبون الورق على مائدة فى وسط الحجرة والى اليمين بالنسبة إلى ميتيليتسا جلس قسيس عجوز ضئيل الجسم ، له شعر ناحل ، عليه طبقة خفيفة من الدهان ، وعينان كعينى فأر . وكانت

يداه الرقيقتان تنزلقان على المنضدة فى حذق ، وهما ترتبان الأوراق بأصابع ماهرة دقيقة كأصابع الدمية .

وبدأت عيناه تختلسان النظر إلى كل ورقة يوزعها ، وبدا كما لو كان متواطئا مع جاره ، الذى يجلس موليا ظهره إلى ميتيليتسا ، وهو يتناول كل ورقة فى تفحص عابر ، يمزقه التوتر ، ويخفيها فورا تحت المائدة . وفى مواجهة ميتيليتسا جلس ضابط وسيم ، ممتلىء الجسم فى استرخاء ، عليه سيماء الطيبة ، واضعا غليونا بين أسنانه . وقد يكون امتلاء جسمه هو ما حدا بميتيليتسا إلى اعتباره قائد الفصيلة . ومهما يكن من شىء فقد انصب اهتمامه كل الوقت ، دون أن يعرف لذلك سببا ، على اللاعب الرابع وهو رجل ذو وجه منتفخ شاحب ، وأهداب لا تتحرك ، يرتدى قبعة قوزاقية سوداء ، وعباءة قوزاقية يحكم لفها حول نفسه بعد كل ورقة يقذف بها !

وكانوا — خلافا لما توقع ميتيليتسا — يتكلمون عن أشياء عادية لا طرافة فيها ، وشغلت أوراق اللعب الجانب الأكبر من حديثهم .

فقال الرجال الذى يولى ظهره إلى ميتيليتسا : « أنا أضع ثمانين . »

فأجابه الرجل ذو القبعة القوزاقية : « أنت شديد الحذر يا سيدى » ثم أضاف دون اهتمام «مائة»

فقال الأول متوجها إلى القسيس الذى يمسك بالأوراق : «أنا أوزع»

فقال ذو القبعة السوداء هازئا : «أنا أعرف أنك ستطلب ذلك»

فقال الأول متواضعا ، متوجها ثانية إلى القسيس ، استجلابا لعطفه :

« ليس ذنبى أننى أقع دائما على أوراق سيئة »

فاستضحك القسيس مواسيا ، عابثا بملامح وجهه ، ثم قهقه قهقهة مبتذلة كأنما يريد أن يؤكد تفاهة ما يتعلق بلعب جاره ... و أضاف : « ينقصك حتى الآن مائتان واثنتان نقطة ... أيها الخبيث » . ثم هز

إصبعه فى مرح ... وفهم .

وقال ميتيليتسا لنفسه : « ياله من قملة !! »

وسأل القسيس الضابط المترهل : « هل توزع أنت أيضا ؟ .. هل لك فى أن تأخذ الأوراق يا سيدى ؟ » وقد وجه السؤال الثانى إلى ذى القبعة السوداء ثم دفع إليه بالأوراق دون أن يكشف عنها .

وظلوا مدة دقيقة أو دقيقتين يضربون المنضدة بأوراقهم فى عنف ، وانتهى الأمر بخسارة ذى القبعة السوداء .

وقال ميتيليتسا لنفسه فى احتقار : « أصابه ما يستحق ... هذا الرقيع القذر » ، ولم يكن يدرى أينصرف أم يلبث بعض الوقت ، ولكنه لم يكن قادرا على الانصراف ، فقد اتجه اللاعب الخاسر إلى النافذة ، وأحس ميتيليتسا بنظرته النفاذة تخترقه مباشرة ، وتبعث فيه الرعب بنفاذها الذى لا يطرف !

وفى هذه الأثناء بدأ الرجل الذى أولى النافذة ظهره يعيد ترتيب الأوراق ، وكانت حركاته محكمة سريعة ، كحركة امرأة عجوز ترسم علامة الصليب .

وقال الضابط المترهل متثائبا « لم يرجع نيخيتايلو . لابد أنه نجح مع هذه المرأة ... ليتنى كنت معه »

وتساءل ذو القبعة السوداء عائدا من النافذة :

ــ أنتما الاثنان معا ؟... هى تتسع لكما فعلا !!

وأعقبت كلماته ضحكة عابثة .

وجاء دور نيافة القسيس ليسأل ... ويتكلم :

ــ أتعنى فازنكا ؟ ... أى وربى ... إنها تتسع لكما معا ... لقد كانت لدينا هنا فتاة للترانيم ... فتاة ذات حمولة كبيرة ... يارب السموات ... ولكننى حدثتكم عنها من قبل وسيرجى إيفانوفيتش

اللعين يأبى أن يهديكم إلى منزلها ... إنه لن يفعل ذلك مطلقا . أتعرفون أى سر باح لى بالأمس ؟... لقد قال لى « سآخذها معى بعيدا ... ولن أخشى الزواج منها » . . .ها..ها .

وانفجر القسيس صائحا على حين غرة ، وهو يغلق فمه بيده ؛ وعيناه الضيقتان تومضان وميضا خبيثا .

— يالضعف ذاكرتى ! ... لم أكن أقصد ذلك ... أنا الخاطىء !! ولكننى بحت بما استودعت من أسرار !... باللهعليكم ... لاتفعلوامثلى!

وهز يديه أمام وجهه فى فزع مفتعل .

ورغم أنهم جميعا — ومعهم ميتيليتسا — أحسوا بنفاقه ؛ وبالوضاعة الكامنة خلف كل كلمة من كلماته أو إشارة من إشاراته ، فلم يعلق أحد على ما حدث ... وضحك الحاضرون بالحجرة جميعا .

وزحف ميتيليتسا مبتعدا عن النافذة . وما كاد يصل إلى مفترق الممرين حتى التقى برجل قد طرح على كتفه معطفا من معاطف القوزاق ، ووقف خلفه رجلان آخران .

وتساءل الرجل مندهشا : « ماذا تفعل هنا ؟ » ، وقد تشبث بمعطفه فى آلية غرزية ، والمعطف يكاد ينزلق بعد أن اصطدم بميتيليتسا .

وقفز جندى الثورة جانبا ومرق بين الشجيرات .

وصاحت أصوات متعددة : « قف . . . أمسكوه . . . عليكم به ... هيا أيها الرجال » . وسمعت طلقات مرعدة !

وفقد ميتيليتسا قلنسوته وكاد يتعثر بين الشجيرات ، وهو يجرى على غير هدى . ولكن الأصوات استمرت فى صياحها ، وكانت تهدده أينما توجه . دوى فى سمعه نباح مجنون لكلاب الطريق .

وصاح أحد الرجال مندفعا إلى ميتيليتسا بذراعين مفتوحتين : « ها هو ذا ... اقبض عليه » . وصرخت رصاصة بجوار أذنه . فأطلق

جندى الثورة النار .. وهوى الرجل الذى يهاجمه صريعا .

وأقسم ميتيليتسا أنهم لن يصلوا إليه ، ولم يستطع أن يصدق حتى اللحظةالأخيرة أنهم سينالو نه .

ولكن شيئاً هائلا ثقيلا انقض عليه من الخلف ، وألصقه بالأرض وحاول ميتيليتسا أن يحرر ذراعيه ، ولكن ضربة وحشية على رأسه أفقدته الوعى .

وتبادلوا ضربه ... وحتى حينما فقد الوعى أحس إحساسا مبهما بضرباتهم تتساقط متوالية عليه .

* * *

كان الجو رطبا مظلما ... فى الوادى حيث أغفت الفرقة .

ولكن الشمس ما لبثت أن أشرقت وراء الغابة ذات الحواشى البرتقالية . . ووراء نهر الخوانيخدزا . . . وأضاء النهار السهل كله . . وقد امتلأ برائحة الخريف التى تنبعث من الذبول ... والاحتضار .

وسمع حارس المعسكر ، حيث أخذه النعاس بجوار الخيل ، ارتطاما متصلا منتظما يشبه انطلاق المدافع الآلية ، فهب مذعورا ، واختطف بندقيته ... ولم يكن الأمر يتعدى طائرا يضرب بمنقاره شجرة عتيقة إلى جوار النهر . وتصاعد السباب من فم الحارس وهو يرتجف بردا ، فلف حول جسمه معطفه ثم خرج إلى الطريق .

ولم يكن أحد غيره يقظان ... فجنود الأنصار قد أسلموا أنفسهم لنوم عميق لا تتخلله الأحلام ... ولا الآمال ، فهم جياع أضناهم التعب ولا يحمل اليوم الجديد لهم شيئاً جميلا !

وقال الحارس لنفسه : « لم يعد القائد ميتيليتسا بعد ... لا بد أنه

التهم كثيرا من الطعام ثم ذهب للرقاد الدافىء فى أحد الأكواخ ... بينما نحن هنا نتضور جوعا . »

وكان كالآخرين معجبا بميتيليتسا ، فخورا به ولكنه الآن على يقين من أنه أنانى ... ومن أنهم جميعا أخطأوا فى تنصيبه قائداً لفرقة ! وبدأ الحارس يمل هذا الشقاء فى الوادى القحل ، بينما الآخرون أمثال ميتيليتسا يتمتعون بكل مباهج الأرض !! وأيقظ باكلانوف بعد أن خشى ازعاج ليفينسون دون سبب واضح .

فتساءل باكلانوف وهو ينهض جالسا محدقا فى الفضاء بعينيه اللتين مايزال النعاس عالقا بهما : « ماذا لم يعد ؟ ... تقول إنه لم يعد ؟ » ولم يكن قد استكمل صحوته بعد ، ولكنه استشعر الخطر « لا ... ليس هذا ممكنا ... أنت تخدعنى أيها الأخ ... آه ... نعم ، حسنا ... استيقظ يا ليفينسون ! » . ثم قفز واقفا ، وأحكم شد حزامه حول خصره بحركة سريعة ، ثم عقد ما بين حاجبيه النائمين ... فأستكمل يقظته وملك زمام نفسه .

ورغم أن ليفينسون كان مستغرقا فى النوم إلا أنه سمع اسمه وفتح عينيه فى الحال ثم جلس . وأقنعته نظرة واحدة إلى الحارس ، وإلى باكلانوف بأن ميتيليتسا لم يعد وأن الوقت قد حان للرحيل ولكنه أحس بالإجهاد والإنهاك ، ورغب فى أن يدفن رأسه تحت معطفه ثانية ، ويستمر فى النوم ، وينسى ميتيليتسا وسائر المتاعب . ولكن هذا الشعور لم يستغرق سوى لحظة واحدة ... فقد نهض على ركبتيه ونحى عنه معطفه وبدأ يجيب أسئلة باكلانوف الممتلئة انفعالا فى نبرات جافة يشيع فيها عدم الاكتراث .

ــ وماذا فى ذلك ... لقد فكرت كثيرا ... سنقابله فى الطريق بطبيعة الحال .

— وإذا لم نلتق به ؟

— إذا لم نلتق به ... آه . . . ألديك حبل يفيض عن حاجتك أشد به متاعى ؟

وصاح الحارس وهو يرفس الرجال النائمين : « استيقظوا . . . استيقظوا ، أيتها الخنازير النائمة ! نحن راحلون إلى القرية » وارتفعت رءوس الجنود الشعثاء فوق الحشائش . وانهالت اللعنات — وهى ليست ساخطة كل السخط — على الحارس ، وقد اعتاد دوبوف فى الأيام الماضية الجميلة أن يسمى هذه اللعنات ، تحية الجنود الصباحية !

وقال باكلانوف وهو يمعن الفكر « لقد بدأ الرجال يفقدون أعصابهم ؟ .. إنهم جياع »

وسأله ليفينسون : « وأنت .. ألست جائعا ؟ »

فعبس باكلانوف قائلا « أنا ؟ .. لاتهتم بذلك ؛ فأنت تعلم أنى أستطيع أن أتحمل كل ما تستطيعه أنت » .

فأجابه ليفينسون وفى عينيه نظرة حنون رقيقة ، جعلت باكلانوف يحدق فيه وكأنه يراه لأول مرة : « أنا أعرف ذلك » فقال باكلانوف وفى صوته يترقرق إشفاق مفاجىء : « لقد أصبحت نحيلا . . ولم تبق منك إلا اللحية .. إذا كنت فى مكانك فإننى .. »

فقاطعه ليفينسون وعلى شفتيه ابتسامة صغيرة تنبىء عن الحرج :

— يحسن بك أن تذهب للاغتسال . . هيا .

وذهبا إلى النهر ، فخلع باكلانوف قميصه ، وبدأ فى السباحة ، ومن الواضح أنه لايخشى الماء البارد ... وكان جسمه قويا وثيق البنيان ، صبغته الشمس بالسمرة فبدا كأنه نُحت من معدن شديد الصلابة . ولكن رأسه ذات استدارة طفولية ، وكان يغسلها بحركات صبيانية طائشة : فهو يصب عليها الماء من يد أطبقها على هيئة الكأس ، ويدلكها

باليد الأخرى .

وومض فى خاطر ليفينسون : «لقد تكلمت عن أحد الأشياء كلاما كثيرا فى الليلة الماضية .. وقطعت على نفسى وعداً ، يلوح لى اليوم أن لا ضرورة له » . وطافت بذهنه ذكريات بغيضة عن حديثه مع ميتشيك فى الليلة الماضية ، وما أثاره هذا الحديث فى نفسه من أفكار ، وعلى الرغم من أن كلماته لم تصبح الآن زائفة ، تقف دون التعبــير عما فى نفسه — فهو يعلم أنها كلمات لاينقصها الذكاء ولا المعنى — إلا أنه استشعر امتعاضا غريبا عند ذكرها .. « نعم .. لقد وعدته بحصان جديد .. رليس فى ذلك أى خطأ .. وسأحقق ذلك اليوم .. كل شىء هنا على مايرام .. إذن أين الخطأ ؟ .. المشكلة هى .. »

وتساءل با كلانوف « لماذا لا تغتسل .. الماء بارد منعش »

وكان قد فرغ من الاغتسال ومضى يدلك جسمه بمنشفة قذرة ، حتى تغير لون جلده إلى الاحمرار .

وواصل ليفينسون تفكيره وهو ينزلق إلى الماء : « المشكلة هى أننى مريض ، وكل يوم يصبح من الصعب أن أسيطر على نفسى »

ومهما يكن من شىء فقد أحس بعد أن اغتسل ، وتمنطق بحزامه وشعر بثقل مدفع (الموزر) على مؤخرته ، أن نومه فى الليلة الماضية قد أنعشه ، وسيطر عليه تماما التفكير فيما حدث لميتليتسا ، وليفينسون لايستطيع أن يتخيل ميتليتسا دون حركة دائبة ، ولا يستطيع أن يتخيله أبداً ميتا ! !

وطالما أحس بشىء غامض يجذبه إلى ميتليتسا . وطالما أحس بأن مجرد الركوب بجانبه يدخل البهجة على نفسه ، وأن الحديث إليه أو إنعام النظر فيه متعة لقلبه . ولم يكن مايعجبه فى ميتليتسا مقدرات اجتماعية رائعة — فهذه يفتقر إليها الجندى الراعى ، ويفوقه فيها ليفينسون

كثيرا — بل قوته الجسمية الخارقة ، وحيويته المتدفقة ، التى يفيض بها كيانه كنبع لاينضب ، وهذه أشياء تنقص ليفينسون .

وحينما يبصر ميتليتسا متوثبا متأجج النشاط ، متاهباً دائماً للحركة أو حتى حينما يحس به على مقربة ، فإنه ينسى ضعفه الجسمانى ، ويتخيل أنه يستطيع محاكاته فى صلابته ، وتوقد نشاطه ... وكان فى قرارة نفسه معجباً بأن مثل هذا الرجل خاضع لقيادته .

ولم يستطع الآخرون أن يعتقدوا بسقوطه فى أيدى العدو ، رغم أن ليفينسون تعاظم استيقانه من ذلك ، وأبعد كل واحد من جنود الأنصار المتعبين الفكرة عن رأسه فى عناد مرتاع ، فاذا صحت فليس فى أطوائها إلا الشقاء والتعاسة ... لذلك فهى واضحة البطلان !!

وقد بدأ افتراض الحارس بأن « ميتيليتسا التهم كثيرا من الطعام ، ثم ذهب للرقاد الدافىء فى أحد الأكواخ » — رغم مجافاةهذا المسلك ليقظة الراعى ووعيه — يجد أنصارا يتزايدون . وارتفعت شكاة سافرة من الكثيرين تنتقد جبنه و « خيانته » ، وتحث ليفينسون على الإسراع خلفه دون إبطاء . وحينما أصدر ليفينسون أمره بالرحيل ، بعد أن أولى اهتماما كبيرا بالدقائق التفصيلية ، وبعد أن أعطى ميتشيك حصانا جديدا فى زحمة العمل ، ابتهجت الفرقة كلها وكأن هـذا الأمر قد وضع نهاية لـكل المحن والآلام !!

وركبوا ساعة ... تلتها ساعة أخرى .. وليس من أثر لقائد الفصيلة ، ذى الخصلة الثائرة من الشعر الفاحم على جبهته . واستمر ركضهم ساعتين بعد ذلك ... وليس لميتيليتسا أثر ! . ولم يعد ليفينسون وحده بل بدأ هؤلاء الذين كانوا يغبطون الراعى ويلعنونه أيضا ، يرتابون فى أن رسالته ... لم تنته نهاية سعيدة !!

وسارت الفرقة متجهة إلى حافة الوادى ، يحتويها صمت محزون !.

الفصل الخامس عشر

ثلاثة ... من الموت

عاد ميتيليتسـا إلى وعيه فى مخزن فسيح مظلم ، وكان متمددا على الأرض ، وأحس أول ما أحس ببرودة واخزة تنبعث من الأرض وتنفذ إلى عظامه . فتذكر منذ الوهلة الأولى كل ما وقع له ؛ فالضربات التى انهالت عليه لم تزل أصداؤها تتردد فى رأسه . واستشعر كتلا لزجة من الدم على جبهته ووجنتيه .

وكانت الفكرة الأولى التى تقترب من الوضوح ، وتومض فى ذهنه هى فكرة الهرب . فهو لا يستطيع أن يوطن النفس على الاعتقاد بأنه بعد كل ما مر به فى حياته من تجارب ، بعد كل انتصاراته وما صاحب أمجاده من توفيق ... بعد كل هذه الأشياء التى أعلت من شأنه بين الرجال ، يمكن أن يستلقى ويدب فيه الموت كسائر البشر .

وتحسس كل مكان فى المخزن ،وفحص كل حنياته ، وحاول أن يفتح الباب عنوة .. ولكنه أخفق .

فأخشاب ميتة باردة تحيط به من كل جانب ، وشقوقها ضئيله إلى درجة لا يتعلق بها رجاء ، فهى لا تمكنه من الرؤية خلالها ؛ بل إن فجر الخريف لا ينفذ منها ضوؤه الخافت !

ومهما يكن من شىء ، فلم يكف عن الاستطلاع حتى تحقق تحققا

يائسا قاطعا من أن لا مهرب هذه المرة ، ولم تعد مشكلة حياته أو موته تشتعل فى ذهنه بعد أن أقتنع بذلك... ولم تعد كل طاقاته الجسمية والعقلية تستغرقها إلا فكرة واحدة ، لا أهمية لها من زاوية حياته أو موته ، ولكنها كبيرة القيمة فى عينيه : كيف يستطيع هو ... ميتيليتسا ... الذى لم تعلق بجسارته وإقدامه الشكوك حتى الآن ... أن يثبت للجلادين أنه لا يخشاهم ولا يكن لهم غير الاحتقار ؟!

ولم يكن أمامه وقت كى يتدبر هذا الأمر ، فقد سمع فى الخارج أصواتا تلاها صرير المزلاج ، ودخل مع ضوء الصباح — وبه رجفة وقتامة — جنديان مسلحان من جنود القوزاق ، يرتديان سراويل فضفاضة ذات شرائط صفراء . فنظر إليهما ميتيليتسا بعينين تضيقان ، وقد باعد ما بين ساقيه ، وحينما أبصرا به تململا قليلا عند الباب ، وأحدهما يستنشق الهواء بصوت مسموع خلف زميله ..

وقال الذى فى المقدمة آخر الأمر ، ولا كراهية فى صوته ، بل وكأنه يستشعر الإثم : « هيا بنا ... أيها الرجل القروى » .

ونكس ميتيليتسا رأسه محدقا فيهما ... ثم خرج .

وسرعان ما وجد نفسه واقفا أمام رجل ، رآه الليلة الماضية فى بيت القسيس ... هذا الرجل الذى يلبس قبعة قوزاقيه سوداء ويلف حول جسمه عباءة . وكان هناك أيضا الضابط المترهل الوسيم الذى ظنه ميتيليتسا قائدا للكتيبة ، وكان يجلس مستندا على مقعد ينظر إلى ميتيليتسا فى حيرة ، وليس فى عينيه أثر القسوة . وقد تحقق جندى الأنصار عن طريق دلائل لا تحس من أن الضابط الوسيم ليس هو القائد ، فالقائد هو ذو العباءة القوزاقية .

ونظر القائد إلى الجنديين الواقفين عند الباب قائلا فى حدة :

— تستطيعان الانصراف !

فخرجا وهما يتدافعان فى غلظة .

وخطا أمام ميتيليتسا ، مثبتا عينيه اللتين لاتطرفان عليه ، ثم سأله متعجلا :

— ماذا كنت تفعل البارحة فى البستان ؟

وحدق فيه ميلتيليتسا بعينين يملؤها الازدراء دون أن يجيب ...

ولم يخفض من بصره ، وسرت فى حاجبيه الفاحمين حركة طفيفة ، ونطق موقفه كله بتصميم عنيد .. على ألا يقول شيئا يرضى مستجوبيه مهما تكن الاسئلة ، ومهما تكن أساليب انتزاع الإجابة .

وقال القائد :

— كفى عبثا !!

دون أن يبدو عليه الضيق أو يرفع صوته ، ولكن لهجته كشفت عن أنه فهم كل ما يدور فى نفس ميتيليتسا .

وقال جندى الثورة . وهو يبتسم فى تنازل :

— وما جدوى كلامى ؟

وتفحص قائد الكتيبة الوجه الذى تشيع فيه آثار الجدرى ، ويلطخه الدم الجاف ، ثم سأل فجأة :

— هل مر زمن طويل على إصابتك بالجدرى ؟

واستولت الدهشة على ميتيليتسا ... فلم يكن فى سؤال الضابط سخرية أو إيماء خفى ، بل كان من الواضح أنه يستجلى أمر الوجه المجدور فحسب !

وحينما تحقق جندى الثورة من ذلك ، ازداد غضبه اشتعالا ، فأهون على نفسه أن تملأ السخرية كلمات عدوه ... فهذا السؤال كان وسيلة الضابط فى إقامة رابطة من التماثل الانسانى بينهما !.

ـ هل أنت من أهل القرية ؟.. أو هل أقبلت من مكان آخر ؟
ـ لا تهتم بذلك .. أيها السيد !

وأجاب ميتيليتسا هذه الإجابة فى عواء غضوب ، ضاما قبضتى يديه مضرج الوجه بالحمرة . . وقد أوشك أن يفقد زمام نفسه ، فينقض على الضابط ، وود لو أضاف شيئا آخر ، ولكن فكرة واحدة سيطرت عليه :

فما الذى يمنعه من أن يهجم على هذا الرجل المتشح بالسواد ... ذى الوجه المنفر المنتفخ الهادىء ... الذى تغطيه أشوك بغيضة حمراء . ما الذى يمنعه من خنقه؟ ، واستحوذت عليه هذه الفكرة تماما ... فوقف صامتا ، ثم خطا خطوة إلى الأمام ، ويداه تنتفضان ووجهه المجدور يتصبب عرقا .

وصاح الضابط فى صوت مرتفع تملؤه الدهشة ، ولكنه لم يتحرك من مكانه ولم تبتعد عيناه عن ميتيليتسا لحظة واحدة .

وأطرق جندى الثورة دون أن يصل إلى قرار ، وعيناه تومضان ، وانتزع الضابط المسدس من غمده ولوح به تحت أنف ميتيليتسا ، فسرعان ما تمالك زمام نفسه ، ثم تحول إلى النافذة فى صمت يمتلىء بالتحدى .

ولم ينطق بكلمة واحدة ، ولم ينظر حتى إلى الذين يستجوبونه ، فهو لم يعبأ بالمسدس الذى يهددونه به ، ولا بالويلات التى يتوعدونه .

ولم يخبرهم بشىء مما يعرف مهما يحيطوه بالاغراء ويمنوه باطلاق السراح .

وفى غمرة الاستجواب ، فتح الباب دون صوت ، وحملق فى الحجرة وجه كث الشعر تبرز منه عينان واسعتان ، تفصحان عن رعب وبلاهة .

وتساءل قائد الكتيبة : « حسنا هل حشدتهم جميعا ؟.. قل للرجال

أن يأخذوا هذا الصديق الجسور !! »

وقاد جنديا القوازق ميتيليتسا أمامهما فى الردهة المفضية إلى الباب الكبير ، ولم يلتفت جندى الثورة وراءه ، ولكنه كان يحس بالجنديين يتبعانه ... ووصلوا إلى ميدان الكنيسة ، وهناك احتشد أهل القرية بجوار كوخ حارس الكنيسة ، يحيط بهم نطاق محكم من فرسان القوازق.

وكان ميتيليتسا يتخيل طول عمره أنه لا يحب الناس ... وأنه يحتقر أساليبهم المبتذلة البغيضة فى التعامل ، وينفر من كل ما يرتبط بهم ، ويتخيل كذلك أنه لا يكترث بالفكرة التى لديهم عنه ، ولا بما يقولونه تعليقا على مسلكه . ولم يكن له أصدقاء على الإطلاق ، بل ولم يبحث أبدا عن أصدقاء ، ورغم ذلك ، ودون تصميم واع منه ، فقد قام بكل مآثره وأمجاده ... من أجل الناس ، من أجل عشيرته ... كى يفخروا به ويتغنوا بمديحه .

وحينما رفع رأسه الآن ... احتضنت عيناه ، واحتضن قلبه بكل مافيه من مشاعر تتأجج ... هذا الزحام المختلط المتدافع ، الذى يرين عليه الصمت من الفلاحين ... من الرجال والأولاد والنساء المرتاعات — فى ثيابهن الغليظة التى صنعنها فى البيوت بأيديهن — والبنات وقد تعصبن بمناديل بيضاء ذات ألوان صارخة . واحتضن قلبه حتى هؤلاء الفرسان الذين يعضهم التوتر والقلق ، وقد نفرت خصلات من شعورهم وتمردت على القبعات ، وتألقت ألوان ملابسهم البراقة ... وبدوا لامعين كصورهم المطبوعة الرخيصة ... صور فرسان القوزاق !

وتراقصت الظلال الطويلة على الحشائش ، وبرزت قباب الكنيسة القديمة عالية فوق الجمع ، فى الضوء الفاتر ، شامخة إلى سماء باردة .

وكاد يصيح : « أليس هذا رائعا » ، وقد أسرعت نبضات قلبه متفتحا لكل شىء ، مبتهجا بكل ما تلمحه عيناه . بالجماهير المتدافعة التى

يسحقها الفقر ، بكل ما يتنفس ويتألق حوله ، وبكل ما يصطرع داخل نفسه .

وخطا إلى الأمام فى طواعية وانطلاق ... فى مرونة قط وحشى بعيد الوثبة ... ينساب رشيقاً فوق الأرض . ونظر إليه الجميع وقد أمسكوا أنفاسهم ، وهم على يقين من أن تدفق الحيوية فى جسده ، المتوثب ، مماثل لخطواته المنطلقة الفتية .

وشق الحشد ، مرفوع الرأس ، ولكنه أحس باهتمام صامت كثيف يحيط به . وما لبث أن توقف عند مدخل الكوخ ، وسبقه الضباط صاعدين الدرجات .

وصاح قائد الكتيبة مشيرا إلى مكان بجواره : « قف . . . هنا » وفى قفزة واحدة صعد ميتيليتسا الدرجات واستقر إلى جوار القائد .

واستطاع كل افراد الحشد أن يروه الان : قوام منتصب وثيق البنيان ، شعر فاحم . قدمان فى نعلين من الجلد . قميص مفتوح حوله حزام . تتدلى منه أهداب غليظة خضراء . وتألق فى عينيه — عينى النسر — وميض يتطلع بعيدا ... ويرمق تلك الجبال السامقة فى جلال ، وسط ضباب الصباح .

وتساءل القائد ، ملقيا نظرة نفاذة على الزحام ، بدت كأنها استقرت لحظات على كل وجه من الوجوه : « من يعرف هذا الرجل ؟ »

واضطرب كل من وقع عليه بصر القائد ، وطرفت عيناه ثم نكس رأسه ، وكان النساء وحدهن اللائى يستجمعن من القوة ما يكفى لتثبيت البصر ، وظللن ناظرات إليه فى صمت أبله ، وتطلع ظامىء .

وأعاد القائد سؤاله « ألا يعرفه أحد ؟ » وهو يؤكد كلمة « أحد » ساخراً ؛ وكأنه على يقين من أن الجميع يعرفون ميتليتسا « سنتأكد من ذلك فوراً » .

ثم نادى : « نيخيتايلو » مومئا إلى ضابط طويل القامة يرتدى معطفاً قوزاقياً ، ويمتطى حصانا كستنائيا متوثبا .

ودب الاضطراب فى الجمع ، فقد كانت هناك أصوات مختلطة ، والتفت الذين فى المقدمة وهم يديرون الرءوس ، واندفع رجل يلبس صديرية سوداء ، شاقاً طريقه وسط الزحام ، وقد انحنت رأسه فلم تبد منها إلا قلنسوة سوداء من الفراء .

وكرر القادم صياحه فى عجلة ، وهو يشق طريقه بيده ، ويقود شخصاً آخر باليد الأخرى ... « أفسحوا الطريق ... أفسحوا الطريق »

ووصل آخر المطاف إلى المدخل ، فرأى الجميع أنه يدفع أمامه صبيا نحيلا أسود الشعر ، يرتدى (جاكتة) طويلة ، وقد استحوذ عليه الرعب وهو يقاوم فى غير إذعان وتعالى الضجيج وسُمعت التنهدات ، وهمسات النساء الخافتة .. وتطلع ميتليقسا وعرف فجأة فى الصبى ذى الشعر الأسود والعينين المرتاعتين ، والرقبة الصبيانية الهزيلة : الراعى الصغير الذى أودعه حصانه الليلة البارحة !

وخلع الفلاح الذى يمسك بالصبى قلنسوته ، كاشفا عن رأس مسطحة تتخلل شقرة شعرها بقع رمادية (وقد ظهرت رأسه كأن ملحاً انتثر عليها فى غير نظام) وانحنى للقائد قائلا : « معى راع صغير ... هنا » ، وخشى ألا يستمعوا إليه . فانحنى سريعا على الغلام مشيراً إلى ميتليقسا متسائلا :

— « إنه هو ... أليس كذلك ؟ »

ومضت دقائق والراعى الصغير يحدق فى عينى جندى الثورة ، وجندى الثورة يحدق فى عينى الراعى الصغير ... وفى عينى ميتليقسا تشع اللامبالاة وفى عينى الصبى فزع ... وتعاطف ... وإشفاق .

وما لبثت عينا الصبى أن تحولت إلى قائد الكتيبة ، واستقرت عليه لحظة كأنهما التصقتا به ، ثم تعدتاه إلى الفلاح الذى يمسك بيده ، وقد

انحنى نحوه فى توقع . وتنهد الصبى تنهداً عميقاً ، وهز رأسه هزاً شديداً لكى يوضح أنه لم يتعرف على الرجل ؛ وعم السكون الجميع حتى أصبح من الممكن سماع حركة عجل رضيع فى حظيرة الكنيسة . . . وحلقت الدهشة فوق هذا الهدوء .

وبدأ الفلاح خداعه للصبى بصوت مرتجف ، وهو نفسه قد تمكن منه الرعب فاختلج جسمه متوتراً : « لا تخف أيها الغبى . . . لا تخف » ثم أشار إلى ميتليتسا بإصبعه « من يكون إذا لم يكن هو ؟ . . . قل إنه هو .. لاتخف أيها الخبيث ! » ثم كف عن الكلام غاضبا ، ولوى ذراع الغلام فى وحشية ، ووجه حديثه إلى القائد بصوت مرتفع ، كأنه يبحث عن تبرير لنفسه ، وهو يعصر قلنسوته بين يديه : « إنه هو بعينه ... ياصاحب الفخامة . . الغلام خائف أن يقول ذلك ... خائف فحسب ، من يكون غيره ؟ . . والحصان عليه السرج ؛ وغمد المسدس فى حزمة السرج ؟ . . لقد أقبل الليلة البارحة إلى النار قائلا « دع حصانى يرعى هنا » ثم مضى إلى القرية ، وانتظره الصبى حتى الصباح ولكنه لم يعد أبداً ... فأحضر إلىّ الحصان وعليه السرج وفى السرج الغمد . . . فمن يكون غيره ؟ »

وتساءل القائد . وهو يحاول عبثاً أن يفهم مايقوله الرجل : « من الذى ركب ؟ وغمد من؟ » وازداد الأمر التباساً أمام الفلاح فظل يعبث بقلنسوته ثم بدأ يشرح من جديد . . دون تماسك . . أو اتساق . . كما فعل من قبل تماما ، فهذا الصبى الراعى قد أتى بحصان جديد فى الصباح.. عليه سرج .. وفى السرج غمد المسدس !!

فأجاب قائد الكتيبة متباطئا ؛ وهو يومىء إلى الصبى : (هذا حسن ولكن الصبى لا يوافق على ذلك ... حسنا ... هاته هنا . . . سنجعله يتكلم بطريقتنا .)

وأحس الصبي بدفعة من الخلف ، فاقترب من المدخل ، ولكنه لم يجرؤ على الصعود . وقفز الضابط الدرجات هابطا ، وأمسك بالصبي من كتفيه النحيلين المرتجفين ورفعه إلى أعلى ، محدقا بعينين مخيفتين نفاذتين فى عينى الغلام اللتين استدارتا رعبا .

وصاح الصبي صارخا فجأة ، وعيناه تنظران إلى أعلى ...

وارتفع نواح امرأة ، تركت العنان لعواطفها : «ماذا يفعلون به؟»
وفى هذه اللحظة ، قفز رجل متين البنيان ، خفيف الحركة ... هابطا ، وتراجع الجمع رافعا أياديه المتعددة ، وسقط قائد الكتيبة صريعا من الضربة التى سددت إليه .

وصاح الضابط المترهل الوسيم «اطلقوا عليه الرصاص ... لا تقفوا دون حراك» ، وهو يمد ذراعه فى عجز ، وقد سيطر عليه رعب أحمق ، أنساه أنه هو أيضا يستطيع إطلاق النار !!

وانقض عدد من الفرسان على الجمع ، فتفرق الناس بين أقدام الخيل ...

وكان ميتيليتسا يضغط بكل جسمه على عدوه ، محاولا أن يصل إلى رقبته ، والآخر يقاوم تحته كالخفاش ، وقد انتشرت عباءته السوداء كالجناح ، وهو يتشبث بحزامه محاولا انتزاع المسدس . واستطاع آخر الأمر أن يمتشق سلاحه ، وما كادت أصابع ميتيليتسا تطبق على عنق خصمه حتى كان الآخر قد أطلق عليه عدة رصاصات .

وحينما صعد القوزاق ، ليجرجروا ميتيليتسا من رجليه بعيدا ، كان لم يزل قابضا على الحشائش ، مصرا على أسنانه وهو يحاول أن يرفع رأسه ، ولكن رأسه سقط فى أعياء ... ثم تبع بقية جسمه ، يكنس أرض الطريق !

وصاح الضابط الوسيم : «نيخيتايلو ... عد بالكتيبة» ، ثم سأل

القائد فى احترام متفاديا أن ينظر إليه « هل أنت عائد معنا . . .
يا سيدى ؟ »

ــ نعم .

ــ إلينا بحصان القائد !

وبعد نصف ساعة ، كانت كتيبة القوزاق تركض مغادرة القرية ،
قاطعة الطريق الذى سار فيه ميتيليتسا الليلة الماضية .

* * *

لم يعد باكلانوف قادرا على كبح جماح نفسه .. فهو ليس أقل من
الآخرين ضيقا وقلقا .

فقال لليفينسون « أنصت إلى ... دعنى أركب فى المقدمة... فالشيطان
يعلم ماذا سنلاقى » .

وحث حصانه بمهمازه ، فوصل سريعا ، أسرع كثيرا مما توقع ،
إلى حافة الوادى عند الحظيرة المتداعية ، ولم يكن فى حاجة إلى أن
يصعد فوق السطح ... فعلى مبعدة نصف فرسخ كان خمسون رجلا
لا يزيدون على ذلك ــ يهبطون تلا من التلال . وادرك باكلانوف أنهم
نظاميون ، فملابسهم الرسمية متشابهة جميعا ، لها أشرطة صفراء على
القبعات والسراويل . وجاهد فى نفسه ، دافعا قويا إلى العودة ليحذر
الفرقة ، (فليفينسون قد يظهر فى أية لحظة) ، ثم اختبأ بين الشجيرات ،
يمزقه القلق خشية أن تلوح فرق أخرى من وراء التل ... ولم يلمح شيئا
وسارت الكتيبة متمهلة مبعثرة الصفوف . واستنتج من السير الوئيد
ومن رءوس الخيل المطرقة ، أن هذه الكتيبة كفت لتوها عن ركض
حثيث .

وعاد باكلانوف إلى فرقته وكانت قد أوشكت على مغادرة الغابة وأشار إلى ليفينسون طالبا التوقف .

وتساءل ليفينسون : « أهم كثيرون ؟ »

— قرابة خمسين

— معهم مدفعية ؟

— لا .. كلهم فرسان .

وأصدر ليفينسون أمره بهدوء : « كوبراك ! ... دوبوف ... ترجلا ... ليأخذ كوبراك الميمنة ... وليأخذ دوبوف الميسرة ... أما أما أنتم فويل لكم ! » وقال الجملة الأخيرة فى فحيح مفاجىء حينما أبصر واحدا من الأنصار ينزلق مبتعدا عن الصفوف ، وآخرين يوشكون على إتباعه ...

— عد إلى مكانك !

وعلا الرجل بالسوط ..

وعهد إلى باكلانوف بقيادة فرقة ميتيليتسا ، وأمره بأن يبقى حيث هو . ثم ترجل ، ومضى إلى المقدمة ملوحا بمدفعه .

وأمر رجاله أن يقيموا خطا للمناوشات العسكرية بين الشجيرات ، ثم زحف إلى الحظيرة يتبعه جندى واحد . وكانت كتيبة العدو دانية شديدة الدنو ، وعرف ليفينسون من شراائطهم الصفراء أنهم قوازق ، واستطاع أن يرى القائد فى عباءته السوداء .

وهمس لمرافقه : « قل لهم أن يزحفوا إلى هنا ... ولكن لا تدعهم يتقدمون كثيرا ... وإلا ... ما الذى تنتظر ؟ ... انظر بامعان » ثم دفع الرجل مقطبا .

وعلى الرغم من ضآلة جنود القوازق ، فقد استحوذ حماس مفاجىء على ليفينسون ، كأنه فى أول عهده بممارسة الحرب .

فهو يميز بين فترتين فى احترافه الحرب ، لا يفصلهما حد واضح ولكنهما متباينتان من ناحية ما ابتعثاه من مشاعر .

فأثناء الفترة الأولى حينما كان مفتقرا إلى التمرس الحربى ، وحينما لم يعرف بعد كيف يطلق البندقية ، ومع ذلك كان مضطرا إلى تولى قيادة مجموعة من الرجال ، فانه لم يشعر أنه يقود فعلا ، فالأحداث كانت تتعاقب مستقلة عنه وعن إرادته ، ولم يكن ذلك ناتجا عن إهماله مسئولياته بأية حال من الأحوال ، فقد قام بكل ما فى وسعه . ولم يكن ناتجا عن اعتقاده بعجز الفرد أمام الأحداث التى ترتبط بالجماهير . فهو على يقين من أن هذا الرأى أسوأ أنواع النفاق الإنسانى ، وأنه قناع يختفى وراءه الذين يؤمنون به ، لكى يحرفوا الأنظار عن قصورهم وضعف إرادتهم ، بل لأنه فى هذه الفترة القصيرة من التجربة العسكرية قد اتجهت كل طاقته الذهنية إلى محاولة التغلب على خشيته من الموت — وهو شعور لم يستطع تفاديه فى وطيس المعركة — وإلى إخفاء ذلك عن الآخرين .

ومهما يكن من شىء ، فقد تأقلم سريعا على ظروف الحرب ، واستطاع الوصول إلى توازن انفعالى ، لا يقف فيه خوفه على حياته عقبة أمام محافظته على حياة الآخرين ، وقد حقق فى هذه الفترة مقدرة على توجيه الأحداث .. فكلما تنبأ بمسارها عن دراسة جادة ، وتقدير لعلاقات القوى ، وللعامل البشرى ، كلما نمت مقدرته على التوجيه والسيطرة .

ولكن ليفينسون يحس الآن بحماسة القديم ... وقد أرجع ذلك إلى حالته النفسية وإلى إطالته التفكير فى ذاته ... وإلى اختفاء ميتيليتسا .

وظل ليفينسون مالكا زمام نفسه ، وجنوده يزحفون عبر الشجيرات ، ورأى هؤلاء الجنود فى هيكله الغليظ . وفى حركاته الدقيقة الواثقة ،

تجسيدا لخطة محكمة ، يؤمنون بصوابها عن طريق العادة ، ولأنها يجب أن تكون كذلك .!!

واقتربت كتيبة العدو حتى سمع وقع حوافر الجياد ، وحديث الفرسان الخافت ، وحتى وجوههم أصبحت ترى الان بوضوح ، واستطاع ليفينسون أن يقرأ ما على وجوههم من تعبير ، وخاصة وجه ضابط وسيم مترهل ، يجلس على سرجه باسترخاء ، وغليونه بين أسنانه ، وقد ركض لتوه حتى أصبح فى المقدمة .

وقال ليفينسون لنفسه ، وعيناه مثبتتان على الضابط : « يجب أن يكون هذا الرجل حيوانا » ، ومضى ينسب إلى الضابط الوسيم دون تفكير ، كل النعوت الوضيعة التى تلصق عادة بالأعداء .. ولكن «ما أسرع دقات قلبى ... أجاء وقت إطلاق النار؟... هل جاء الوقت حقا ؟ .. لا ... يجب أن أنتظر أنتظر حتى يصلوا إلى هذه الشجرة ذات الشقوق فى لحائها ... لماذا يجلس هكذا كالزكيبة فوق السرج ؟ .... ثم صاح بصوت خافت تستطيل مخارجه ، بمجرد وصول الكتيبة إلى الشجره ذات الشقوق: «فر...ق...ة ... اضرب »

ورفع الضابط الوسيم رأسه مندهشا عند سماع صوت ليفينسون ، ولكن قبعته فى اللحظة التالية طارت بعيدا عن رأسه ، وارتسم على وجهه رعب ذليل ... يصعب وصفه .

وصاح ليفينسون مرة ثانية : « اضرب » وأطلق هو نفسه الرصاص مصوبا ناره إلى الضابط الوسيم .

وساد الاضطراب كتيبة العدو ، وسقط كثير من القوزاق عن ظهور الخيل ، ولكن الضابط الوسيم ظل على سرجه وحصانه يتقهقر مكشرا عن أسنانه .

وتكدس الرجال المرتاعون ، والخيل المدبرة فى كومة واحدة .

بعض الوقت . وتصايح الرجال بكلمات طغى عليها إطلاق الرصاص . وعلى حين غرة برز فارس يرتدى قبعة سوداء ، وعباءة سوداء ، قافزا عبر الاضطراب إلى مقدمة الكتيبة ، ممسكا عنان جواده بيد حازمة ، وملوحا بسيفه . وتجاهل الآخرون أوامره بل لقد أدبر بعضهم ركضا ، وهم ينهالون على الخيل ضربا بالسياط . وسرعان ما كان جنود الأنصار فى إثرهم ، وقد قفزوا من الأرض ، ممتلئين حماسا ، مطلقين النار أثناء العدو .

وصاح ليفينسون : « إلى الجياد ... هيا يا با كلانوف ... اركب »

ومرق باكلانوف طائرا ، وقد ملأ وجهه عبوس غاضب ، ومال جسمه كله إلى الأمام ... وإحدى يديه تصوب السيف إلى أسفل ، والسيف يومض متوهجا . . . ثم تبعته فصيلة ميتيليتسا مدججة بالسلاح ، تتعالى صيحاتها مختلطة بقعقعة الحديد .

وجرف الهجوم ميتشيك معه . فركض وسط الدوامة ... ولم يكن خائفا بل لقد فقد قوقعته المعتـادة ؛ وهى استبطان أفـكاره ومسلـكه وتحليلها من بعيـد . . . ولم يعـد يرى إلا ظهرا وكتلة من الشـعر أمامه . وأحس أن نيفكا ليست متخلفة ، وعلم أن العدو يفر ولم يفـكر ــ تماما كالاخرين ــ إلا فى اللحاق بالقوزاق وفى المحافظه على مكانه .

واختفت، كتيبة القوزاق وسط الأشجار ثم بدأت فى إطلاق النار دون انقطاع ، ولـكن الفرقة واصلت ركضها دون إبطاء وقد أشعل الرصاص حماسها .

وفجأة سقط الجواد الذى يركض أمام ميتشيك وارتطمت أنفه بالأرض ، وهوى الظهر الذى استقرت عليه عيناه مع الرأس والذراعين المفتوحتين . . . وكالاخرين تقدم ميتشيك وهو يطأ شيئا ضخما أسود ملقى على الأرض ..

واستبدلت عينا ميتشيك بالظهر الذى تداعى ، أشجار الغابة التى تسرع مقبلة عليه . ومرق بجواره شبح ضئيل ذو لحية ، على حصان أسود ، ملوحا بسيفه ، وانعطف بعض الفرسان الذين يجاورونه بغتة إلى اليسار ، ولم يدرك ميتشيك لماذا فعلوا ذلك ، وواصل ركضه حتى وصل إلى الغابة وكاد يرتطم بجذوع الأشجار . ولكن الأغصان التى تساقطت أوراقها خدشت وجهه ... واستطاع بعد جهد أن يسيطر على نيفكا وهى تمضى مجنونة الركض بين الشجيرات . وأصبح وحيدا فى السكينة العذبة التى تلف الغابة ، بين أوراق الأشجار ... والحشائش الذهبية .

ولم تمض دقيقة حتى غصت الغابة بجنود القوزاق ، فصاح ميتشيك وقد أفقده الذعر وعيه ، وانطلق راجعا ، متجاهلا الأغصان الشائكة التى تضرب وجهه كالسياط !

وحينما وصل إلى الطريق ... كانت الفرقة قد ذهبت . وعلى مبعدة مائتى خطوة .. كانت جثة حصان مسجاة ، استقر السرج على جانبها ، وعلى مقربة من الجثة جلس موروزكا .. دون حراك ... ضاما ركبتيه إلى صدره .

وتقدم نحوه ميتشيك متمهلا وقد أدركه الخجل من الرعب الذى أصابه منذ قليل .

وكان ميشكا ممددا على جانبه ، وقد برزت أسنانه . وجحظت عيناه الواسعتان الزجاجيتان ، وانحنت قائمتاه الأماميتان عند الركبتين ، وقد بدت صلابة حافريهما ، وكأن الجواد الأصيل — حتى بعد الموت — متأهب للركض !

ونظر موروزكا إليه فى يأس ، وعيناه اللتان لا تبصران تتألقان ، وقد جف الدمع فى مآقيهما .

وناداه ميتشيك برقة حنون وهو يقف أمامه مستشعرا إشفاقا باكيا

على الرجل والجواد القتيل .

ولم يتحرك موروزكا .. ومرت دقائق دون أن يتبادلا كلمة أو تصدر من أحدهما حركة . ثم تنهد موروزكا ، ورفع يديه عن ركبتيه ناهضا . وبدأ ينزع السرج دون أن ينظر إلى ميتشيك ... وراقبه ميتشيك صامتا دون أن يجرؤ على التحدث إليه .

ونزع موروزكا شرائط السرج ... وكانت إحداها بالية ، فظل يفحصها طويلا . . وهى ملطخة بالدم ... ثم ألقاها بعيدا ، وطوح بالسرج على ظهره متنهدا . وسار متجها إلى الغابة منحنى الظهر ، مقوس الساقين .

وصاح ميتشيك فى أعقابه : « دعنى أحمله عنك ... وإذا أحببت تستطيع أن تأخذ فرسى ... سأمضى ماشيا »

ولم يلتفت موروزكا خلفه . وازداد انحناء تحت ثقل السرج .

واضطر ميتشيك أن ينعطف كثيرا إلى اليسار ، كى يتجنب موروزكا ، وبعد أن اجتاز الغابة أبصر قرية تستلقى عبر الوادى .

وإلى يمينه أبصر غابة كثيفة ، نامية بمنخفض كثيف ، تمتد حتى السلسلة الجبلية التى تتراءى ضائعة فى الأفق القاتم البعيد . وأصبحت السماء قريبة المنال كابية ... والشمس لا تكاد ترى بعد أن كان الجو صحوا فى الصباح .

وأمامه بعد بضعة خطوات : رقد جنود من القوزاق رقدتهم الأخيرة بعد أن مزقتهم سيوف الأنصار . ولكن الحياة لم تكن قد فارقت واحدا منهم ، فظل يحاول جاهدا أن يرفع نفسه على يديه ، وما يلبث أن ينهار وهو يئن محتضرا . ومر بهم ميتشيك من بعيد محاولا أن يغلق أذنيه عن أنين الرجل .

وأقبل نحوه بعض فرسان الانصار قادمين من القرية . فقال حينما

اقتربوا منه :

ــ لقد قتلوا حصان موروزكا .

ولم يجبه أحد . ونظر إليه فارس بعينين مرتابتين ؛ وكأنه يريد أن يسأل : «وأين كنت أنت أثناء المعركة؟» واربد وجه ميتشيك وواصل ركضه . وقد ملأته مشاعر سوداء .

وحينما دخل القرية كان الجنود يتجولون خارجها ، ووقف الآخرون بجوار كوخ كبير . ذى نقوش على نوافذه ، ووقف ليفينسون عند المدخل وقد انزلقت قلنسوته ، وغطاها العرق والغبار ، يصدر الأوامر ، وترجل ميتشيك على مقربة من السياج حيث وقفت الخيل .

وصاح به قائده المباشر ساخرا : «من أين هبطت علينا ؟ ... أكنت تجمع عيش الغراب ؟... »

فأجاب ميتشيك : «لا ... لقد فقدت أثركم أيها الرفاق» ، وهو لم يعد يعبأ بفكرتهم عنه ، ولكنه حاول أن يجد لنفسه المعاذير ، بقوة العادة وحدها . « .. لقد توغلت فى الغابة ... بينما انعطفتم أنتم يسارا » .

فتصدى شاب من الجنود ، أشقر الشعر ، له غمازتان تنبئان عن طيبة ، وخصلات نافرة كعرف الديك : «لقد ناديتك .. ولكنك لم تسمع ... على ما أظن» ، ونظر مبتهجا إلى ميتشيك فهو يسترجع فى ذهنه كل تفصيلات المطاردة ... وأوثق ميتشيك حصانه ثم جلس إلى جواره .

وبعد دقائق أقبل كوبراك يتبعه جمع من الفلاحين ، يقودون رجلين إلى الكوخ وأيديهما مقيدة وراء الظهور .وكان أحدهما يرتدى صديرية وله رأس مسطحة شائهة كأن الملح قد انتثر عليها دون نظام ، وهو

يرتعد ويتضرع إلى الرجال الذين حوله . وكان الآخر قسيسا معروقا له طيلسان ممزق يلوح تحته سروال متهدل ، ولاحظ ميتشيك سلسلة فضية ـ كانت سلسلة صليب من قبل ـ تتدلى من حزام كوبراك !

وتساءل ليفينسون ، شاحب الوجه ، وهو يشير إلى ذى الصديرية بعد أن دُفع الرجلان إلى المدخل : « أهذا هو الرجل؟ »

وصاح الفلاحون فى صوت واحد : « إنه هو ... إنه هو »

وتحول ليفينسون إلى ستاشينسكى الذى جلس بجواره : « يااللعنة ! ولكن ... ليس من الممكن إعادة ميتيليتسا إلى الحياة ! » . وطرفت عينا ستاشينسكى مسرعتين ، وقد أشاح بوجهه ، والتزم الصمت محاولا أن يبعد عن فكره ذكرى ميتيليتسا .

وبدأ الأسير حشرجته ناظرا مرة إلى الفلاحين ، وأخرى إلى ليفينسون بعينى كلب ذليل : « أيها الرفاق !... أيها الرفاق الأعزاء ! أتظنون أنى فعلت ذلك بمحض إرادتى ... يا إلهى !! ... أيها الرفاق الأعزاء »

ولم يصغ إليه أحد ، فقد عزف عن سماعه الفلاحون ، وسأله أحدهم عابسا وهو يرمقه بنظرات باردة .

ـ ماذا بقى لتقوله ؟ ... لقد شاهدتك القرية كلها تحاول إرغام الصبى على الكلام !

ـ لا تلم إلا نفسك .

وقال ليفينسون هادئا :

ـ أطلقوا عليه الرصاص .. ولكن خذوه بعيدا !.

وتساءل كوبراك :

ـ وماذا عن القسيس ... إنه عاهرة أيضا ... لقد كان كريم الضيافة نحو ضباط الأعداء .

ـ أطلقوا سراحه ... ليذهب إلى الجحيم .

واندفع الجمع وقد انضم إليه عدد من جنود الأنصار خلف كوبراك وهو يجرجر الرجل ذا الصديرية . وتشبثت قدما الرجل بالأرض باكيا ، وفكه الأسفل يرتعد .

وأقبل سيسكين على ميتشيك ، وقد أصبحت قلنسوته شديدة القذارة ولكن وجهه كان ينطق بالانتصار .

وقال بصوت تشيع فيه الكبرياء والغبطة :

— أنت هنا ... كلك خدوش... دعنا نذهب بحثا عن الطعام! ... إنهم سيقومون «بتنظيف» هذا الرجل تماما .

وكانت عبارته كما ينطق بها حافلة بالمعنى ! ... ثم أطلق من فمه صفيرا .

وقد تناولا العشاء داخل كوخ خانق تنتشر فيه رائحة الخبز والكرنب ، وامتلأ ركنه المجاور للموقد بأكداس من رؤوس الكرنب القذرة ... وظل سيسكين يلتهم الخبز والحساء ، مثرثرا عن بطولته الشخصية ، وهو يختلس النظر إلى الفتاة التي تقدم لهم الطعام .

وكانت فتاة هيفاء ، ذات ضفائر طويلة ... يبدو عليها الحياء ... والسعادة . وقد حاول ميتشيك أن يستمع إلى سيسكين ، ولكنه كان متوترا ، يضطرب لأي حركة .

وأثناء الابتلاع والاكتظاظ بالطعام كان سيسكين ، يواصل حديثه :

— ... وفجأة انعطف وصوب إليّ البندقية ... ولكنني كنت أسبق منه .

وفي هذه اللحظة اهتزت مصاريع النوافذ ، ثم سمع سيل من الطلقات يتردد بعيدا ، وسقطت الملعقة من يد ميتشك ، وقد سيطر عليه الرعب وشحب وجهه .

فصاح يائسا ، مغطيا وجهه بيده «أما من نهاية ؟... أما من نهاية لكل هذا ؟!» ، واندفع خارج الكوخ .

وبدأ يستغرق داخل نفسه ، دافنا وجهه فى ياقة معطفه ، وقد تمدد بين الشجيرات دون أن يتذكر كيف وصل إلى هناك :

« لقد أطلقوا النار عليه .. على هذا الرجل ذى الصديرية ... وسيقتلوننى أنا أيضا .. إن عاجلا أو آجلا ... ولكن هل أنا حى حقيقة ؟ ... قد أكون ميتا دون أن أدرى !! . لن أرى مرة ثانية هؤلاء الذين يحبهم قلبى ... فتاتى ذات الخصلات التى مزقت صورتها إربا ... لا بد أنه بكى كثيرا ، ذلك الرجل المسكين ذو الصديرية ... لماذا يا إلهى مزقت الصورة ؟ ألن أراها ثانية ؟ ... ما أشد تعاستى !! »

وكان المساء قد أوشك حينما عاد من وسط الشجيرات ، وعيناه لا دموع فيهما ، وعلى وجهه ارتسم عبوس قاتم .

وارتفع غناء يترنح سكرا من مكان قريب ، يصاحبه عزف على الأكورديون ... وعند الباب الكبير التقى بالفتاة الهيفاء ، تحمل جردلين من الماء بين طرفى عصا على كتفيها ، وهى تنوء تحت ثقل ماتحمل ، ولكنها رشيقة كغصن من كرمة .

وقالت رافعة أهدابها الفاحمة مبتسمة : « يجب أن ترى واحدا من رفاقكم ... يمرح بين شبان قريتنا ... أنصت ... هل تسمعنى ؟ »

وحركت رأسها الصغير الجميل على أنغام الموسيقى الصاخبة التى تنساب من الركن القريب ، وتمايل الجردلان أيضا ، وطار رشاش الماء وسيطر الخجل على الفتاة فولت هاربة ناحية الباب الكبير .

وارتفع صوت مخمور يعرفه ميتشيك كل المعرفة متغنيا .

« هذا يحلو لنا ... نحن زبائن السجن ! »

وتطلع حول المكان ، فرأى موروزكا يطوح الأكورديون ، وقد تدلت خصلة شعره النافرة على عينيه والتصقت بجبهته الحمراء التى تصبب عرقا .

وكان موروزكا يترنح وسط الشارع ، وهو يتعثر تعثرا كريها ملوحا بالأركورديون فى جميع الجهات ، وعليه سيماء رجل يقترف منكرا وهو يعلم أنه منكر والندم يمزقه ، ووراءه جمع من الرجال لا يقلون سكرا عنه ، دون أحزمة أو قلنسوات . وعلى جانبيه يجرى أطفال حفاة ، صائحين مثيرين سحبا من الغبار . وهم يتوثبون ويصخبون كالقرود .

وحينما أبصر موروزكا بميتشيك صاح فى اغتباط زائف مخمور :

ـــ أهلا بصديقى القديم ... أين أنت ذاهب ؟ ... أين ؟ لا تخف ! لن نؤذيك ... تعال واشرب معنا ... لتصاحبك اللعنة حتى الجحيم .. وعلى أية حال سنموت جميعا سويا .

وأحاط الجمع بميتشيك . يحتضنونه ويقبلون عليه بوجوههم المخمورة التى تشيع فيها الطيبة ، ولهاثهم السكريه يصك وجهه ، ودفع أحدهم زجاجة ومعها نصف خيارة إلى يديه !!

وقال ميتشيك وهو يحاول الخلاص :

ـــ لا ... لا أنا لا أشرب ... لا أريد .

وصاح به موروزكا وهو يكاد يبكى فى حماس مخمور :

ـــ اشرب ... لتصاحبك اللعنة حتى جهنم ... الأب ... الابن ... الأم المقدسة ... سنموت كلنا سويا !!

وأذعن ميتشيك :

ـــ كأسا واحدة من فضلكم ... أنتم ترون أننى لا أشرب .

وشرب من الزجاجة بعض الجرعات . أما موروزكا فقد بدأ يغنى بصوت مبحوح وقد حذب الأكورديون حتى النهاية ، وردد الآخرون غناءه .

وقال أحدهم وهو يقبض على ذراع ميتشيك : « تعال معنا » ثم بدأ يغني من أنفه متصيدا سطرا من الأغنية : « هذا هو عنواني ! » ... وضغط وجهه الشائك الشعر على وجه ميتشيك .

وسار الجميع ... يمرحون ويتعثرون ويخيفون الكلاب . ويوجهون لعناتهم إلى السماء — وهي معلقة فوق رءوسهم ، كقبة قاتمة لا نجم فيها — وإلى أنفسهم . وأمهاتهم ... وإلى هذا العالم الممتلىء بالقسوة ... والضجر .

الفصل السادس عشر

المستنقع

لم تشترك فاريا فى المعركة ، فقد بقيت فى الوادى مع ركب الأمتعة ، وهى لم تصل إلى القرية إلا بعد أن اتخذ الجنود من أكواخ الفلاحين مقرا لهم . وقد لاحظت أنهم توزعوا الأكواخ عشوائيا ، واختلطت الفرق المختلفة ، ولم يعرف أحد أين استقر رفيقه ، ولم يعد الجنود يعبأون بالقواد ... فقد تناثرت الفرقة إلى مجموعات مستقلة .

وفى طريقها إلى القرية أبصرت جثة ميشكا ، جواد موروزكا ، ولكن أحدا لم يستطع أن يخبرها ماذا أصاب زوجها بالتحديد ، فبعضهم أرجف بأنه مات قتيلا ، وبأنهم شهدوا مصرعه بعيونهم التى فى رؤوسهم ، واكتفى بعض آخر بأن يجعلوه جريحا . أما الباقون الذين لم يتظاهروا بمعرفتهم شيئا عن مصيره ، فقد بدأوا يشكرون نجمهم السعيد على إيابهم سالمين ، وزاد ذلك كله من تعاسة فاريا ويأسها .. منذ إخفاقها مع ميتشيك .

وبعد أن أنهكها إلحاح الرجال عليها بالغزل الفاضح ، وثقلت عليها وطأة الجوع ، وعصفت بها الأفكار السوداء ، التقت آخر الأمر بالقائد دوبوف وهى لا تكاد تستقر على السرج إعياء .. بل كانت على وشك أن تنفجر باكية . وكان دوبوف أول شخص يسره مرآها حقيقة ، فحياها بابتسامة عطف رصينة .

وحينما أبصرت وجهه العبوس الذى أدركته الشيخوخة فجأة ، وشاربه الأسود المتهدل الأغبر ، وحينما أبصرت حولها هذه الوجوه العزيزة عليها ، التى ألفت خشونتها واغبرارها بتراب الفحم ، تماما كوجه دوبوف ، اعتصرت قلبها أنامل من شجن ممض ... ولكنه عذب مع ذلك ؛ فهو ينطوى على حب لهؤلاء الرجال ... وإشفاق على نفسها .

وتذكرت أيام صباها ... فتاة حلوة ساذجة ، ذات ضفائر ناعمة ، وعينين واسعتين فيهما أشواق قلقة . تدفع العربات فى المناجم المظلمة ، وترقص فى المنتديات الليلية ... تحيط بها هذه الوجوه نفسها تتلظى بالاشتهاء !

وقد ابتعدت عنهم قليلا منذ أن تشاجرت مع موروزكا ... ولكنهم ظلوا أقرب الناس إلى قلبها ... هؤلاء الرجال الذين عاشوا وعملوا بجوارها فى المنجم ... والذين طالما غازلوها .

ــ لقد كدت أنساهم ... كم مضى على غيابهم ؟ ... آه أيها الأحباب !!

واصطبغ تفكيرها بالحب وتأنيب الضمير ... واستشعرت خدرا حلوا ، وهى تجاهد كى تمنع الدموع التى تجمعت فى مآقيها أن تنحدر .

ودوبوف وحده قد نجح فى تنظيم رجاله ، وحملهم على الإقامة فى أكواخ متلاصقة ، وانتشر رجاله فى مواقع للحراسة حول القرية ، كما قدموا العون إلى ليفينسون فى التزود بالمؤن .

وانبعثت أمام الأعين حقيقة واضحة ، طالما استترت وراء تعاقب الأحداث وتواليها ، ووراء التفصيلات اليومية ، حيث يبدو دور الجميع متساويا ... وهى أن فصيلة دوبوف قلب الفرقة النابض .

وعلمت فاريا من الرفاق أن موروزكا حى لم يجرح ، وشاهدت حصانه الجديد الذى غنموه من الأعداء ؛ وهو مهر كستنائى مرتفع

القوائم نحيلها ، ذو معرفة كثيفة الخصلات ، ورقبة طويلة هزيلة تضفى عليه طابعا من الدهاء والغدر، لذلك فقد أطلقوا عليه اسم « يهوذا » :

وفكرت فاريا وهى تنظر إلى الجواد غائبة الذهن : « إذن ... هو مايزال حيا ... حسنا هذا يبهجنى »

وبعد الغداء اعتلت كومة من الدريس ، وتمددت فوق أعشابها العطرة ، وهى ترهف السمع خشية أن يصعد إليها واحد من « الأصدقاء القدامى » ! ، وتذكرت مرة ثانية ، أن موروزكا مازال حيا ،وصاحبت الذكرى عاطفة دافئة ، فيها عذوبة وفيها أحلام ، وما لبثت أن استغرقت فى نوم جعلته هذه العاطفة هنيئا مطمئنا ...

واستيقظت فجأة وقد دهمها قلق ممض ، ويداها خدرتان من البرد . وليل شامل لا حدود لظلامه يملأ المكان ، وهبت ريح باردة فعصفت بالأغصان ، وأطاحت بالدريس ، وملأت الحديقة بحفيف الأوراق .

وفكرت فاريا والرعب يملأ نفسها « يا آلهى ... أين موروزكا وأين الباقون جميعا ... هل سيتركوننى وحيدة مرة ثانية فى هذه الحفرة المظلمه ؟ »

وارتدت معطفها فى عجلة محمومة ... وهى ترتعد ... وتتعثر فى الأكام ، وهبطت كومة الدريس مهرولة .

وعلى مقربة من الباب الكبير حدد الظلام شبح واحد من الحراس .

وتساءلت وهى تدنو :

ــ من الحارس هنا ؟ كوستيا ؟ هل عاد موروزكا ؟

فأجابها كوستيا محنقا :

ــ إذن كنت تنامين على كومة الدريس ؟ ... ما أسوأ طالعى ! فأنا لم أعرف ... أنا است ساهرا فى انتظار موروزكا .. لقد ذهب يلهو ... إنه يشرب كى ينسى ... حصانه ! ... الجو بارد أتشعرين به ؟

هل معك ثقاب ؟

وبحثت فى جيوبها ثم أعطته الصندوق . فاشعل عودا وهو يحوط النار بيدين كبيرتين ، ثم قرب العود المشتعل من وجهها ... قائلا وهو يبتسم :

ـــ لست فى صحة جيدة يافتاتى !

ورفعت ياقة معطفها مخترقة الباب الكبير قائلة :

ـــ تستطيع الاحتفاظ بالثقاب .

ـــ إلى أين أنت ذاهبة ؟

ـــ أبحث عن زوجى .

ـــ موروزكا ؟ حسنا ... حسنا . قد أستطيع أن آخذ مكانه ... ماذا تقولين فى ذلك ؟

ـــ لا ... لا أعتقد ذلك .

ـــ هذا شىء جديد !!

ولم تجب ... وجال فى ذهن الحارس « إنها واحدة منا ... بنت رائعة »

ولم تستطع فاريا أن تستبين الطريق فى الظلام ، وبدأت السماء تمطر رذاذا .. وصك سمعها حفيف الأشجار فى الحدائق كئيبا منذرا بالسوء . وجاء نباح جرو مقرور ، كاد يتجمد من البرد ، كأنه أنين و نواح . وتحسست فاريا طريقها إليه ، ووضعته فوق صدرها تحت المعطف . وكان الجرو يرتجف ارتجافا شديدا وهو يلصق أنفه بها .

وظلت سائرة حتى التقت بحارس من فصيلة كوبراك قريبا من كوخ ، فسألته أين يمرح موروزكا ، فأشار الحارس إلى الكنيسة !. وقد طافت فاريا بما يزيد على نصف القرية دون أن تجده . فعادت أدراجها يائسة ، وأوشكت لكثرة ماعبرت من دروب أن تضل الطريق ، فسارت

تتخبط على غير هدى . وضغطت الجرو — الذى أصبح الآن دافئا — على صدرها . وقـد مضى ما يقرب من ساعة قبـل أن تصل إلى الطريق المفضى إلى الأكواخ ، حيث عسكرت فصيلة دوبوف ، وسارت فى هذا الطريق مستندة بيدها الطليقة على السياج ، خشية أن تنزلق قدماها ، وما كادت تسير بضع خطوات حتى ارتطمت بموروزكا .

وكان راقدا على بطنه ، ورأسه بين يديه ، يئن أنينا خافتا بجوار السياج ، وقد انتهى لتوه من القيء . وشعرت فاريا أنه زوجها أكثر من أن تكون قد تعرفت عليه ، فليست هـذه أول مرة تراه فيها على هذه الحال .

وانحنت واضعة يدها الرقيقة الحنون على كتفه ..

— فانيا ... لماذا ترقد هنا ؟ ... أنت متعب .. أليس كذلك ؟

ورفع رأسه إليها ، فرأت وجهه ... شاحبا ... منتفخا ... هربت منه الحياة . وأحست الاشفاق عليه يحتويها ... فهو ضعيف ... ضئيل .

وحينما عرفها ، اغتصب ابتسامة ، وأجهد نفسه كى يتحكم فى حركته وهو ينهض جالسا ... ويستند إلى السياج ... ويمد ساقيه .

وقال متلعثما ، بصوت واهن : « هذه أنت ؟ . . . تحـ . . ياتى واحترا . . . ماتى ... المتواضعة » محاولا أن يحا لى لهجته المعتاده ... الهازئة التى لا تبالى بشىء ..

فردت عليه قائلة : « تحياتى إليك أيها « الرفيق » موروزكا !

وأخذت بذراعه . . « تعال معى ... يا فانيا .. أو قد لا تكون لديك القوة الـكافية ... انتظر قليلا ، سأتدبر الأمر فورا ... سأوقظ أحد النائمين » ثم انتصبت فى حزم وقد انتوت أن تحمله إلى أقرب كوخ ، ولم تفـكر لحظة فى صواب إزعاج هؤلاء الغرباء بعد منتصف الليل ، أو فيما يعتقدونه حينما تدلف إلى الـكوخ حاملة رجلا مخمورا ... لم تفـكر

فى ذلك على الإطلاق .

ولكن موروزكا أشاح برأسه فجأة فى رعب ، ثم قال متلعثما مبحوح الصوت : « لا ... لا .. ويل لك منى إذا أزعجت أحدا ... كونى هادئة ! »

وهز قبضتيه أمام رأسه ، فظننته قد استفاق بتأثير الخوف ! ... « جونشارنكو يقطن هنا ... ألا تعلمين ؟ ... كيف تستطيعين ..؟ »

— حسنا ... وماذا يهمنا منه ؟

فعبس متألما ، وأمسك رأسه بيديه :

— أنت لا تعرفين ... إنه يعتقد أننى رجل ... فكيف أستطيع؟ لا أنت لا تستطيعين أن تفعلى ذلك !

فقالت وقد انحنت عليه مرة ثانية .

— أى هراء تقول ياحبيبى ؟ ... أنظر ! السماء تمطر ... والأرض مبتلة ... نحن مرتحلون غدا ... تعال معى ياحبيبى !

فقال بصوت حزين ... جاد . « لا لقد انتهيت ... من أنا الآن ... ؟ » ... وماذا أصبحت ؟ ... وما فائدتى لأحد ؟ ... ما رأيكم أيها الرفاق ؟» وتطلع إلى الجانبين بعينين منتفختين تملؤهما الدموع .!!

فوضعت ذراعها الطليق حوله ، ملتصقة به ، حتى كادت أهدابها تمس شفتيه ، وهى تهمس له فى حنان وإعزاز كما لو كان طفلا .

— « لماذا كل هذه التعاسة ؟ ... ما الذى يفترس روحك ؟ .. أنت حزين من أجل الحصان ... هه ؟ .. ولكنهم أعطوك حصانا آخر حصانا رائعا ... لا تكن تعسا ... يا أعز الأحباب ... لا تبك ... انظر إلى هذا الكلب الصغير الذى وجدته ... انظر إلى الجرو الصغير الجميل ! »

وأعادت ياقة معطفها إلى مكانها ، وأرته الجرو النائم ذا الأذنين

الطويلتين ... وكانت شـديدة التأثر ... وكيانهـا كله يفيض بالحب والحنان :

وصاح موروزكا برقة سكرى ، ممسكا بالجرو من أذنيه :

ـــ آه ... آه ... يا كلبى الصغير العزيز ... ياصغيرى الجميل ... من أين أتيت به ؟ ... أنه يعض ... الصغير ... ابن العاهرة !!

ـــ والآن هيا بنا ... يا أعز الأحباب !

ونجحت فى أن تنهضه على قدميه ، وهى تدلله ، محاولة أن تنأى بذهنه عن الأفكار السوداء ، ثم قادته إلى البيت . ولم يعد يقاوم بل اطمأن إليها ، وأطاعها .

وفى طريقهما لم يذكر ميتشيك أبدا ، وهى كذلك لم تنطق بكلمة عنه ، كأن ميتشيك لم يقف حائلا بينهما على الإطلاق . وسرعان ما تحول موروزكا إلى الوجوم والصمت ... واقترب من الصحو بشكل واضح .

وحينما وصلا إلى مقر فصيلة دو بوف ، أمسك موروزكا بخشبتى السلم ، محاولا الصعود إلى كومة الدريس ، ولـكن ساقيه لم تطيعاه .

وسألت فاريا « أتريد أن أساعدك ؟ »

فأجابها بخشونة كى يغطى حيرته « لا ... سأصعد دون مساعدة ... أيتها العاهرة ! »

ـــ حسنا ... إلى اللقاء ..

وسقطت يداه ، ونظر إليها مذعورا :

ـــ ماذا تعنين بإلى اللقاء ؟

فأجابته بضحكة مفتعلة حزينة :

ـــ أعنى ... إلى اللقاء !

وخطا نحوها فجأة ، ووضع يديه حولها فى غلظة . ثم ضغط خده على خدها ، وأحست بأنه يريد تقبيلها . . وقد قبلها فعلا ، رغم أنه

خجل من هذه القبلة ... فمن النادر أن يقبل رجال المناجم الفتيات ، إنهم يضاجعون دون قبلات ! وهو لم يقبلها طيلة حياتهما الزوجية إلا مرة واحدة فى يوم الزفاف ، حينما كان مخمورا فاقد الوعى ، والجيران يصيحون به « قبل عروسك ! »

وجال بذهن فاريا أن ذلك « هو بعينه ما كان معتادا فى الايام السالفة ، كأن شيئاً لم يحدث » ، واصطبغت أفكارها بالتياع مرير حينما غلب زوجها النعاس بعد أن روى ظمأه إليها ، ورأسه متوسد كتفها « مرة أخرى فى الطريق القديم ... الجولة القديمة نفسها ... الاتجاه القديم نفسه ... ولكن يا إلهى ما أقل البهجة فى كل ذلك ! .. »

واستدارت بظهرها ناحية موروزكا ، واغلقت عينيها ، وثنت ركبتها إلى أعلى ولكنها لم تعرف النوم هذه الليلة .

ودوى فى هدوء الليل نذير الخطر ... ثلاث طلقات ، آتية من مواقع الحراسه بعيدا وراء القرية ، عند ابتداء طريق الخوانيخيدزا وأيقظت فاريا زوجها ، فرفع رأسه المشعث ، ودوت طلقات الحراس من وراء القرية مرة ثانية . وما أسرع ماجاء الرد على هذه الطلقات ممزقا سكون الليل وظلامه ، منطلقا من مدافع آلية تعوى كقطيع من الذئاب وهز موروزكا رأسه فى ضيق ثم تبع فاريا هابطا السلم . وكان المطر قد انقطع ولكن الريح عاصفة ... ومصاريع النوافذ تصطفق ، وأوراق الأشجار الذابلة السابحة فى ماء المطر ، تبعث فى الظلام حفيفا غليظا وتناثرت أضواء فى سواد الليل ، ورجال دوبوف يجرون صائحين فى الدروب يطرقون النوافذ .

واسترجعت ذاكرة موروزكا أثناء الدقائق القليلة التى استغرقها فى الذهاب إلى الحظيرة ، وقيادة حصانه « يهوذا » خارجها ، كل أحداث الأمس . وانقبض قلبه حينما تراءى له «ميشكا» قتيلا وعيناه الزجاجيتان

جاحظتان ، ثم تذكر فجأة ، بنفور وكراهية ، مسلكه الزرى ليلا .. وهو يترنح سكرا فى الشوارع .. وقد رآه الجميع ... جندى سكير من جنود الأنصار ، وسمعه الجميع يصيح بالأغنيات الفاجرة التى ترددت من بداية القرية إلى نهايتها ... وكان ميتشيك ، عدوه ، معه ... كانا يشربان سويا كالأصدقاء القدامى ، وأقسم هو أنه يحب ميتشيك ، وتوسل إليه أن يصفح عنه ... لماذا ؟.. ومن أجل أى شىء يصفح عنه ؟ ، ورأى الآن ما فى مسلكه من زيف مطبق . وماذا سيقول عنه ليفينسون ؟.. وهل يستطيع حقا مواجهة جونشارنكو .. هذه المرة الثانيه بعد المشاجرة التى فضها ؟

وكان أكثر رفاقه يضعون السروج على الخيل ، وقد خرج بعضهم من الأبواب يقودون الجياد ، ولكنه سىء الحال ، فقد كان ينقصه شريط للسرج كما نسى بندقيته فى كوخ جونشارنكو .

وتضرع إلى دبوف حينما أبصره يذرع الردهة وثبا ، بنبرات دامعة تثير الرثاء : «أنا أعرف أن لديك شريطا زائدا ... أعطه لى»

فتوالت اللعنات عنيفة من فم دوبوف ، ثم دفع الخيل بوحشية حتى تراجعت ومرق إلى حصانه : « ماذا ؟ . . . وفيم كنت تفكر طول هذا الوقت ؟ »

وعاد بعد دقيقة إلى موروزكا بالشريط قائلا بغضب « هذا هو الشريط »

ثم أهوى به فجأة على ظهر موروزكا بكل قوته .

وقال موروزكا لنفسه « يستطيع أن يضربنى الآن ، بطبيعة الحال ، فأنا أستحق ذلك » ولم ينطق بكلمة احتجاج ، بل هو لم يشعر بالألم . ولكن العالم كله أصبح أشد سوادا أمام عينيه ، وبدت له الطلقات التى تدوى فى الظلام ، والظلام نفسه ، والمصير المتربص به خارج القرية —

بدا له كل ذلك قصاصا عادلا لما اقترف فى حياته من آثام .

وبينما الفرقة تتكامل ، امتد نطاق النيران حتى شملت نصف دائرة تصل إلى النهر ، واحترقت القنابل المتوهجة وهى تتلوى فى الهواء ، ثم انفجرت فى القرية .

وانطلق باكلانوف جاريا إلى الباب الكبير ، وحزامه محكم حول معطفه ، ممسكا بمسدسه صائحا :

— ترجلوا ... شكلوا صفا واحد ... اتركوا عشرين رجلا مع الخيل .

ثم قال لدوبوف : « اتبعنى ... جريا » ووثب فى الظلام .. وتبعه صف من الرجال يغلقون معاطفهم ، وينزعون أكياس الذخيرة .

وفى الطريق التقوا بالحراس الهاربين وهم يلهثون ، ويلوحون أيديهم فى يأس قائلين : « هناك جيش كامل منهم . »

وأرعدت مدافع الميدان ، وانفجرت القذائف فى وسط القرية ، فأضاءت جانبا من السماء لحظات قصيرة ، وظهرت أعلى قباب الكنيسة ، وحديقة القسيس متألقة بالندى . ثم بدت السماء أكثر قتامة . وانفجرت القذائف وبينها فترات قصيرة منتظمة ... وفى نهاية القرية اندلعت نيران عالية ، فلعل لهبا أشعل كوخا أو كومة من الدريس .

وكان على باكلانوف أن يعوق العدو ، حتى يتمكن ليفينسون من تجميع الفرقة المبعثرة فى أرجاء القرية ، ومن تنظيمها . ولكن الوقت كان متأخرا ... فقبل أن يستطيع باكلانوف قيادة الفرقة إلى الطريق ، أبصر على ضوء القنابل المتفجرة ، صفوف العدو مقبلة عليه . وقد تحقق استنادا على اتجاه النيران وأزيز الرصاص أن العدو يطوقهم من الميسرة ، من ناحية النهر وأنه قد يدخل القرية من هذه الناحية فى أية لحظة .

وبدأت الفرقة فى إطلاق النار ، متراجعه إلى اليمين فى خط مائل ،

وقد تفرقت إلى مجموعات صغيرة ، متعرجة فى الحارات والردهات والحدائق .

وأرهف باكلانوف السمع ، وأصغى إلى إطلاق النار عند النهر فعلم أنه ينحرف إلى الوسط ، وأدرك أنه لن يمضى وقت طويل قبل أن تقع القرية كلها فى أيدى العدو .

وتقدمت فرسان العدو فجأة مخترقة الطريق الرئيسى ، مكتسحة الشوارع فى سيل بركانى مرعد متعدد الرءوس ... من خيل ورجال .

ولم يعد باكلانوف يحاول احتجاز العدو ، بل فر مع فرقته بعد أن فقدت عشرة رجال فى اتجاه الغابة ، عبر المنطقة التى لم يحتلها العدو بعد .

والتقوا ببقية رجالهم يقودهم ليفينسون عند حافة أخدود ، ينتهى معه آخر صف من أكواخ القرية . وكان ليفينسون فى انتظارهم . . . وأصبحت صفوف الفرقة شديدة الهزال .

وصاح ليفينسون نافد الصبر «هاهم أولاء ... إلى الخيل فورا .»

وركضوا حثيثا إلى الغابة التى بدت هائلة فى الوهاد ، وأبصر بهم العدو ، فانطلقت مدافعه الآلية تهدر فى أعقابهم ، وبدأ النحل الضخم يطن فى ظلام الليل فوق رءوسهم . وظلت القنابل المشتعلة ذات المسار الثعبانى ، تضىء السماء ، وهى تنقض من عل ، ناشرة ذيولها النارية ، مرسلة فحيحا صاخبا ، ثم تدفن نفسها فى الأرض بالقرب من حوافر الجياد . وتقفز الجياد جانبا ، فاغرة أفواهها الدامية الملتهبة ، نائحة كالنساء . والتحمت صفوف الفرقة تاركة وراءها أجساما تتلوى ألما على الأرض .

وتلفت ليفينسون وراءه فأبصر جحيما يرتفع فوق القرية ؛ ومنازلها تحترق ، ورأى فى هذا التألق ، أشباحا سوداء ، متقدة الوجوه هائمة على وجوهها ... أفرادا وجماعات .

وكان الدكتور ستاشينسكى يركض إلى جوار ليفينسون ... وفجأة سقط عن جواده ، وظلت قدمه عالقة بالركاب ، والحصان يجرجر جثته على الأرض . وما لبثت قدمه أن انزلقت من أسر الركاب ... وواصل الحصان ركضه وحيدا ، وانعطفت الفرقة كلها ... فلم يجرؤ أحد أن يطأ جثمان الطبيب .

وصاح باكلانوف فى حماس مشيرا إلى اليمين: «ليفينسون ... انظر!»

وكانت الفرقة قد وصلت إلى قاع الأخدود ، حثيثة الاقتراب من الغابة ، وفرسان العدو يستبقون مخترقين الأفق — عند التقاء الأرض السوداء بالسماء — لسد الطريق عليهم . وشوهدت الخيل وقد امتدت رقابها السوداء ، ومال الفرسان على هذه الرقاب ، فى تألق السماء الخاطف . ثم اختفوا فى الظلام هابطين منحدر الأخدود .

وصاح ليفينسون . ملتفتا إلى الوراء وهو يهمز جواده : «أسرعوا ... أسرعوا ..»

وأخيرا وصلوا إلى حافة الغابة فترجلوا عن خيلهم . وبقى باكلانوف مرة ثانية مع فرقة دوبوف كى يغطى الانسحاب . وتوغلت بقية الفرقة فى الغابة ؛ وقد أمسك الجنود بأعنة الخيل .

وكانت الغابة يلفها هدوء وادع ... بعد أن ترك الجنود وراءهم هدير المدافع الآلية ، ودوى البنادق ، وإرعاد مدافع الميدان ... وبدا أن هذه الأصوات الغريبة لا تستطيع أن تذهب بسكينة الغابة .

ولكنهم استطاعوا فى بعض الأحيان أن يسمعوا قذيفة تنفجر عاليا مدمرة الأشجار فى قلب الغابة . وألقى ضوء الحريق — وهو ينفذ عبر الأدغال — على الأرض ، وجذوع الأشجار انعكاسات قاتمة التوهج ، تزداد سوادا عند الحواشى . وتصبغ الطفيليات التى تتسلق الأشجار بلون الدم .

وأسلم ليفينسون حصانه إلى ييفيمكا وترك القيادة لكوبراك، بعد أن حدد له اتجاه السير (وقد حدد هذا الاتجاه عشوائيا، فالجميع يتوقعون منه أوامر محددة!) وانتحى جانبا كى يحصى عدد فلوله.

ومر أمامه هؤلاء الرجال ... غارقين فى الماء ... منسحقين ... غاضبين وهم يشون ركبهم زاحفين إلى الظلام ... والماء يتطاير تحت أقدامهم والخيل تغرق حتى البطون فى مستنقعات الغابة.

وأصبح الأمر عسيرا شديد العسر، على المرشدين فى فرقة دوبوف؛ فكل منهم يقود ثلاثة جياد... وفاريا وحدها تقود اثنين، جوادها وجواد موروزكا.

وامتد فى أعقاب هذا الطابور من الرجال المتعبين، طريق موحل متعرج نتن، كأن حوتا أسطوريا، لزجا بغيض الرائحة، قد شقه بزحفه.

ومضى ليفينسون فى آخر الجميع، وهو ينقل ثقل جسمه من قدم إلى الأخرى ... وفجأة توقفت الفرقة.

فتساءل ليفينسون: «لماذا التوقف؟»

وأجاب الجندى الذى يسبقه.. وهو ميتشيك: «لا أعرف»، فأمره ليفينسون أن ينقل السؤال حتى آخر الصف، وسرعان ماجاءته الإجابة ترددها شفاه مرتجفة شاحبة: «أمامنا مستنقع... لا منفذ»

وتغلب ليفينسون على رعشة مفاجئة أمسكت بساقيه، ومضى عدوا إلى كوبراك؛ وما كاد يختفى بين الأشجار حتى كانت الفرقة كلها قد تراجعت متناثرة فى كل الاتجاهات. وامتد أمام الجنود مستنقع مظلم يضرب أذرعه فى كل صوب، ويستعصى على الاجتياز. ولم يكن أمامهم إلا الرجوع ثانية عبر الطريق الذى تحميه فصيلة عمال المناجم ببسالة. ولم تعد النيران والطلقات عند حافة الغابة شيئا نائيا، بل واقعا يوشكون

على ملاقاته ، وظلت هذه النيران والطلقات تزداد اقترابا .

واستحوذ الغضب واليأس على الرجال . . . وبحثوا عمن يحملونه مسئوليه المحنة ، ولم يكن بطبيعة الحال غير ليفينسون ... ولو وقع فى أيديهم هذه اللحظة لا نقضوا عليه بكل ما فى غضبتهم من اندفاع ؛ فليخرجهم من المأزق مادام قد دفعهم إليه !

وفجأة مَثَل قائدهم أمامهم فعلا ، وسط هؤلاء الرجال الذين أطاح الرعب بصوابهم ، يحمل شعله موقدة بيده ، تضىء وجهه ولحيته ، وقد شحب هذا الوجه حتى حاكى وجوه الأموات ، وانطبقت أسنانه وانتقلت عيناه الواسعتان — وقد استدارتا وتوهجتا — من رجل إلى رجل ، ودوى صوته فى لحظة من الصمت ... بين ضجيج لعبة الموت ... فوصل إلى كل أذن : «من ينشر الفوضى فى الصفوف ؟ ... عودوا إلى أماكنكم البنات الصغيرات وحدهن يصبن بالذعر ... صمتاً ! »

ثم صاح فجأة مكشراً عن أنيابه ، منتزعا مدفعه ، فتجمدت صيحات الاحتجاج على شفاه الرجال :

— استمعوا إلى أوامرى . . . سنقيم معبرا على المستنقع ... ليس أمامنا طريق آخر .

ثم صاح بالقائد الجديد للفرقة الثالثة بوريسوف : «اترك المرشدين الذين معك واذهب لمساعدة باكلانوف ... أخبره أن يصمد حتى أعطى أمرا بالتراجع . كوبراك ! عين ثلاثة رجال حلقة اتصال بباكلانوف . اسمعوا جميعا !.. أوثقوا جيادكم ... لتقطع فصيلتان الشجيرات ... استخدموا السيوف دون إبطاء . . . ليخضع الباقون جميعاً لقيادة كوبراك دون مناقشة ! كوبراك اتبعنى » وأدار ظهره إلى الرجال واتجه منحنياً إلى المستنقع رافعاً فوق رأسه شعلة متوقدة من خشب الصنوبر .

واختلطت كتلة الرجال كلها . . . مقهورين منسحقين ، وأيديهم التى

ارتفعت منذ لحظة فى يأس باك ، و تأهب لقتل قائدهم ، اندمجت فى غمرة العمل، مطيعة مذعنة ، فى عجلة غاضبة... شيطانية... لاتمت إلى النشاط الإنسانى .

وفى لمحة خاطفة .. كانت الخيل موثقة ،والفؤوس تهوى ، والأشجار تنهار تحت ضربات السيوف ، وفصيلة بوريسوف تغذ السير مختفية فى الظلام ... تصحبها قعقعة السلاح ، وأقدام جنودها لاتكاد ترسل وقعاً ، وهى مارة برجال قد احتطبوا أحمالا ثقيلة من الجذوع المبتلة .

وسُمع صوت شجرة تنهار ، وسقطت كتلتها الضخمة الكثيفة فى المستنقع الرجراج الزلق ، وعلى ضوء الشعلة المتوهجة أبصر الرجال بالسطح اللزج ، القاتم الخضرة ، المغطى بالطحالب ، يتنهد ويتموج فى انثناء هائل ، كجسم أفعى من عمالقة الحيات .

واقترب الرجال متلاصقين ... خائضين الطين والماء فى الهوة القاتلة ، متشبثين بالجذوع على ضوء الشعلة ... التى استنقذت من الظلام وجوههم الشائهة ، وظهورهم التى يقصمها الجهد . وكذلك اشتباك الأغصان اشتباكا كثيفا . وكانوا يعملون وقد نزعوا عنهم المعاطف ، وأجسادهم الغليظة المتصببة عرقا ، الدامية .. تلتمع خلال الملابس الممزقة ... وقد فقدوا كل إحساس بالزمان والمكان ، وبأجسامهم وبالعار والألم والإجهاد .

وتوقفوا قليلا وهم يغترفون الماء الآسن الراكد ، الذى تفوح منه رائحة الضفادع وبيضها ، ويعبون منه شرهين كوحوش جريحة .

وإطلاق النار يقترب بعد لحظة ، مرعدا مخيفا ، وباكلانوف يرسل رجلا بعد رجل متسائلين ... «أسينتهى الأمر قريبا ؟... قريبا ؟»

وقد خسر باكلانوف ما يقرب من نصف رجاله ، كما فقد دوبوف الذى سال دمه من جراحه المتعددة حتى الموت . وكان نائب القائد يتراجع متباطئا ، متقهقرا بوصة بعد بوصة . ووصل آخر الأمر إلى الدغل

الذى قطعت أشجاره لبناء المعبر ، ولم يستطع التقهقر بعد ذلك .
وتكاثف أزيز الرصاص فوق المستنقع ، وأصيب كثير من العاملين فى البناء فضمدت فاريا جروحهم .

وبعث إطلاق الرصاص الرعب فى قلوب الجياد ، فصهلت غاضبة وتقهقرت فى ذعر ، واستطاع بعضها الافلات من قيده ، وركضت عمياء فى الطريق ، فسقطت إلى المستنقع ، وهى تنوح ضارعة طالبة النجدة !

وحينما علم جنود الأنصار ، الذين يعوقون تقدم الأعداء ، أن الطريق قد تم بناؤه ، تركوا أماكنهم وولوا الأدبار ، وتبعهم باكلانوف وقد غارت وجنتاه ، وتلظت عيناه ، واسود وجهه من دخان البارود مهددا بمدفعه الفارغ ، طالبا منهم العودة وهو يبكى غضبا ...

واندفع جنود الفرقة كلهم إلى المعبر ، صائحين ، ملوحين بمشاعلهم وأسلحتهم ، وهم يسحبون خلفهم الجياد الجامحة ... ورفضت الجياد التى جن جنونها الإذعان ، وقاومت بضراوة ، وتعثرت الخيل التى فى المقدمة بالخيل المتخلفة ... وانبعث من المعبر صرير ... ثم تداعى ساقطا ..!

وهوى حصان ميتشيك فى المستنقع عند النهاية الأخرى ، واضطروا إلى إخراجه بالحبال بين الصرخات الغاضبة واللعنات .

وتشبث ميتشيك فى إصرار بالحبل المنزلق ، الذى كان يرتعش بين يديه ، والحصان يقاوم فى شراسة ، وظل ميتشيك يواصل الجذب حتى كاد يتعثر بالجذوع الغارقة فى المستنقع . وحينما نجحوا فى إنقاذ الحصان آخر الأمر ، حاول جاهدا مستيئسا أن يحل العقدة التى التفت حول ساقيه الأماميتين ... وفى نشوة محمومة انقضت أسنانه على هذه العقدة

المحكمة ، التى تفوح منها رائحة المستنقع ... وتلتصق بها لزوجته البشعة ...

وكان آخر الذين عبروا ... ليفينسون وجونشار نكو .

وقد نجح جندى النسف فى بث ألغامه ، فما كاد العدو يصل إلى المعبر حتى تطاير منفجرا فى الهواء .

ومر وقت طويل قبل أن يعود الرجال إلى وعيهم ... ويعرفوا أن الصباح قد أشرق . وامتد الوادى أمامهم مكتسيا غلالة من الصقيع يختلط به لون الشفق المتوهج ... مع لون المشيب ... وتألقت أجزاء من سماء زرقاء بين الأشجار ، وبزغت الشمس من وراء الغابة ... وألقى الرجال بالمشاعل التى ظلت ترتفع فى أيديهم ... دون سبب واضح ! وحملقوا فى أيديهم الدامية الحمراء ، وفى خيلهم المجهدة المبتلة ، وقد حلق فوقها بخار لا غزارة فيه ... واسترجعوا ــ والدهشة تستحوذ عليهم ــ ما حققوه هذه الليلة !

الفصل السابع عشر

الرجل .. التاسع عشر !

على مبعدة خمسة فراسخ من البقعة التى أقيم عليها المعبر ، امتدت قنطرة فوق المستنقع ، متصلة بالطريق الرئيسى لوادى تودو — فاكو. وقد خشى القوزاق ألا تقضى فرقة ليفينسون الليلة الماضية فى القرية ، فأعدوا كمينا فى الطريق يبعد ثمانية فراسخ عن القنطرة ، وأنفق القوزاق الليلة كلها متأهبين للقاء فرقة ليفينسيون ، يصل إلى أسماعهم دوى المدافع البعيد . وفى الصباح جاءهم مبعوث يركض حاملا الأوامر : فعلمهم أن يبقوا حيث هم ، لأن الأنصار قد عبروا المستنقع ، وهم سائرون قدما إلى الكمين ! ولم تمض على رحيل المبعوث عشر دقائق حتى برزت فرقة ليفينسون إلى وادى تودو — فاكو ، وطريقه الرئيسى ...

وكانت الشمس قد ارتفعت فوق الغابة ، وذاب الصقيع الأبيض منذ بعيد ، وترامت السماء فوق الرءوس ثلجية شفافة الزرقة ...

وتألقت الأشجار مظللة الطريق ، ذهبية اللون ، سابحة فى ندى الصباح ، وكانت البشائر تنبىء بأن اليوم صحو ، لا يمت بصلة إلى أيام الخريف .

ونظر ليفينسون غائب الوعى إلى كل هذا الجمال المضىء ، فى نقاء وإشراق ، ولم يشعر به ... وتطلع إلى فرقته المجهدة وهى تتحامل على

نفسها فى وهن وإعياء ، وقد فقدت ثلثى رجالها ، وتحقق أنه متعب إلى درجة مميتة ... وأنه عاجز كل العجز أن يفعل شيئا من أجل رجاله ... الذين يترنحون خلفه فى تعاسة ، ولم يبق فى العالم كله أحد قريبا إلى قلبه أو محببا لديه مثل هؤلاء الرجال المكدودين ... الممتلئين إخلاصا . بل كانوا أعز لديه من حياته ، فهو لم يكف لحظة واحدة عن الشعور بمسئوليته نحوهم . واتضح له قصوره عن مساعدتهم ، وأنه لم يعد يقودهم . ولكنهم لم يحسوا بذلك . وظلوا منساقين خلفه ... كما يألف القطيع اتباع قائده . وكانت هذه الفكرة تمضه وتؤلمه طيلة صباح الأمس حينما تذكر مصرع ميتيليتسا .

وحاول أن يسيطر على نفسه ، وأن يركز انتباهه فى شىء ذى جدوى أو ضرورة ، ولكن أفكاره حلقت بعيدا ، وازدادت اختلاطا . وأحس بشىء ثقيل يغمض عينيه ... وإذا بصور لا ألفة فيها ... وذكريات مبتورة وانطباعات غامضة عن واقعه المباشر ... كلها غائمة متناقضة ... تسبح طافية فى ضباب ذهنه ، وهى لا تكف عن التغير ، خرساء ، تهاجمه فى حشد أثيرى :

« لماذا هذا الطريق الطويل ، الذى لا نهاية له ... ولماذا هذه الأوراق ذات الندى ، وهذه السماء الميتة ... وكلها خاوية من الدلالة بالنسبة إلىّ الآن ؟... نعم يجب أن أصل إلى وادى تودو — فاكو ... وادى تودو — فاكو ... ياله من اسم غريب ! ولكن كم أنا متعب ! وكم أتوق إلى الإغفاء ! .. ماذا يريد منى هؤلاء الرجال حينما تتملكنى هذه الرغبة العاتية فى النوم ؟... إنه يتحدث إلىّ عن جنود الاستكشاف .. نعم ، جنود استكشاف بكل تأكيد ... إن له رأسا مستديرا رقيقا .. كرأس ابنى . نعم يجب أن نرسل كشافين بطبيعة الحال ... وبعد ذلك ننام ... إن رأسه ليس مستويا كرأس ابنى ولكنه ... ماذا ؟...

ماذا تقول ؟ »

وتساءل فجأة وهو يرفع رأسه . وكان باكلانوف سائرا بجواره .

— أقول يجب أن نرسل جنود استكشاف .

— نعم ... يجب أن نفعل ذلك ، أرجوك أن تعطى الأوامر الضرورية !

وبعد دقيقة ، رأى ليفينسون جنديا يتقدمه فى خبب وئيد ، وتتبع القائد انحناءة ظهره ، فعرف فيه ميتشيك ، وبدا له أن من الخطأ قيام ميتشيك بهذه المهمة ، ولكنه لم يجهد رأسه ليكتشف أين الخطأ بالتحديد بل وقد نسى الأمر كله بعد دقيقة ... ولم يمض وقت طويل حتى تبع ميتشيك فارس آخر .

وصاح باكلانوف فى الكشاف الثانى : « موروزكا ... حذار أن يغيب أحدكما عن نظر الآخر »

وعاد ليفينسون إلى أفكاره « ألا يظل حيا ؟ . . . دوبوف أيها المسكين !... ولكن ماذا حدث لموروزكا ؟ ، نعم ... كان هذا فى الليلة الماضية ... من حسن طالعه أننى لم أره » .

وبعد أن قطع ميتشيك مسافة كبيرة ، التفت خلفه ، فرأى موروزكا يبتعد بما يقرب من خمسين ياردة ... واستطاع أن يبصر بالفرقة أيضا وما لبث موروزكا ، وما لبثت الفرقه أن اختفيا وراء انعطاف فى الطريق .

ولم تكن « نيفكا » راغبة فى الإسراع ، فحثها ميتشيك بحركة آلية ... ولكنه لم يفهم تماما لماذا أرسلوه على رأسهم ... لقد أمروه بالإسراع ... فأطاع !

والتف الطريق حول منحدرات يغطيها الماء ، وقد نمت فيه أشجار البلوط والاسفندان متشابكة ، وهى لم تزل محتفظة بأوراقها الحمراء .

وارتجفت نيفكا متوترة وظلت ملتصقة بالشجيرات ، ثم قطعت الطريق الصاعد إلى التل فى تراخ ، وميتشيك قد أغفى فوق السرج فلم يعد يحثها على الإسراع ، وحينما تعاوده اليقظة كان يرنو متعجبا إلى أعماق الغابة الكثيفة ، فليس لها بداية أو نهاية تماما كالإغفاء الذى يسيطر عليه ، أو الغثيان الذى يجرى فى عروقه ، أو شعوره بالإغتراب الكامل عما يحيط به !

وفجأة شهقت نيفكامذعورة ، واندفعت إلىالشجيرات ، وهى تكاد تلقى بميتشيك إلى كتلة متداعية من الأغصان ، فرفع رأسه وقد طار النعاس من عينيه فورا ، يطارده خوف لا يوصف . وفى الطريق ، بعد خطوات ... كان القوزاق ..

وقال أحدهم فى همس مبحوح : « انزل من الحصان » .

وأمسك آخر بعنان نيفكا ، فصاح ميتشيك صيحةخافتة ، وانزلق من السرج مستكينا ذليلا ، وعلى حين غرة ألقى بنفسه فى سرعة البرق إلى أسفل المنحدر ، وكاد ذراعه يتهشم مصطدما بجذع غليظ رطب . ولكنه نهض واقفا ثم واصل انحداره ، وزحف على أربع ، والفزع يخرس لسانه ... وأخيرا انتصب واقفا وهو يمرق إلى الأخدود . ولم يعد يشعر بجسمه ، وتشبث بكل ما صادفه ، وهو يقفز قفزات عالية . لقد كانوا يتعقبونه ، والشجيرات تصطفق وراءه ، - هناك رجل يجرى لاعنا ، يلهث فى غضب .

ولنعد إلى موروزكا ..

لقد كان يعلم أن كشافا يسبقه ، لذلك لم يهتم كثيرا بما حوله . . . وهو متعب إلى آخر حدود التعب ، تختفى من ذهنه كل فكرة . حتى أكثرها أهمية ، ولا تبقى إلا رغبة ملحة فى الراحة . . . الراحة بأى ثمن ! ولم يعد يفكر فى حياته أو فى فاريا أو فيما يظنه

جو نشار نكو عنه ، بل لم تكن لديه القوة كي يشعر بالأسى على مصرع دو بوف رغم أن دو بوف كان محببا إليه ... كسائر الناس . ولم يفكر إلا في اللحظة التي تتراءى له أرض الميعاد ، فاتحة ذراعيها حيث يستطيع رأسه المتعب أن يرقد في سلام . وبدت له أرض الميعاد ... قرية فسيحة وادعة ، تستحم في نور الشمس ، حافلة بالأبقار والناس الطيبين ، عبقة بأريج الخضرة والماشية ... وداعبه حلم في أن يوثق حصانه هناك ثم يشرب صحنا من اللبن ، مع قطعة كبيرة من خبز الشوفان حلوة الرائحة ، وبعد ذلك يتسلق كومة من الدريس ويستغرق في نوم عميق ، ورأسه مستند على كتفه ، ومعطفه الدافىء يلف قدميه ...

وقفز القوزاق بشرائط قلنسواتهم الصفراء فجأة أمامه ، وتراجع يهوذا مذعورا إلى مجموعة من شجيرات الورد ، وارتجفت في عيني موروزكا أوراقها الحمراء وبدت له كقطرات من الدم ... وغاص حلمه البهيج عن قرية فسيحة مشمسة ، في غمرة واقعه الحاضر ... في الخيانة الذكراء البغيضة التي ارتكبت هنا ... حيث هو .

وقال موروزكا متخيلا عيني ميتشيك الصافيتين الكريهتين ، بوضوح نفاذ : « لقد هرب ... الثعبان ! » ، وأحس باشفاق موجع يعتصر قلبه ، على نفسه ، وعلى رفاقه الذين يركبون خلفه .

ولم يستشعر أسفا لأنه سيموت بعد لحظة ، ولأنه سيكف عن الإحساس والمعاناة والحركة ... بل هو لم يستطع أن يتصور نفسه في هذا الوضع الوهمي الغريب . فهو لايزال حيا ، يعاني ويتحرك . ولكنه فهم كل الفهم أنه لن يرى قرية أحلامه ، السابحة في نور الشمس ولا رفاقه وإخوته وأحبابه القادمين وراءه ... ورغم ذلك فقد كانوا جزءا من كيانه ... هؤلاء المكدودون الذين يثقون به ويضعون حياتهم في يده ، فلم يستطع أن يفكر في نفسه ، ولم يستطع إلا التفكير في

تحذيرهم من الخطر مادام فى الوقت متسع . وانتزع مسدسه ورفعه عاليا فوق رأسه ، ليصبح صوته أكثر وضوحا ... وأطلق النار فى الهواء ثلاث مرات كما هو الاتفاق .

وفى هذه اللحظة انبعث وميض وزئير ... وكأن الأرض انشقت نصفين ... وسقط موروزكا ومعه يهوذا — فوق الشجيرات . ورأسه ملقى إلى الوراء ...

وحينما سمع ليفينسون الطلقات — وهى بالنسبة إلى حالته النفسية غير متوقعة . وغير قابلة للتصديق — لم يستطع أن يفهم مغزاها أول الأمر . ولم يفهم ذلك إلا بعد أن سمع سيل الرصاص الذى أطلق على موروزكا ... ووقفت الخيل دون حراك . وقد رفعت رءوسها وانتصبت آذانها .

والتفت ليفينسون إلى الوراء ... عاجزا ... سائلا العون من الآخرين لأول مرة فى عمر قيادته . ولكنه رأى فى وجوه الأنصار العابسة الشاحبة — وقد بدا له أنها انصهرت جميعا وتحولت إلى وجه واحد مفزع ، متسائل فى صمت — مثلما عنده من عجز ورعب .

وجال بخاطر ليفينسون أن هذا ما كان يخشاه طول الوقت ! ولوح بيده كما لو كان يبحث عن شىء يستند عليه ... ولم يجده

وفجأة أبصر وجه باكلانوف بوضوح رائع ... هذا الوجه البسيط كأنه وجه طفل ... تشيع فيه السذاجة ولكنه أسود وتصلب من الإعياء ودخان البارود . وقد أمسك بمسدس فى إحدى يديه . والاخرى تتشبث ممسكة بعنان الجواد . وقد انطبعت على العنان أصابعه الصبيانية الغليظة . وكان باكلانوف محدقا فى الاتجاه الذى جاءت منه الطلقات ووجهه الساذج ، بعظام وجنتيه الناتئة . يميل إلى الامام فى توقع منتظرا الأوامر ، وهو يتلظى بعاطفة صادقة عارمة ... مات من أجلها صفوة

رجال الفرقة .

وانتصب ليفينسون واقفا ورجلاه فى الركاب .. وداخله ينبض انفعال عذب ولكنه فياض باللوعة ، وامتشق حسامه فجأة ، ومال هو أيضا إلى الأمام وعيناه تومضان .

وسأل نائبه باكلانوف بصوت مبحوح ، وقد رفع سيفه فوق رأسه — دون توقع — فتألق فى ضوء الشمس : « هل نحاول اختراق الكمين ؟ »

وانتهج جميع الجنود حذوه ، فانتصبوا فوق الجياد .

وألقى باكلانوف نظرة ضارية إلى السيف ، واستدار بحصانه ليواجه الفرقة ، ثم صاح بصوت نفاذ قاطع ... ولم يستطع ليفينسون أن يلتقط ماقال .. فقد جرفته العاطفة التى سيطرت على باكلانوف وجعلته يرفع سيفه أيضا ، وقفز وثبا إلى الأمام وهو على يقين من أن الفرقة كلها ستنقض فى أعقابه .

وحينما التفت خلفه بعد لحظات ، كان الرجال يركضون خلفه فعلا وقد تملكهم التحفز ، واندفعت أذقانهم فى تحد إلى الامام ، وعيونهم تومض بما رأى فى عينى باكلانوف من حماس مندفع .

وكان هذا المرأى آخر انطباعاته الواضحة ، فنى اللحظه التالية ارتطم بشىء أفقده البصر والسمع ، وأمسك به هذا الشىء فى قبضته معتصرا ساحقا ولم يعد يشعر إلا بأنه على قيد الحياة وهو يسقط فى هوة قانية تغلى فيها الحمم ...

وماذا عن ميتشيك ؟..

إنه لم يلتفت إلى الوراء ، ولم يعد يسمع متعقبيه ، رغم أنه يعلم أنهم ما زالوا يتعقبونه ... وحينما سمع الطلقات الثلاثة والسيل الذى تبعها ، استيقن من أنهم يطلقون عليه الرصاص ، وأسرع فى عدوه .

ووجد الأخدود يفضى إلى واد صغير تنمو فيه غابة هزيلة . فانعطف يمينا ويسارا حتى عاد إلى الانحدار على منزلق جديد ، وفى هذه اللحظة أرعد سيل جديد من الرصاص أشد كثافة ودويا ، وتبعه سيل آخر وآخر دون انقطاع ... وعصف ذلك بالغابة ، وأيقظ فيها حياة عارمة.

وعند كل دوى يصم الآذان كان ميتشيك يهمس باكيا : « يا إلهى .. آه يا إلهى ... يا إلهى ... آه يا إلهى » ، وهو يقلص وجهه المخدوش عامدا فى ضراعة ، متخذا تعبير الأطفال وهم يجهشون بالبكاء ولكن عينيه كانتا ناضبتى الدمع بشكل يستثير النفور ... والعار ! وواصل عدوه ، مستنفدا ما بقى له من قوة .

وبدأ ضجيج الرصاص يخفت ، بل وتغير اتجاه الاطلاق ... ثم صمت تماما .

وتلفت ميتشيك وراءه أكثر من مرة .. لا أحد يتعقبه الآن .. ولاشىء يعكر السكينة المترامية ... الجوفاء التى تمتد أمامه ، فسقط لاهثا خلف أقرب شجيرات وقلبه سريع النبضات ، ثم جلس منحنيا ويداه تحت خديه محدقا أمامه . وظل دون حراك بعض الوقت ... وعلى بعد خطوات منه ، أقعى سنجاب صغير ، ينظر إليه بعينين ساذجتين صفراوين ، فوق شجرة نحيلة جرداء كادت تنحنى إلى الأرض ، سابحة فى ضوء الشمس ...

وفجأة انتصب ميتشيك فى جلسته وقد تشابكت يداه ، وتنهد تنهدا عاليا ... فصرخ السنجاب مذعورا واختفى بين الحشائش . ولاح فى عينى ميتشيك وميض مجنون ، وغرس أصابعه فى شعره وأصدر نباحا ملتاعا ، متمرغا على الارض : « ماذا فعلت ؟ ... أوه ... ماذا فعلت ؟ » ... وأعاد التساؤل متدحرجا على مرفقيه وبطنه . وطغى عليه شعور بالعار ، والاشفاق على نفسه .. كلما مرت لحظة وزاد ادراكه

لحقيقة هروبه ؛ ولمعنى الطلقات الثلاثة الاولى ، ولـكل ما أعقب ذلك من نيران .

« ماذا فعلت ؟ ... كيف استطعت أن أرتكب ذلك ؟ ... أنا الرجل الطيب .. الشريف .. الذى لم أضمر لاحد سوءا !! ... كيف استطعت ؟ »

وكلما بدا له مسلـكه بغيضا شريرا ، أحس بمدى ما كان عليه من خير .. ونقاء .. ونبل ... قبل أن يقترف هذه الجريمة .

وقد عذبه هذا الشعور ؛ لا لان عشرات الرجال الذين ائتمنوه على حياتهم قد هلـكوا نتيجة لمسلـكه ، بل لان الطين الدائم ... القذر ... البغيض الذى تلقيه عليه هذه الجريمة يكذب كل ما كان ينسبه إلى نفسه من طيبه ونقاء :

وبحركة آلية انتزع مسدسه ؛ ونظر إليه طويلا فى ذعر وتشكك .

ولـكنه كان يعلم أنه لن يقتل نفسه أبدا ... إنه لا يستطيع أن يقتـل نفسه ... فأحب شىء إليه فى العـالم كله هى نفسه ... يده البيضاء ... القذرة... الخائرة ، وصوته المنتحب ، وآلامه ... وأعماله حتى أكثرها وضاعة . وبعث فيه ملمس الزيت الذى يغطى المسدس فزعا ، يخالطه — فى استحياء وتلصص — شعور بالإثم ، وحاول أن يتظاهر أمام نفسه ، بأنه لم يكن يعى مافعل ... وأسرع بإعادة المسدس إلى مكانه !

ولم يعد يبكى أو ينتهد ... الآن ... فقد انبطح على وجهه فى هدوء ومرت أمام عينيه كل التجربة التى عاشها طيلة الشهور الاخيرة منذ أن غادر المدينة فى موكب ممض حزين :

أحلامه الساذجة التى يخجل منها الآن ... ارتياعه من المعارك الاولى وجزعه على جروحه ... موروزكا ... المستشفى ... العجـوز بيكا

وخصلاته الفضية ... فرولوف الصريع ... فاريا ذات العينين الواسعتين الحزينتين اللتين لم ير لهما شبيها ولن يرى ... عبور المستنقع وما به من مشقة ، يتضاءل أمامها كل شيء ..

وبدأ ميتشيك يفكر فى صراحة حادة غير متوقعة ، وقد ملأه الإشفاق على نفسه : « لم أعد أستطيع تحمل ذلك ... لا أستطيع أن أحيا هذه الحياة الوضيعة ... غير الإنسانية ... المريعة » وأعاد التفكير ، ولوعا بأن يستثير شعور الإشفاق على نفسه وأن يؤججه ... محاولا أن يغرق وضاعته وعريها فى هذا الجبن الأنيق .

وظل يلوم نفسه ، ويحس بالأسف على مافعل . ولكنه لم يستطع أن يكبح الآمال الذاتية ، والمطامح البهيجه التى تحركت فى نفسه عند شعوره بأنه حر طليق ... وبأنه يستطيع الذهاب حيث لا تنطوى الحياة على كل هذه الأهوال . . . وحيث لا يعلم أحد بما اقترف ! !

واتخذ قرارا : « سأعود إلى مدينتى . . . فليس أمامى شيء آخر » محاولا أن يضفى على هذه الفكرة طابع الضرورة الملحة ، ولكنه لم يستطع أن يخنق شعورا يمتزج فيه الاغتباط بالعار .. ، شعور الرغبة فى تحقيق هذا الحلم . . . والخشية من إخفاقه .

وكانت الشمس قد دارت إلى الجانب الآخر من الشجرة التى كان يقف عليها السنجاب .... فاستطال ظلها .

وأخرج ميتشيك مسدسه وألقاه بعيدا بين الأحراش ! ! وحينما صادف نبعا صغيرا ، اغتسل فى مائه وجلس على مقربة منه ، فلم يكن يجرؤ على الخروج إلى الطريق ... وفكر مذعورا : « ماذا يحدث إذا كان البيض هناك ؟ » وأنصت الى ماء النبع وهو ينساب فى رقة بين الحشائش ... ولكنه فكر فجاة ، بهذه الصراحة الجادة التى تعلم كيف يكتشفها فى نفسه تحت طبقات كثيفة من الأفكار والمشاعر الخيّرة ..

الرقيقة .. العاطفية (!!) : « حسنا وما الفرق بين البيض والحمر ؟ »
وتنهد تنهداعميقا وأغلق أزرارقميصه ،ومضى بطيئا فى اتجاهوادى تودو ــ فاكو وطريقه الرئيسى .

* * *

لم يعرف ليفينسون كم استمر غيابه عن وعيه ، فقد بدا له أن ذلك استغرق زمنا طويلا ، رغم أن هذه الفترة لم تزد فى واقع الأمر عن دقيقة وحينما استفاق أدهشه أن يجد نفسه على السرج ، ولكن السيف لم يعد فى يده ، واهتز أمام عينيه رأس جواده ، ومعرفته السوداء ، وقدأصاب رشاش الدم إحدى أذنيه .

ولم يشعر باطلاق النار ، وبانه موجه إليهم إلا فى هذه اللحظة ... وكانت الرصاصات تعوى كثيفة فوق رءوسهم ... ولكنه أدرك أيضا أن الرصاص يأتى من الخلف وأنهم تركوا وراءهم أيضا أشد اللحظات بشاعة .

وأحس براكبين يحاذيانه ... فاريا وجونشارنكو ، وقد تلطخت وجنة جندي المفرقعات بالدم... وتذكر ليفينسون الفرقة والتفت وراءه ولكن ليس ثمة فرقة ! فالطريق كله تغطيه جثث الرجال والجياد ، وكان هناك بعض الفرسان بقيادة كوبراك يحاولون عبثا أن يلحقوا بليفينسون ووراءهم مجموعات صغيره تتضاءل لحظة بعد لحظة . ولوّح شبح على حصان أعرج بذراعه، وهو يتعثر فى المؤخرة ، ويهتف ، وحوله رجال ذو شرائط صفراء على قبعاتهم ، بدءوا يضربونه بمؤخرات بنادقهم .. فتمايل ثم سقط ... وأشاح ليفينسون ببصره وهو يعبس متألما .

وهنا وصل الثلاثه ــ القائد وجونشارنكو وفاريا ــ إلى منعطف فى الطريق .. وقد خفت ضجيج الرصاص وكفت الطلقات عن صراخها فى آذانهم . وبدأ ليفينسون يبطىء من سرعة جواده بعد أن جذب

العنان بحركة آلية فتجمع حوله الأنصار المبعثرون .

وأحصى جونشارنكو تسع عشر رجلا .. يتضمنونه مع القائد .. وركضوا طويلا هابطين المنحدر دون أن ينطقوا بكلمة واحدة وهم يحدقون بعيون يختنق فيها الرعب .. ولكن الغبطة بدأت تملؤها عند مرأى الطريق الضيق ... الأصفر الصامت وهو يجرى أمامهم ككلب أصفر يطارده الصيادون .

وما لبثت الخيل أن ركضت متباطئة .. واستطاع الرجال أن يميزوا فى وضوح .. جذوع الأشجار المحترقة ... والشجيرات والأعمدة ... والسماء الصافية التى ترتفع فوق الغابة البعيدة ... ثم مشت الخيل وئيدا ، وركب ليفينسون فى مقدمة الآخرين ، غارقا فى أفكاره وقد سقط رأسه على صدره ، وكان يتلفت أحيانا إلى الوراء فى عجز كأنه يود لو يسألهم عن شىء لا يستطيع تذكره ، ويحملق بعين لا ترى قد امتلأت شجنا ، وفجأة جذب عنان حصانه واستدار إليهم ، وومضت عيناه الزرقاوان الواسعتان فى عمق — لأول مرة — بنظرة واعية مدركة ... وتوقف الرجال ... وساد الصمت وتساءل ليفينسون : أين باكلانوف ؟

ونظر إليه ثمانى عشر رجلا فى صمت واندهاش !

وأجاب جونشارنكو أخيراً : « لقد قتلوا باكلانوف » ، وهو ينظر إلى يده الضخمة وما فى أصابعها من عقد .

وسقطت فاريا — وكانت شديدة الدنو منه — على عنق جوادها وهى تنشج نشيجا مرتفعا هستيريا ، وتدلت ضفائرها الطويلة المتموجة وكادت تصل متلوية إلى الأرض . وتقلصت أذنا الحصان فى إعياء وهو يعيد شفتيه المتدليتين إلى مكانهما .

ونظر سيسكين من جانب عينه إلى فاريا ، ثم ابتلع ريقه وتحول بعيدا ..!!

وظلت عينا ليفينسون مثبته فوق رءوس الرجال عدة لحظات ، و بغتة بدا متداعيا متضائلا ، وأحس الجميع أنه أصبح ضعيفا ... قد دبت فيه الشيخوخه ، ولكنه لم يعد يخجل من ضعفه .

ولم يحاول إخفاءه ... فغص من بصره ، وأهدابه المبتلة الطويلة تختلج فى بطء ، والدمع يهطل على لحيته ... ونظر الرجال بعيدا خشية أن ينهاروا هم أيضا .

واستدار ليفينسون وسار بطيئا فى المقدمة .. وتبعته الفرقة ، وقال جونشارنكو موجها الحديث إلى فاريا وهو يربت كتفها .

ــ لا تبكى ... فلا فائدة من البكاء !

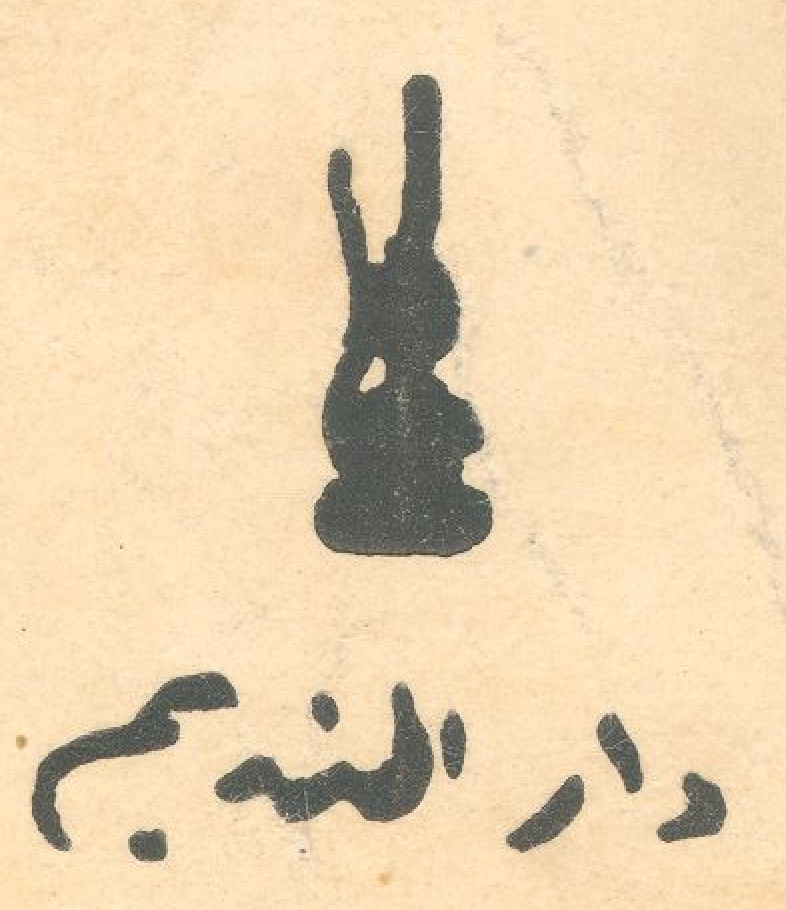
وما أكثر ما نسى ليفينسون نفسه ، والتفت إلى الوراء متسائلا .. ثم يتذكر أن باكلانوف ليس هناك ليجيب على سؤاله فيعود إلى البكاء من جديد .

وواصل الرجال المسير خارج الغابة ... حتى انتهت . فأبصروا سماء زرقاء شاسعة ، وحقولا مترامية ، يجرى فيها الحصاد متألقة الصفرة .. تستحم فى ضوء الشمس ... خلف مجموعة من أشجار الصفصاف يتألق من خلالها نهر دافق أزرق الصفحة ــ وفى ناحية امتدت أرض يعمل الناس فى درسها ، تمتلىء بكومات الدريس الذهبية ... هنا حياة جديدة تتوثب ... حياة حافلة جميلة ... فالناس يحتشدون كفراشات متعددة الألوان ... وسنابل القمح تطير فى الهواء ... وآلة الدريس ترسل أزيزا خشنا واضحا ... وأصوات تمتلىء اشتهاء تتصاعد مصطحبة ضحكات البنات المرتفعة ... وسط سحب التبن اللامع والغبار ..

ووراء النهر لاحت سلسلة جبلية زرقاء ــ كأنها أعمدة ترتفع عليها السماء ــ تضرب جذورها فى الغابات ذات الضفائر الصفراء .

وبين قمم السلسلة المدببة إطار من سحب بيضاء يشيع فيها الاحمرار ويثر عليها البحر ملحه فتنسكب فى الوادى ... مليئة بالزبد والحبب .. كحليب سال لتوه من ضروع بقرة .

ونظر ليفينسون صامتا — وعيناه دامعتان — إلى السماء الواسعة ، وإلى الأرض التى تمدهم بالخبز والراحة وإلى هؤلاء القوم الغرباء فوق أرض الحصاد .. فعليه أن يجعلهم رجاله ... ليصبحوا قريبين إلى قلبه أثيرين لديه كهؤلاء الرجال الذين يتبعونه فى صمت ... وكف عن البكاء ... فعلى الرجل أن يعيش ليحقق مسئوليته !



تحت الطبع

الحرب السلام — تولستوى
(الجزء الثانى)

النهر الهادىء — شولوخوف

توزيع

مؤسسة المطبوعات الحديثة

وفى جمهورية العراق يطلب من
مكتبة المثنى — بغداد



